

المجلة العربية للدراسات التاريخية

علمية محكمة تصدر عن مركز التاريخ العربي

العدد (٣) - السنة الثالثة ٢٠٢١م

القدس
(عدد خاص)

- **صورة المجتمع المقدسي في القرن السابع عشر من خلال رحلة أوليا جلبي**
  د. هشام سوادي هاشم

- **القدس**
  قراءة في كتابات بريطانية معاصرة
  أ. د/جمال محمود حجر

- **خلاصة كتاب «يهود البلاد العربية» للدكتوره خيرية قاسمية**
  د. أنور محمود زناتي

- **عروبة القدس وأسبقية الوجود العربي في فلسطين**
  د. إسماعيل حامد إسماعيل علي



المجلة العربية للدراسات التاريخية

شروط وأحكام النشر

١- تنشر المجلّة العربية للدراسات التاريخية الأبحاث الأصيلة ذات المنهجيّة العلميّة الرّصينة والتي تلتزم بالموضوعيّة، وتتوافر فيها الدّقة والجديّة. في التاريخ ، وكافة العلوم الإنسانيّة والعلوم الاجتماعيّة ذات الصلة بالتاريخ.

٢- كلّ بحث لا يحترم شروط النّشر لا يؤخذ بعين الاعتبار.

٣- تخضع كلّ الأبحاث إلى التّحكيم من قبل هيئة مختصّة، ويلقى البحث القبول النّهائي بعد أن يقوم الباحث بالتّعديلات المقترحة.

٤- للمجلّة كلّ الحق في أن تطلب من الباحث أن يحذف أو يعيد صياغة بحثه، أو أي جزء منه بما يتناسب مع طبيعة المجلّة.

٥- لا يجب أن يكون البحث قد سبق نشره أو كان جزءا من كتاب منشور.

٦- يتعهّد الباحث بعدم تقديم البحث للنشّر في جهة أخرى، بعد إقرار نشره في المجلّة العربية للدراسات التاريخية، إلاّ بعد الحصول على إذن كتابيّ بذلك من مدير المجلّة.

٧- لا تتجاوز صفحات البحث المقدّم ٢٥ صفحة.

٨- على الباحث احترام شروط الكتابة التّالية:

- تحتوي الصّفحة الأولى من البحث على؛ عنوان البحث، الاسم الكامل للباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي اليها باللّغة العربيّة واللّغة الانجليزيّة، البريد الالكتروني للباحث، ملخّص للدّراسة في حدود ١٥٠ كلمة حجم ١٢ بلغة المقال وبلغة أجنبيّة (لإنجليزية)، الكلمات المفتاحيّة بعد الملخّص.



- تقدّم الأبحاث مكتوبة ببرنامج Word بخط Traditionnel Arabic حجم ١٤، تكتب العناوين الرئيسيّة والفرعيّة للفقرات بحجم ١٤ مثلها مثل النصّ الرئيسيّ لكن مع تضخيم الخط. أما الأبحاث المكتوبة باللّغة اللاتينيّة فتكتب بخط Time new Roman، بحجم ١٢ وتكون الحواشي ٤ سم على جوانب الصّفحة الأربعة، كما تدرج الرّسوم البيانيّة والأشكال التوضيحيّة في المقال، وتكتب عناوينها والملاحظات التوضيحيّة أسفلها، أما الجداول ترقم ترقيماً متسلسلاً وتكتب عناوينها أعلاها والملاحظات التوضيحيّة أسفلها.
- يلتزم الباحث بتهميش المعلومات على طريقة APA American Psychological Association
- بالنّسبة لعلامات الترقيم، توضع النّقطة (.) بعد الكلمة مباشرة دون وجود فراغ بينهما، ويوضع فراغ واحد بين النّقطة وبداية الجملة التّالية. كما لا توضع النّقطة (.) أبدا في العناوين، أمّا إذا كان العنوان يضمّ عنوانين أحدهما فرعيّ والآخر رئيسيّ فيفصل بينهما بنقطتين.
- يجب إدراك الفرق بين الفاصلة بالعربية (،) والفاصلة بالأجنبية (,) واستغلالهما في الكتابة المناسبة، كما تكتب الفاصلة بعد الكلمة مباشرة ولا يوجد فراغ بينهما.
- تكتب واو العطف ملتصقة بالكلمة التي تليها ولا يترك فراغ بينهما.
- عدم تزيين النصّ بالألوان والخطوط العريضة وتكبير الحجم، يجب احترام الشروط المعروضة سابقا.
- ضبط اتّجاه النصّ بالعربيّة من اليمين الى اليسار، والنصّ بالأجنبيّة من اليسار الى اليمين، وضبط اتجاه الجمل في النّصوص إذا كانت باللّغة العربيّة او بالأجنبيّة.
- عدم الإكثار من الفقرات وجمعها في نصّ سياقي واحد، واللّجوء الى الفقرات عند الضرورة النصية.

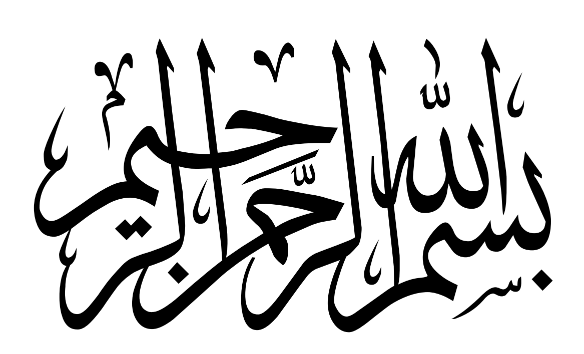
٩- الأفكار والآراء التي يتضمّنها البحث لا تعبّر عن رأي المجلّة وإنما هي وجهة نظر أصحابها. كما أنّ هيئة تحرير المجلّة غير مسؤولة عن أيّ سرقة علميّة تتم في البحوث المقدّمة لها.

١٠- يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلميّ والثقافيّ.

١١- ترسل الأبحاث الى إيميل المجلة
c.a.h.p.e.j@gmail.com

المحتويات

❁ ❁ ❁


بسم الله الرحمن الرحيم

التعليم في القدس في العصر العثماني
١٨٤١ - ١٨٧٦

د / إيهاب السيد العزازى

دكتوراة التاريخ والحضارة الاسلامية

مقدمة

تعـد مدينــة القــدس فــي مركزهـا وأطرافهـا مـن أعـرق المنـاطق التاريخيـة فـي العالم، اذ أنها لم تزل وستبقى تشغل تفكير الانسان العربـي والمسلم خصوصاً واهتمامه وتوجهاته وقد ساهمت جملة عوامل جعلتها تحظـى بمكانـة كبيـرة نظـراً لأهميتهـا الدينيـة ولمكانتهـا المقدسـة علـى امتـداد العصـور التاريخيـة. فهــي مدينــة المقدسـات لجميـع الأديان، كما تضم العديد من الآثار الاسلامية كمدينـة الخليل التـي تضـم قبـر النبـي ابـراهيم عليه السلام ومسجد الحرم الابراهيمـي، كما أن الموقــع الاســتراتيجي لفلســطين وبيــت المقدس، جعلها منذ أقدم العصور حتى يومنا هـذا حلقـة وصـل بـين الجنـاحين الاسـلامي والأفريقي.

خضعت القدس مثلها مثل باقي بلاد الشـام لسـيطرة المماليك الا أن التغيرات التـي حـدثت فـي أوربا وما أعقبها مـن استكشافات جغرافيـة[1] وزيـادة المطـامع الاسـتعمارية فـي المنطقــة أدت الــى تحــول فــي السياســة العثمانيـة علـى صـعيد الفـتح فكـان أن قـاد السـلطان العثمـاني سـليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) حملـة عسـكرية نحـو بـلاد الشـام[2]، فانهـارت

(١) كانـت الاسـتجابة العثمانيـة علـى اكتشـاف العـالم الجديد والطريق الجديد الى الهند، سريعة لأن الدولة وجدت نفسها قد حوصرت اقتصادياً من البر والبحر فإما القبول بالموت البطـيء أو الاقدام على فعل عسكري لتأمين الطرق التجارية المؤدية الى الأناضول للتفاصيل انظر:

Abbas Hamdani: Ottoman Reponse to the Discovery of American and the New Route to India. the Journal of American. Oriental Society. Vol. 101. No. 3. 1981 P.P 31-313.

محمد ابـراهيم الشـاعر، جغرافيـة فلسـطين العسـكرية علـى ضـوء الاسـس العامـة لجغرافيـة الـوطن العربـي العسكرية، (القاهرة،١٩٧٠)، ص٨١؛ عبد الحميد أحمد زايد، القدس الخالدة، ط١، (القاهرة،١٩٧٤)، ص١٣؛

(٢) عن تفاصيل الحملة العسكرية العثمانية الى بلاد الشام ينظر:

=

السلطة المملوكية في بلاد الشام في أعقاب معركة مرج دابق[1] في ٢٣ آب ١٥١٦ ثم تتابعت المدن الشامية الاخرى في اعلان ولائها للسلطان ومنها مدينة القدس[2]. ومن الجدير بالإشارة هنا أن الجيش العثماني دخل القدس بقيادة يونس بك في يوم الأحد ٤ ذي القعدة سنة ٩٢٢هـ/ ٢٨ كانون الأول ١٥١٦ من دون قتال وأصبح اسكندر بن اورانوس حاكماً على مدينة القدس[3] ودخل السلطان المدينة واستقبله السكان استقبالاً رائعاً، وربما كان دافع ذلك مدى استيائهم من حكم المماليك الذي وصف بأنه كان حكماً تعسفياً، وأظهر السوريون على المماليك نقمة شديدة وقسوة أكبر من العثمانيين أنفسهم[4].

شهدت الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر مرحلة الاصلاح

=

Ismail Hakki Uzum Carishe, Osmanli Tarihi, (Ankara, 1949). C.11, ss 250-240; Amnon Cohen and Bernard Lewis, population and Revenue in the Towns of palestion in the sixteenth century, princeton university press, princeton, New Jersey, 1978. P.P. 19-25;

أديب فرحات، سوريا ولبنان، ط٤، (بيروت،١٩٢٩)، ص٢١٧؛ عارف باشا العارف، تاريخ القدس، (القاهرة،١٩٥١)، ص١٦٨؛ محمد أديب العامري، القدس العربية، ط٣، (عمان،١٩٧١)، ص١١؛ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ط١، ج٩، ق٢، (بيروت،١٩٧٠)، ص١٣؛ أحمد المرعشلي وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، ط١، (دمشق،١٩٨٤)، مج٣، ص٥٠٨.

(١) مرج دابق، قرية قرب حلب من أعمال عزار بينها وبين حلب اربعة فراسخ (٢٤كم) للتفاصيل نظر: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، (بيروت،١٩٧٥)، ج٢، ٥١٣؛ أمانوئيل برنس، سياحتنامة ارض فلسطين، تعريب أثر محمد رأفت، (سوريا ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م)، ص٧٩.

(٢) فريدون بيك، منشآت السلاطين، (استانبول ١٢٧٤، ١٨٥٧م)، ج١، ص ص٤٥٠-٤٥٢؛ قسطنطين خمار، موسوعة فلسطين الجغرافية (بيروت،١٩٦٩)، ص١٢٥؛ رشاد الامام، مدينة القدس في العصر الوسيط ١٢٥٣-١٥١٦، ط١، (تونس،١٩٧٦)، عمر عبد العزيز عمر، تاريخ

=

=

المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢، (الاسكندرية، ١٩٨٤) ص ص٧٦-٧٨.

(٣) سعدي بن حسن جان سعد الدين خوجة، تاج التواريخ، (قسطنطينية، ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢)، ج٢، ص٤٢؛ محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، ط٢، (بيروت،١٩٧٩)، مج٢، ج٧، ص٧٢؛ محمد أحمد سليم اليعقوب، ناحية القدس الشريف في القرن ١٠هـ/ ١٦م، ط١، (عمان،١٩٩١)، ص ص١٠-١٤.

(٤) محمد حمدي جلبي صولاق زادة، صولاق زادة تاريخي، (استانبول ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م)، ص٣٩١؛ حسين لبيب، تاريخ الأتراك العثمانيين، ط١، (القاهرة،١٩١٧)، ج٢، ص٥٢؛ نيقولاي ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤، ترجمة يوسف عطا الله، (بيروت،١٩٨٨)، ص٥٦؛ يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، ط١، (استانبول، ١٩٨٨)، مج١، ص ص١٨٩-١٩١.

عرفت بمرحلة التنظيمات[1]. بدأها السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) فبعد موقعه نزيب[2] لم يكن لدى السلطان الجديد جيش ولا بحرية ولا مال فقد دحر الجيش وسلم الاسطول الى محمد علي وفرغت خزائن الدولة[3]. فأصدر السلطان من أجل كسب ود الدول الغربية مرسومين اصلاحيين[4]. عرف الأول باسم خط كول خانة في ٢٦ شعبان ١٢٥٥هـ/ ٣ نوفمبر ١٨٣٩م[5] ثم تبعه مرسوم آخر في ١١ جمادي الآخر ١٢٧٢هـ/ ١٨ شباط ١٨٥٦م عد التزاماً دولياً وهو ما ورد في المادة التاسعة من معاهدة صلح باريس[6]. ولم يكن باستطاعة السلطان الغاؤه او تغييره دون موافقة الدول الأوربية فكان هذا المرسوم وسيلة التدخل الأجنبي[7] وبعد ذلك صدرت مجموعة من القوانين التنظيمية وهي قانون الأراضي (الطابو) ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م ومجموعة القوانين الجنائية والتجارية ١٨٦٠-١٨٦٣ وقانون الولايات ١٢٨١/ ١٨٦٤ وقانون المعارف ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م[8].

لقد شهدت الفترة الممتدة (١٨٣٩-١٨٦٩) وضوح الأهمية الاستراتيجية لفلسطين خصوصاً اهميتها للتجارة الدولية وتوسطها بين الشرق والغرب على خطوط المواصلات العالمية[9].

وبما أن الغرب في ذلك الوقت كان في بداية عصر التطور الصناعي والتوسع الاقتصادي، فقد توجهت سياسات الدول الكبرى نحو المنطقة بشكل عام والمدينة المقدسة بشكل خاص. وبما أن العثمانيين لم يكن بإمكانهم التراجع عن سياسة الانفتاح على العالم بشكل عام والغرب بشكل خاص، والتي أتبعها المصريون في البلاد خصوصاً وأن

(١) محمد حرب عبد الحميد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، (دمشق، ١٩٨٩) ص٤٨.

(٢) في هذه المعركة هزمت القوات العثمانية امام القوات المصرية. ينظر: عبد الرحمن بك الرافعي، عصر محمد علي، (القاهرة،د.ت)، ص٢٩٧.

(٣) محمد مصطفى صفوت، محاضرات في المسألة الشرقية ومؤتمر باريس، (القاهرة،١٩٥٨)، ص٥٠.

(٤) ينظر: نص المرسومين في المحامي، المصدر السابق، ص ص٢٥٤-٢٦٠.

(٥) شفيق جحا، التنظيمات أو حركة الاصلاحات في الامبراطورية العثمانية ١٨٥٦-١٨٧٦، مجلة الابحاث، السنة الثانية، ج٢، حزيران ١٩٦٥، ص١٠٩.

(٦) وهي المعاهدة التي تم توقيعها بعد حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) بين الدولة العثمانية وروسيا، عن بنود هذه المعاهدة ينظر: اورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، حياته، وأحداث عهده، (الأنبار،١٩٨٧)، ص٣١؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص٣٩.

(٧) فلاديمير بوريوفتش لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة عفيفة البستاني، ط٧، (بيروت-١٩٨٠)، ص١٥٩.

(٨) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ الشعوب الاسلامية، (بيروت،١٩٧٣)، ص١٩٤.

(٩) عز الدين فودة، قضية القدس في محيط العلاقات الدولية، (بيروت،١٩٦٩)، ص١١١.

عودة السيادة العثمانية على البلاد قد تمت بمساعدتهم، فقد توالى فتح القنصليات الغربية في مدينة القدس وهي المدينة التي لم يكن بإمكان أي دولة أن تقيم لها أي وجود فيها خلال العهد العثماني السابق للحكم المصري[١].

حتى أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر كانت المدن الفلسطينية ومنها مدينة القدس المسرح الرئيس للتنافس والصراع على السلطة بين العائلات والاسر الحاكمة مع السلطات العثمانية، الا ان الأمر اختلف في عهد السلطان عبد العزيز حيث كان المسؤولون في استانبول في ذلك الوقت على اقتناع تام بأن التنظيم الاداري الذي يقوم على أساس المرسوم الصادر باسم (خطي همايون) سنة ١٨٥٦ لا يمكن تنفيذه الا من قبل حكومة مركزية قوية وحازمة[٢] لذا تم وضع قانون الولايات سنة ١٨٦٤م الذي فصل القضاء عن الادارة وقوى سلطة الحكومة المركزية في ولاياتها. كما قام بتجريد الزعماء المحليين في مختلف أنحاء الدولة العثمانية من السلطة وتمت الاستعاضة عنها باستحداث المجالس المحلية مثل المجالس البلدية والمجالس الادارية. فكانت مدينة القدس هي اولى المدن الفلسطينية بعد استانبول في انشاء مثل هذه المؤسسات ، مما أدى هذا الأمر الى تطورها الاداري الواضح والكبير[٣].

المبحث الأول : سياسات العثمانيين في تطوير التعليم في القدس.

أولى السلطان عبد الحميد الثاني اهتماماً كبيراً بالتعليم الذي أصبح في عهده أفضل مما كان عليه بدرجات وأصبح معظم العثمانيين لهم نصيب من العلم وزاد عدد المتعلمين في كثير من الولايات[٤]. وزاد من نفقات الدولة على التعليم[٥] وافتتحت في عهده أعداد كبيرة من المدارس والمعاهد العالية في شتى أنحاء الدولة[٦]. كما أنشأ جهازاً للرقابة على المعارف والمدارس[٧].

وفي بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني اصدر دستوراً نص على العديد من المواد التي تتعلق بإصلاح التعليم، منها جعل التعليم

(١) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، (القاهرة،١٩٧٤)، ص٩٢.

(٢) ز.ي هرشلاغ، مدخل الى التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط، تعريب مصطفى الحسيني، (بيروت،١٩٧٣)، ص٦٢؛ انيس، المصدر السابق، ص٢٠٧؛ العابدي، المصدر السابق، ص١٣٣.

(٣) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص٣٧؛ شولش، تحولات...، ص٢٩٣.

(٤) البستاني، المصدر السابق، ص١٠٤.

(٥) الجميل، العرب والأتراك...، ص٧٦.

(٦) غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص٢٥١.

(٧) سلطان، المصدر السابق، ص٣١٩.

الابتدائي اجبارياً على كل فرد من أفراد الدولة[١]. كما اهتم بالمدارس الدينية وهذا أمر يتناسب مع دعوته للجامعة الاسلامية التي تبناها[٢].

وفي عام ١٨٧٩م أعلن السلطان عبد الحميد الثاني برنامجه الاصلاحي في مجال التعليم مؤكد على ضرورة وضع حد لتدهور التعليم في عموم ارجاء الدولة العثمانية[٣]. فتم توسيع نطاق التعليم الحديث وتم افتتاح مدارس جديدة لتدريب النخبة البيروقراطية وحصولها على خبرات في القانون والمالية يتم فيها تعيين الخريجين واعطائهم الأفضلية الاولى[٤]. وفي مجال اهتمامه بالتعليم الديني، انشأ معهداً لتخريج الدعاة وبعث بجماعات كبيرة منهم الى أقصى بلدان العالم الاسلامي[٥].

واهتم كثيراً بعلماء الدين الاسلامي ومنحهم الامتيازات وبنى العديد من المساجد والمدارس الدينية[٦]. وشمل هذا الاهتمام ارسال علماء الدين الى الأقضية والنواحي والقرى التي ليس فيها معلمين ومتابعة جهود هؤلاء[٧]. وفي مجال عنايته بالمدارس الدينية كان من الطبيعي أن يهتم باللغة العربية فجعلها لغة التدريس للعلوم والمعارف الاسلامية فاحتلت اللغة العربية في عهده مكانة ظاهت اللغة التركية[٨].

أما بالنسبة للتعليم الحديث فيعتبر السلطان عبد الحميد الثاني مؤسسا للتعليم الابتدائي والمتوسط على الطراز الغربي وانشأ المدارس الاعدادية والثانوية في الولايات كافة وافتتح المدارس الابتدائية في جميع القرى وجعل تعليم اللغة الأجنبية إلزامياً في المرحلة الاعدادية وأنشأ دوراً للمعلمين في عدد من الولايات ومدارس للحقوق في بعضها[٩].

---

(١) دسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، ص٢٤٤؛ علاوي، الادارة...، ص١٠٨.

(٢) للتفاضل عن الجامعة الاسلامية، ينظر: الشوبكة، المصدر السابق، ص٦٦.

(3) Shaw , OP. Cit, P24.

(4) Ibid , P243.

(٥) انطونيوس، المصدر السابق، ص٦٩؛ عبد السلام القشطان، التعليم العربي الحكومي ابان العهد التركي والانتداب البريطاني (١٥١٦-١٩٤٨). (عمان-د.ت) ص٣٠.

(٦) البستاني، المصدر السابق، ص٤٣. ويعد اهتمام السلطان عبد الحميد الثاني بالمدارس الدينية جزء من =

= سياسته في محاربة الحركة السلفية، فقد بذل أبو الهدى الصيادي جهوداً كبيرة للحيلولة دون انتشار هذا المذهب وللمزيد عن علاقة السلطان عبد الحميد الثاني بأبي الهدى الصيادي انظر:

B.Abu. Manneh, Sultan Abdul- Hamed II and Shaikh Abu Al-Huda Sayyadi, Middle Eastern Studies, Vol, 15, 15 Nu. 2, May, 1971, PP. 132-148.

(٧)علاوي، الادارة العثمانية...، ص١٠٩.

(٨) المصدر نفسه، ص١٠٩.

(٩) طوران، المصدر السابق، ص٢١.

واهتم بتعليم أبناء الفلاحين العاملين في الأراضي السنية الذين كانوا بحاجة الى التعليم فقامت دائرة السنية بفتح مدارس مجانية في بعض أملاكها وتشير دراسة أكاديمية وثائقية الى أن معظم المدارس الابتدائية التي شيدت بعد سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م كانت من واردات أراضي السنية وكانت مدارس دائرة السنية تحت اشراف ومتابعة دائرة المعارف التي تكون مسؤولة عن توفير المعلمين الأكفاء لتلك المدارس وتدفع الدائرة السنية رواتبهم(١). كما أنشأ في كل سنجق مدرسة اعدادية(٢). وزاد عدد المدرسين في الجامعات والكليات الا أنه في عهده ايضاً أصبحت أقل المؤسسات التعليمية تقع في ظل سيطرة مشددة وبالتحديد في النصف الثاني من حكمه(٣).

كذلك فقد انشأ السلطان عبد الحميد الثاني(٤) كليات الطب، والعلوم، والآداب، والحقوق، والعلوم السياسية، والأكاديمية، والفنون الجميلة، والتجارة، والزراعة، والبيطرة كما انشأ معهد المعادن والغابات، ومعهد اللغات، ومدارس الصناعة للبنين، واسس المكتبات(٥).

كما أبدى السلطان عبد الحميد الثاني اهتماماً كبيراً بالتعليم العسكري فاستقدم الخبراء العسكريين من أوربا للتدريس في المدارس العسكرية، لاسيما من المانيا(٦).

وفي عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م اصدر السلطان تعليمات باعفاء معلمي المدارس الأولية والرشدية من الخدمة الرديفية (الاحتياط) مادامو في اعمالهم(٧).

المبحث الثاني : المدارس العامة والأهلية في القدس في العصر العثمانى.

وتلقى المسلمون في القدس تعليمهم في المدارس الأهلية ثم في المدارس الحكومية، واقتصر التعليم في المدارس الأهلية على معرفة القراءة والكتابة والحساب(٨). وعين الأثرياء معلماً خاصاً لأبنائهم تحت اشرافهم ولكل مرحلة بنسبة تقدمهم في التحصيل الدراسي(٩).

(١) صباح حسين اعقاب الجراح، املاك السنية في العراق (١٨٧٦-١٩٠٩) رسالة ماجستير، كلية الآداب، (جامعة الموصل،٢٠٠٠)، ص ١٧٢-١٧٤.

(٢) مصطفى، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(3) Geffrey Lewis, Turkey, (London, 1965), P. 47.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن نظام التعليم وانتشار المدارس في عهد السلطان عبد الحميد انظر:
Bayram Kodaman, Abdul Hamid Devri Egitim Sistemi, (Istanbul, 1980)

(٥) علي، السلطان عبد الحميد الثاني.... ص ص١٦٧-١٦٨؛ سلطان، المصدر السابق، ص٣١٩

(6) Par Paul, op. cit , P. 181.

(٧) عوض، الادارة العثمانية.... ص٢٤٦.

(٨) عوض، مجتمع مدينة القدس...، ص٧.

(٩) احسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ج١، قسم ٢، (نابلس، ١٩٦١). ص ص٦٥-٦٦.

وتأسست في العهد الدستوري بعض المدارس الأهلية في القدس ولكنها كانت ضعيفة الموارد المالية مثل المدرسة الدستورية ومدرسة روضة المعارف(١). واشتمل التعليم في المدارس الحكومية على مبادئ اللغات التركية، والفرنسية، والفارسية، والعربية، وعلوم الحساب، والهندسة، والجغرافية، وكان ينفق على هذه المدارس من الخزينة المحلية(٢).

وكان نظام التعليم في القدس مقسماً على مراحل هي التعليم الابتدائي والرشدي والاعدادي والدراسة العليا (قاصرة على استانبول فقط) بموجب نظام المعارف الصادر في ٢٤ جمادي اللولى ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م(٣).

١. المدارس الابتدائية

نص نظام المعارف على وجوب وجود مدرسة ابتدائية في كل قرية أو -في الأقل- في كل قريتين على ان يدفع أهل القرية نفقات انشاء المدرسة وتعميرها ومخصصات المعلمين فيها. والتعليم في هذه المرحلة إلزاميٌ، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات(٤).

(١) حنا صلاح، فلسطين وتجديد حياتها، (نيويورك، ١٩١٩)، ص١٠٥.

(٢) وليد العريض، "المؤسسات العثمانية في القدس في الوثائق العثمانية"، ندوات القدس، ٥٠٠ عام من الحقوق العربية، الندوة الثانية، (المفرق، ١٩٩٧). ص١٦.

(٣) الدستور،ج٢، ص١٥٧.

(٤) الدستور، ج٢،ص ص١٨٤-١٨٦.

ولم يكن هناك اهتمام بالمدارس الابتدائية لأسباب منها الافتقار الى الامكانات الفنية والنقص في الكوادر التعليمية كما أن الكوادر الادارية كانت بحاجة الى خريجي المدارس الرشدية للعمل فيها كتاب وموظفين(٥). الا أنها فيما بعد أدركت أهمية هذه المدارس لاسيما ان الصحف أشارت الى أن التعليم الابتدائي هو الذي يضمن للأطفال طريق المستقبل. وكان الدستور العثماني ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م قد نص على أن يكون التعليم الابتدائي إلزامياً لجميع رعايا الدولة العثمانية(٦). فأخذت الدولة تهتم به وتخصص له واردات الأوقاف المدرسة لتنظيمها. وبموجب قانون المعارف العثمانية ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م كان التلاميذ الذين يحصلون على الشهادة الابتدائية يستطيعون الدخول الى المدارس الرشدية. وكانت مدة الدراسة في هذه المدارس أربع سنوات ويقبل في المدارس الأطفال الذين يبلغون من العمر (٦-١١ سنة) أما البنات (٦-١٠ سنوات) ولكن بشكل منفصل عن الأولاد(٧). أي أنها تقبل الطلاب بعد الكتاب. وتدرس هذه المدارس القرآن الكريم وقواعد اللغتين العربية والتركية وعلوم الحساب والتاريخ والجغرافية والانشاء وحسن الخط(٨).

(٥) عوض، الادارة العثمانية...، ص٢٥٤.

(٦) الدسوقي، الدولة العثمانية...، ص٢٤٤.

(٧) اداموف، المصدر السابق، ج١، ص٨٨.

(٨) س.ن.م.ع. ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ص١٦٤٨.

وكان الجدول الدراسي في المدارس الابتدائية على الشكل الآتي[١]:

نوع الدرس	السنة الاولى	السنة الثانية	السنة الثالثة
الفباء	١٢ حصة في الاسبوع	٦	-
قرآن	١٢ حصة في الاسبوع	٦	٥
تجويد	-	٦	٢
علم حال	٢ حصة في الاسبوع	٣	٣
اخلاق	-	٢	٢
حرف عثماني	-	-	٢
قراءات (قراءة)	٣ حصة في الاسبوع	٢	١
املاء	٣ حصة في الاسبوع	٣	٢
مختصر تاريخ عثماني	-	٢	٢
مختصر جغرافية عثماني	-	٢	٢
حساب	١ حصة في الاسبوع	٢	٢
حسن خط (تحسين الخط)	١ حصة في الاسبوع	٢	٢

أما عدد المدارس الابتدائية في قضاء القدس لعام ١٨٧٠ فقد كان على النحو الآتي[٢]:

اسم الناحية	عدد المدارس	عدد الطلبة
بني زيد	١١	١٥٦
بني مرة وبني سالم	١٤	٢١٤
بني مالك	٧	١٣٢
بني حسن	٥	٦٠
بني الحارث القبالا والشمالا	١٨	٢٤٨
البيرة أو جبل القدس	٢٣	١٨٣
المجموع	٧٨	٩٩٣

(١) العريض، المؤسسات العثمانية...، ص١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧.

اما الخليل فقد ضمت في عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م ثلاث مدارس ابتدائية[١] فتحت أبوابها على التوالي في السنوات ١٢٩٩هـ/١٨٨١، ١٣٠٥هـ/١٨٨٧، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م. ضمت هذه المدارس جميعها عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠- ١٣١٩/١٩٠١ ما يقدر بـ (٢٢٥) طالب وبلغت مصروفاتها الأولى: (١٤,٣٧٥) قرشاً[٢] سنة ١٨٨١، والثانية (٢٨٩٠) قرش عام ١٨٨٨م والثالثة: (٥٧٥٧) قرشاً عام ١٨٩٥ وكانت تضم أبناء البدو أيضاً[٣]،

وكان ملاك هذه المدارس لا يزيد على معلمين اثنين في المدرسة الواحدة والغالبية العظمى من المدارس لم يكن فيها الا مدرس واحد[٤]. لذلك كانت هذه المدارس لاتؤدي واجبها على الوجه الأكمل فكانت الصحف توجه الانتقادات الى أساليب التدريس في هذه المدارس مما يجعل الطلاب يقضون أوقاتهم فيها عبثاً[٥]. وكانت لغة التدريس في هذه المدارس هي اللغة التركية لذلك كانت مادة الدرس غير مفهومة في الغالب لهذا بقي التعليم محصوراً في طبقة الموظفين[٦].

وفي عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م خضعت المدارس الابتدائية للتفتيش من قبل مفتش المدارس الابتدائية والذي تمتع بعضوية مجلس الادارة المحلي[٧].

ومن مكاتب النصارى الابتدائية في المتصرفية، مدارس الارثوذكس، والكاثوليك، واللاتين، والبروتستانت، والأرمن[٨].

(١) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص١٣٥.

(٢) القرش: كلمة مأخوذة من الأصل اللاتيني (Grossus) وهي عملة فضية عثمانية سكت عام ١٩٨٨ لم تثبت قيمتها في السوق المحلية، انظر: غانم محمد علي، النظام المالي العثماني في العراق ١٨٣٩-١٩١٤، رسالة ماجستير، كلية الآداب، (جامعة الموصل،١٩٨٩)، ص ص١٦٥-١٦٦.

(3)WWW. Hollypal. Com/ palestine/ cities/ htm.

(٤) عوض، الادارة العثمانية....ص٢٥٥.

(٥) علاوي، الادارة...، ص١٣٠.

(٦) نبيل أيوب بدران، التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني، ج١، (بيروت،١٩٧٣)، ص٢٨.

(٧) س.ن.م.ع. ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨. ص٨٨٤ وقد شغل هذا المنصب احمد حمدي أفندي لسنتين متتاليتين أما في عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م ص٨٢٦ فقد شغل المنصب ابراهيم خليل أفندي وربما يعود سبب استحداث هذا المنصب لمراقبة برامج البعثات التنصيرية في مدارس غير المسلمين والمدارس الأجنبية.

(٨) لمزيد من التفاصيل حول هذه المدارس وتوزيعها على الأقضية التابعة للمتصرفية والملة التي تنتمي اليها المدرسة ينظر: س.ن.م.ع. ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥، ص١٥٥٧-١٥٦٠؛ س.ن.م.ع. ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، ص١٤٤٣-١٤٤٥؛ س.ن.م.ع. ١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩، ص١٤٧٦-١٤٧٩؛ س.ن.م.ع. ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠، ص١٦٥٠-١٦٥٧. ١١٠

٢. المدارس الرشدية

اهتم المسؤولون العثمانيون بالمدارس الرشدية[١] قبل غيرها من المدارس نتيجة الحاجة الضرورية والسريعة الى عدد من المتعلمين والمدنيين والعسكريين للعمل في دوائر الدولة من جهة ولمواجهة متطلبات العصر الحديث من جهة اخرى ومدة الدراسة في هذه المدارس اربع سنوات[٢].

واوجب قانون المعارف ١٢٨٦/١٨٦٩ فتح مدرسة رشدية في كل قصبة يزيد عدد دورها على (٥٠٠) دار سواء كانوا من المسلمين أو من غيرهم وقد أكد القانون في حالة وجود أكثر من (١٠٠) بيت للنصارى تفتح لهم مدرسة رشدية كذلك[٣]. وحددت رواتب المدرسين في هذه المدارس والتي تدفع من صندوق ادارة المعارف التابع للمتصرفية وكانت بالشكل الآتي، المعلم الأول (٨٠٠) قرش المعلم الثاني (٥٠٠) قرش، البواب (٢٥٠) قرش، أما مدارس البنات فكان الراتب لا يتجاوز (٣٠٠) قرش[٤].

وفي عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩ كانت هناك مدرسة رشدية واحدة في يافا فيها معلم أول هو عبد الرحمن ثريا أفندي ومعلم ثانٍ هو محمد راتب أفندي، ومعلم تحسين الخط محمد فوزي أفندي، ومعلم اللغة الفرنسية محمد سلام أفندي[٥].

كذلك فقد وجدت مدرسة رشدية واحدة في غزة عدد طلابها (٧٥) طالباً وتكون كادرها من المعلم الأول ومعلم تحسين الخط علي رضا أفندي، ومعلم ثانٍ، ومعلم تحسين الخط عبد اللطيف أفندي، ومعلم اللغة الفرنسية كمال زاده عبد السلام[٦].

أما قضاء خليل الرحمن فقد احتوى على مدرسة رشدية، فيها معلم أول هو نفسه معلم تحسين الخط وهو حافظ شريف ذهني أفندي[٧]. وقد بوشر بالتدريس فيها

(١) ويقصد بها في المصطلح العثماني المدارس التي تكون بعد الابتدائية أي المتوسطة وقبل الاعدادية وسميت الرشدية من الرشد ويرجع نشأة هذه المدارس في الدولة العثمانية الى ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨ ينظر:
Lewis, the Emereence, P.83.

(٢) عليان عبد الله الحولي، "تاريخ التعليم في القدس"، ندوة يوم القدس الرابعة، جامعة النجاح الوطنية، ١٩٩٨، ص٧١.

(٣) الدستور، ج٢، مادة (١٩)، ص٢٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، مادة (١٩)، ص٢٥٩.

(٥) س.ن.م.ع. ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ص١٤٧١ ولم تذكر السالنامة عدد طلبة المدرسة، ومن المستغرب أن لا تشير هذه السالنامة الى وجود مدارس رشدية في القدس على الرغم من وجود مدرسة اعدادية فيه.

(٦) س.ن.م.ع. ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ص١٤٧٠-١٤٧١.

(٧) س.ن.م.ع. ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م. ص١٤٧٠-١٤٧١ ومما هو جدير بالذكر ان سالنامات المعارف العمومية التي اصدرتها وزارة المعارف العمومية العثمانية للأعوام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م و ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م و ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م تقول إن المعلم الأول للمدرسة الرشدية كان طيلة تلك السنين المذكورة هو حافظ شريف ذهني، وهذا يدل على نقص في الكادر التعليمي.

عام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م[1].

وبلغ عدد المدارس الرشدية في قضاء خليل الرحمن في عام ١٩٠٦-١٩٠٧ اربع مدارس لمدة ٤ سنوات، وكان الجدول الدراسي في المدارس الرشدية على النحو الآتي[2]:

السنة الأولى: حرف عربي (لغة عربية)، تعليم فارسي (لغة فارسية)، الأعمال الأربعة، املاء، علم حال، أخلاق، خط ثلث.

السنة الثانية: لغة عربية، قواعد فارسية، مختصر حساب، جغرافية أوربا، ترجمة، إنشاء وقراءات، خط رقعة وثلث.

السنة الثالثة: جولستان بستنة، حساب، جغرافية، إملاء، إنشاء، مختصر، لغة عربية، وخط الرقعة.

السنة الرابعة: الرسائل الأربعة (الغزالي)، جولستان، جبر، جغرافية، هندسة، أصول دفتر قواعد عثمانية، إنشاء، لغة فرنسية، مختصر تاريخ عثماني وخط رقعة.

أما في عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م فقد بقي الكادر التعليمي في المدارس الرشدية في الأقضية على ما هو عليه[3].

٣. المدارس الاعدادية

يعد العام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م بداية تأسيس المدارس الاعدادية في الدولة العثمانية على الرغم من أن قانون المعارف الصادر في عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩ أقر تأسيس مدرسة اعدادية في المدن التي يبلغ عدد دورها (٢٠٠٠) دار يقبل فيها الطلاب المسلمين وغير المسلمين على حد سواء[4]. وكانت هذه المدارس على نوعين الأول يتكون من سبعة صفوف الثلاثة الاولى منها رشدية والصفوف التالية اعدادية وهذا النوع خاص باستانبول وبعض الولايات، أما النوع الثاني فكان ذا خمسة صفوف، الصفوف الثلاثة الاولى منها رشدية[5].

مدة الدراسة في هذه المدارس اربع سنوات بعد الدراسة الرشدية معظمها داخلية (ملحق بها قسم داخلي) لإسكان الطلاب

---

(1)WWW. Hollypol. Com/ Palestine/ Cities/ htm.P24.

(٢) العريض، المؤسسات العثمانية...، ص١٨.

(٣) س.ن.م.ع. ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ص١٦٤٨-١٦٤٩، ولم تشر هذه السالنامة الى معلم اللغة الفرنسية مما يدل على حذف المادة من الجدول الدراسي.

(٤) صلاح، المصدر السابق، ص ص١٠٠-١٠١؛ سمير صقيلي، "الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين عشية الحرب العالمية الاولى" من كتاب القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، ج١، (الموصل، ١٩٨٣)، ص٣١٠.

(٥) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص١٣٦؛ الخولي، المصدر السابق، ص٧١.

الوافدين من خارج مركز الولاية وأصبحت تسمى بـ (ليلى اعدادي مكتبي) أي مدارس اعدادية مسائية[١].

الا أن الدراسة فيها بقيت صباحية وقد فرضت أُجور على الطلاب الميسورين أما الفقراء فقد تقرر قبولهم مجاناً في المدرسة والقسم الداخلي[٢]. وكانت هذه المدارس تخضع للتفتيش من قبل مدير المعارف[٣].

ولم يكن في مدينة القدس سوى مدرسة اعدادية واحدة في قضاء القدس وقد احتوت في العام الدراسي ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧، ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م على (١٠٦) طالب مسلم وطالبين اثنين غير مسلمين[٤]. وفي عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ضمّت (١٠٣) طالب وجميعهم من المسلمين يدرسهم (٨) مدرسين بما فيهم المدير عبد الله فيض ومن مدرسيهم الشيخ موسى البديري يدرس الجغرافيا والحساب والهندسة والجبر، والشيخ طاهر أبو السعود يدرس اللغة العربية والدين، والسيد سعيد يدرس الخط والسيد اسحق مدرس اللغة التركية والأخلاق[٥].

جمعت المدرسة الاعدادية (١٢٣) طالباً في عامي ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م ، ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.

وفي سالنامه الدولة العثمانية لعام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م ذكر أن في القدس (٥٢٨) مدرسة منها (٥٦) مدرسة للبنات و (١٤) مختلطة و (٤٥٨) للبنين تقسم الى المجموعات الآتية حسب السلطات المشرفة عليها[٦] (٣٥٦) للبنين[٧] ومدرستين ابتدائيتين للبنات، وتشرف على المدارس جميعاً الوزارة العثمانية، والمدارس الباقية كانت مدارس طوائف[٨] ومدارس أجنبية[٩].

أما سالنامة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م فتشير الى المدرسة الاعدادية الوحيدة الموجودة في القدس وتدرس العلوم المختلفة وكان كادرها التدريسي على الشكل الآتي[١٠]:

---

(١) العريض: المؤسسات العثمانية...، ص١٨.

(٢) عوض، الادارة العثمانية...، ص٩٣.

(٣) الحكيم، المصدر السابق، ص١٩١.

(٤) س.ن.م.ع. ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠، ص١٦٤٨.

(٥) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص١٣٦.

(٦) المصدر نفسه. ص١٣٨.

(٧) بينها (٣٥٠) ابتدائية و (٤) بالمرحلة الرشدية وواحدة اعدادية واخرى تحمل اسم (دار المعلمين الابتدائية).

(٨) منها (٣٠) مدرسة للروم و (٣٦) مدرسة لليهود.

(٩) منها (٣٧) مدرسة انكليزية و (٢٤) فرنسية. وهناك مدارس اخرى للروس والنمسا والولايات المتحدة الأمريكية والمانيا.

(١٠) س.ن.م.ع. ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، ص ص١٤٧٠.

اسم المعلم	المواد التي يدرسها
محمد خير أفندي	المدير، معلم اللغة التركية، الهندسة، دفتر الاصول، الجبر، اللغة الفرنسية، والمعلومات النافعة
أبو السعود زادة طاهر أفندي	معلم العلوم الدينية واللغة العربية
حسين زادة سعيد أفندي	معلم تحسين الخط
أبو السعود زادة اسحق أفندي	معلم اللغة التركية
بدري زادة موسى أفندي	معلم اللغة التركية والحساب والجغرافية
رشدي أفندي	معلم التاريخ
جركس زادة على افندي	معلم الرسم ووكيل معلم اللغة الفارسية
نمر زادة علي أفندي	مبصر*، معلم اللغة التركية

أما عدد الطلبة الموجودين في العام الدراسي ١٣١٤هـ-١٣١٥هـ فقد كان على النحو الآتي[١]

مسلم	غير مسلم	المجموع
٨٨	١	٨٩

أما في عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م فقد اشتمل كادرها التدريسي على مايأتي[٢]:

اسم المعلم	المادة التي يدرسها
عبداه فيضي أفندي	معلم الفرنسية – تركية والكتابة ومعلومات نافعة/ دفتر الاصول.
شيخ طاهر أفندي	معلم العربي والعلوم الدينية
سعيد أفندي	معلم تحسين الخط
موسى أفندي	معلم هندسة، حساب، جغرافية، وجبر
إسحق أفندي	معلم التركية
رشدي أفندي	معلم التاريخ
علي أفندي	معلم الرسم والفارسية
عبد الكريم	مبصر ومعلم التركية[٣]

(*) مبصر: هو الشخص الذي يقوم بمراقبة أعمال الطلبة وحركاتهم، ينظر: سامي، قاموس تركي، ايكنجي جلد، ص١٢٧٠.

(١) س.ن.م.ع ١٣١٧هـ/١٨٩٩، ص١٤٧١.

(٢) س.ن.م.ع. ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ص١٤٧١.

(٣) س.ن.م.ع. ١٣١٨هـ/١٩٠٠م، ص١٦٤٧-١٦٤٨.

ذكر شاهين مكاريوس في مقال عن المعارف في سوريا أنه كان في في القدس عام ١٨٨٢م (٦٧) مدرسة للبنين و (١٤) للبنات وبلغ عدد المعلمين (١٧١) معلم و(٥٧) معلمة وبلغ عدد التلاميذ (٢٨٧٢) تلميذ و(١٠٨٦) تلميذة[١]. أما عدد المعلمين في المدارس الاعدادية كان (٨١) وعدد المعلمات (١) وعدد المعلمين في المدارس الرشدية (١٦٤) وعدد المعلمات (٣) [٢].

وفي نهاية العهد العثماني أصبحت اللغة التركية لغة التدريس الرسمية في المدارس الحكومية واقتصر التعليم بالعربية على المدارس الأهلية، وأدى الاهتمام بتدريس اللغة التركية وآدابها وتفضيلها على اللغة العربية وآدابها في العهد الدستوري تماشياً مع سياسة التتريك الى نفور الطلاب من المدارس الحكومية والالتحاق بالمدارس الأجنبية[٣]، وقامت العائلات المتنفذة في

(١) شاهين مكاريوس: "المعارف في سوريا"، المقتطف، السنة السابعة، ج٩، ص٥٣٧.

(٢) وهذه ارقام مبالغ فيها كثيراً لأن حسب سالنامة عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠ان كان هناك (٣) مدارس رشدية في القضاء ومدرسة اعدادية واحدة ولايعتقد أنها كانت تحتوي على هذا العدد الكبير من المدارس والمعلمين والمرجح أنّ الكاتب بالغ في العدد لاظهار الاهتمام الكبير للدولة بالتعليم. Kodamam,op,cit.,p59.

(٣) صلاح، المصدر السابق، ص١٠٨.

المتصرفية بتعليم أبنائها في بيروت وفرنسا[٤].

كذلك فان الانجازات الفعلية لهذه المدارس لم تصل أبداً الى مستوى طموح البرامج، مما أدى الى تعرض البنية التعليمية العثمانية بمجملها لنقد شديد على أساس أنها في مضمونها واسلوبها لم تكن على صلة حقيقية بحاجات المجتمع الفلسطيني، وباعتبار أنها شكلت عقبة في طريق تطور عقول الناشئة العرب[٥].

ويحسن بنا أن نذكر امام هذه الانتقادات أنه بينما لم تكن هناك في العام ١٨٨٢م سوى مدرسة رشدية واحدة في المتصرفية فقد ارتفع العدد في العام ١٩٠٨ الى ثماني مدارس، مما يشير الى أن هذه المدارس الجديدة، وإن كانت نوعية التعليم فيها متدنية بالمقارنة مع المعاهد الأجنبية، فقد أدت خدمات كبيرة للطلاب لاسيما الفقراء الذين -لولاها- ربما كانوا يحرمون من امكانية التعليم كلياً[٦].

ومن الجدير بالذكر أن الإدارة العثمانية في القدس قد وسعت اهتماماتها بالناحية التعليمية سواء عن طريق إنشاء المدارس أو تعميرها وقد أنفقت على ذلك مبالغ كبيرة،

(٤) الهلال، السنة ٢٢، ج٨، ايار ١٩١٤، ص٦٠٣-٦٠٧، الحكيم، المصدر السابق، ص١٩١.

(٥) صقيلي، المصدر السابق، ص٣١٠.

(٦) المصدر نفسه، ص٣١٠.

فقد حولت المدرسة المأمونية التي أصابها الخراب الى مكتب إعدادي بعد إعادة تعميرها عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨١م، بكلفة (٣٠٠٠٠) قرش منها (٢٠٦٠٢) قرش بدل ملكية الأرض دفعت تعويضاً لأصحابها. وقد تم البناء حسب الاصول الحديثة من كشف هندسي وخرائط[١].

وفي عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م حولت المدرسة الدواندارية بعد إعمارها الى إصلاحية (إصلاح خانة).. وكلفت إعادة تعميرها حوالي (١٠٨٠٠) قرش منها (١٨٠٠٠) قرش على حساب صندوق البلدية، في حين بلغ (٢٧٠,٠٠٠) قرش إجمالي مبلغ المصروفات على المدارس العمومية من الإنشاء والتعمير حسب ميزانية لواء القدس لعام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م.

الى جانب ذلك وجدت مجموعة من المكتبات العامة والخاصة الاسلامية وغير الاسلامية، كمكتبات جوامع القدس، وكنائسها، وعلى رأسها مكتبة المسجد الأقصى والمكتبة الخالدية ومكتبة كنيسة القيامة[٢]. وقد أشارت سالنامة المعارف العمومية الى وجود مكتبات في القدس لسنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م على النحو الآتي[٣]:

---

(١) العريض، المؤسسات العثمانية...، ص١٥.

(٢) العريض، المؤسسات العثمانية..، ص٢٦.

(٣) س.ن.م.ع ١٣١٨هـ/١٨٩٩م، ص ص ١٤٨٤-١٤٨٥.

لواء	قضاء	اسم المكتبة	محلها	بانيها	عدد الكتب	تاريخ تأسيسها
قدس شريف	قدس	مكتبة أبو لبوت	الجامع الكبير	محمد باشا أبو لبوت	٢٦٣	١٢٢٧هـ/١٨١٢م
قدس شريف	غزة	مكتبة المفتي	محلة الدرج	المفتي الأسبق محي الدين أفندي	١١٠	غير معلوم

اما في سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م فقد كانت على النحو الآتي(١):

لواء	قضاء	اسم المكتبة	محلها	بانيها	عدد الكتب	تاريخ تأسيسها
قدس شريف	يافا	مكتبة ابو لبوت	الجامع الكبير	محمد باشا ابو لبوت	٢٦٣	١٢٢٧هـ/١٨١٢م
قدس شريف	غزة	مكتبة المفتي	محلة الدرج	مفتي أسبق محي الدين أفندي	١١٠	غير معلوم
قدس الشريف	غزة	المكتبة الخالدية	محلة سلسلة	الحاج راغب خالدي أفندي	١٣١٨(٢)	-

(١) س.ن.م.ع ١٣١٨هـ/١٩٠٠م، ص ص ١٦٦٢-١٦٦٣.

(٢) ربما يكون هذا الرقم للسنة التي تم تأسيس فيها المطبعة (١٣١٨هـ/١٩٠٠م) وليس لعدد الكتب لأن الرقم كبير جداً في تلك الفترة، فضلاً عن وجود وثيقة هي عبارة عن وقفية أوقفها الحاج راغب الخالدي مؤسس المكتبة الخالدية –في مبنى تربة بركة خان القديمة- سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م ووضع فيها عدداً كبيراً من الكتب، انظر: العسلي، وثائق مقدسية، مج٢، ص١٦٦ ملحق رقم (١٥).

٤. دار المعلمين

قامت الدولة العثمانية بتأسيس العديد من المدارس في أرجاء البلاد خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر إلا أنها واجهت صعوبات جمة في مقدمتها قلة عدد المعلمين ذوي الثقافة الجيدة المتطورة التي تستطيع مواكبة عملية التغيير في مجال التعليم، فعملت على فتح مؤسسات تعليمية تقوم باعداد المعلمين ولهذا افتتحت مدرسة إعداد المعلمين في استانبول عام ١٨٥٠م[١].

وكانت هناك شروط يتم بموجبها قبول الطالب في هذه المؤسسات منها أن يكون الطالب حاصلاً على شهادة التعليم الرشدي أو المدارس الدينية وأن لايقل عمره عن ٢٠ سنة وأن يتقن اللغة التركية قراءة وكتابة. وكانت مدة الدراسة في هذه المدارس ثلاث سنوات زيدت على ٤ سنوات ويدرس الطالب فيها أصول التدريس، واللغة التركية، والرياضيات، والعلوم الطبيعية، والتاريخ[٢].

ولم تكن دار المعلمين في بداية إقامتها تختلف كثيراً عن المدارس الدينية وكان تعليم اللغة العربية يشكل الأساس فيها غير أن مناهجها لم تكن كافية لإعداد معلمين أكفاء[٣].

وكانت وزارة المعارف قد قررت إصلاح هذه المؤسسات فحولت قسم الصبيان الى ابتدائي كما فتحت قسمي الرشدي والعالي لإعداد معلمين للمدارس الرشدية والإعدادية[٤]. ولم تتطرق سالنامات المعارف العمومية الى وجود دار المعلمين في القدس ولكن وجدت ضمن القسم الثالث الخاص بالمعارف في ميزانية سنجق القدس وكان قد خصص لها مبلغ (١٠٩,٧٠٠) قرش[٥].

٥. مجلس المعارف

في آب ١٨٤٦م أصدر الباب العالي قانوناً لإصلاح النظام التعليمي في الدولة العثمانية بموجبه تولت الحكومة العثمانية الإشراف على التعليم بدلاً من علماء الدين وذلك عن طريق مجلس دائم للمعارف يرأسه وزير الخارجية. ويرأس ادارة المعارف في مدير معارف[٦]. ويعاونه مساعدان أحدهما مسلم والآخر غير مسلم، مع أربعة محققين وعشرة أعضاء ينتمون الى ديانات مختلفة، وكاتب، وأمين صندوق، ومحاسب، ويتم انتخاب رئيس المجلس، والمعاون، والمحقق، والمفتشين على أن يكون أعضاء المجلس جميعاً من التبعية العثمانية[٧].

---

(١) علاوي، الادارة العثمانية...، ص١٣٣.

(٢) س.ن.م.ع.، ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ص٤٠٠.

(٣) حنان عيسى الجبوري، مشكلات إدارة المدارس الثانوية في العراق، (بغداد، ١٩٧٠)، ص٨٣.

(٤) علاوي، الإدارة العثمانية...، ص١٣٩.

(٥) العارف: المفصل...، ص٣٣٤.

(٦) عوض، الإدارة العثمانية...، ص٩٣.

(٧) الدستور، ج٢، مادة (١٤٣)، ص١٧٧

أمـا واجبـات المجلـس فهـي تنفيـذ الأوامـر التـي تـرد مـن نظـارة المعـارف وإجـراء التدقيق في مسائل تطبيقها والاشراف على سـير التدريسـات وإنشـاء المـدارس الجديـدة وتنظيم ميزانية المعارف والوقوف على صحة المعلومات الخاصة بالتعليم لاسيما تلك التي تتعلق بتعيين المعلمين ومنح الشهادات[١].

أما الصرف على المعارف فيكون من واردات الأراضـي الأميريـة ومـن الاعانـات السـنوية التـي يعطيها الأهالي والتخصيصات الوقفيـة وتقـدم الإعانـات الـى صـندوق إدارة المعارف بواسـطة الـدوائر البلديـة[٢]. وكان يتم دفع رواتب المدرسين والمعلمين من شعبة البنك الزراعي الذي كان يدفع ضريبة العشر لـوزارة المعـارف فضـلاً عـن ضرائب المسـقفات والعائدة لوزارة المعارف[٣].

أما رواتب مفتشي المعارف فقد بلغت عام ١٣١٨هـ/١٩١٠م حوال (١٨,٠٠٠) قرش[٤]. وكان مجلس المعارف فـي عـام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م فـي القدس يتكون من[٥]:

(١) س.ن.م.ع ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ص ص١٤١-١٤٢.

(٢) الدستور، ج٢، مادة (١٩٢) و (١٩٣)، ص ص١٨٥-١٨٦.

(٣) العريض، المؤسسات العثمانية...، ص١٩.

(٤) العارف، المفصل...، ص٣٣٤.

(٥) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص١٣٤.

اسماعيل حقي بك الحسيني	المدير
علي البديري	المحاسب
محمد عبد الوهاب	رئيس المكتبة
حسن طوقان	مساعد رئيس المكتبة
حسام الدين الحسيني	مساعد رئيس المكتبة
شوكت الخالدي	موظف المتحف

أما في سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م فتكون من[1]:

الاسم	الوظيفة
اسماعيل حقي بك	مدير المعارف وموظف التفتيش
بدري زادة على أفندي	موظف حسابات المعارف
محمد عبد الوهاب أفندي	رئيس كتاب المعارف
طوقان زادة حسن أفندي	معاون رئيس كتاب المعارف
حسيني زادة حسام الدين أفندي	معاون رئيس كتاب المعارف
مصطفى آغا زادة عاطف افندي	امين صندوق المعارف

أما مجلس المعارف في عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م فتكون من[2]:

الاسم	الوظيفة
اسماعيل حقي بك	مدير المعارف وموظف التفتيش
منحلدر	مأمور المحاسبة
وهبي أفندي	كاتب الأوقاف المنحلة
موسى أفندي	مأمور الحسابات وكاتب المعارف
حسن أفندي	كاتب إعانة القرى

(١) س.ن.م.ع ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ص١٤٧٠.

(٢) س.ن.م.ع ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠، ص١٦٤٧.

الاسم	الوظيفة
حسام الدين أفندي	كاتب إعانة القرى
عاطف أفندي	كاتب أمين الصندوق
أحمد أفندي	رئيس لجنة معارف يافا
عبداه أفندي	أمين الصندوق وكاتب معارف يافا
أحمد أفندي	رئيس معارف غزة
حافظ أفندي	كاتب معارف غزة وأمين الصندوق
عبد الرحمن أفندي	رئيس لجنة معارف الخليل
حقي أفندي	كاتب معارف الخليل وأمين الصندوق
محمد سليم أفندي	رئيس شعبة الرملة
عبد الفتاح أفندي	كاتب معارف رملة وأمين صندوق

جاء في سالنامه وزارة المعارف العمومية العثمانية لعام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م حول التعليم في متصرفية القدس وقصبتها في بيت المقدس ما يأتي:

تتألف إدارة معارف لواء القدس من أربعة عشر موظفاً، على رأسهم المدير موظف التفتيش اسماعيل حقي بك الحسيني، بينهم محاسب ورئيس للمكتبة موسى المهتدي وغيرهم[١].

وفي عام ١٣٢١هـ/١٩٠٣م كان مدير المعارف اسماعيل حقي بك، والمحاسب علي البديري ورئيس المكتبة موسى المهتدي وموظف المتحف الفخري شوكت الخالدي، ورئيس لجنة معارف يافا الشيخ ابراهيم الدجاني أبو رباح وكاتبها وأمين صندوقها ابراهيم أبو الهدى وكاتب وأمين صندوق لجنة معارف الخليل هو موسى الحموري[٢].

---

(١) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص ص١٣٤-١٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ص١٣٥-١٣٦.

ومن الذين شغلوا منصب مدير المعارف[1]:

عارف حكمت بك	١٣١١هـ/١٨٩٣م
اسماعيل حقي بك	١٣٢٣هـ/١٩٠٥م
عبد الكريم أفندي	١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م
رفعت أفندي	١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ولغاية ١٣٢٨هـ/١٩١٠

(١) س.ن.م.ع ١٣١١هـ/١٨٩٣، ص٦٢٦؛ س.ن.م.ع ١٣٢٣هـ/١٩٠٥، ص٩٠٤؛ س.ن.م.ع ١٣٢٥هـ /١٩٠٧م، ص٩٦٤؛ س.ن.م.ع ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، ص٨٨٤.

المبحث الثالث: المدارس الغير مسلمة والأجنبية في القدس في العصر العثماني

١. مدارس الطوائف غير المسلمة

منشأ هذه المدارس السياسة العثمانية التي عدت كل طائفة من الطوائف الدينية والمذهبية من غير المسلمين (ملة) قائمة بدأتها فمنحتها امتيازات خاصة وكثيرة، من بينها تأسيس مدارسها الخاصة بها وكذلك اداراتها، من دون تدخل الدولة وكان لكل مدرسة مناهجها الخاصة حتى لغة التعليم التي تستخدمها[١]. وأساس هذه المدارس ديني وسرعان ماتحولت الى مدارس حديثة تختلف مناهجها عن مناهج المدارس الحكومية وتلقى الدعم من أبناء الطوائف أو القناصل الأجانب[٢].

وكان مرسوم ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م قد نص على قيام كل طائفة بفتح مدارس أهلية إلا أن طرائق التدريس واختبار المعلمين تكون تحت ملاحظة مجلس المعارف المختلط[٣].

فقامت الطوائف النصرانية في القدس بانشاء مدارسها الخاصة بها، وابتدأت بالتعليم الديني وانتقلت الى تعليم مختلف العلوم الاخرى كالقراءة والكتابة والحساب والجغرافية والتاريخ..الخ. وتمتع اليهود أيضاً بالقوانين والأنظمة العثمانية في تنظيم امور طائفتهم وممارسة نشاطهم الديني والتعليمي والاجتماعي. وعلى الرغم من أن هذه المدارس أنشئت من قبل الطوائف غير المسلمة في المدينة الا أن ظهورها جاء نتيجة للأنشطة التي قامت بها الارساليات التنصيرية لتحقيق أهدافها المختلفة وقد ازداد دور تلك الأنشطة مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي إذ تم تأسيس العديد من المدارس الحديثة التي تفوق في عددها وطلبتها المدارس الاخرى[٤].

ومن مدارس النصارى الابتدائية في القدس، مدارس الارثوذكس، والكاثوليك، واللاتين، والبروتستانت، والأرمن، بالاضافة الى مدارس اليهود الابتدائية[٥].

٢. المدارس الأجنبية

وهي التي تؤسس وتدار وتستمد ماليتها من الأجانب أفراداً أو حكومات أو مؤسسات[٦]. فمنذ القرن التاسع عشر أُنشئت في متصرفية القدس مدارس تنصيرية وجهت التعليم توجيهاً حديثاً ساعد على بث الشعور القومي فضلاً عن أن هذا التدخل الأجنبي كان حافزاً للمدارس الدينية القديمة للأخذ بطرق الاصلاح كما أنه كان حافزاً للأهالي على انشاء بعض المدارس على

---

(١) المجذوب، المصدر السابق، ص٣١.

(٢) عوض، الادارة العثمانية...، ص٢٦٥.

(٣) علاوي، الادارة...، ص١٤٤.

(٤) صقيلي، المصدر السابق...، ص ص٣١٠-٣١١.

(٥) لمزيد من التفاصيل حول هذه المدارس واسمائها وأماكن تواجدها والجهات التي افتتحتها ينظر: س.ن.م.ع ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م، ص ص١٤٥٠-١٤٥٣؛ س.ن.م.ع ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، ص ص١٤٧٠-١٤٧٣؛ س.ن.م.ع ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، ص ص١٤٧٢-١٤٧٩؛ س.ن.م.ع ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ص ص١٦٥٠-١٦٥٦.

(٦) علاوي، الادارة العثمانية...، ص١٤٧.

النسق الحديث(١). وقد اتخذت الارساليات التنصيرية هذه المدارس بوصفها وسيلة من وسائل التنصير الديني(٢). وكانت الدولة العثمانية قد فسمت المجال للإرساليات التنصيرية المختلفة لانشاء مدارس لها في ولايات الدولة المختلفة ومنها متصرفية القدس(٣).

كان قانون ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م قد ساعد على قيام المنصرين بتوسيع مدارسهم ووضع مناهجهم الموافقة لهم لدرجة منعت الدولة دخول الطلاب المسلمين اليها لتعارضها مع مبادئ الاسلام(٤). وكان القانون قد منع تأسيس المدارس الأجنبية الا بعد موافقة السلطات العثمانية(٥).

وكانت المدارس الأجنبية تتمتع بحرية في التعليم لم تتمتع بها المدارس الوطنية وكان لذلك خطر كبير على عقول الناشئة، اذ أخذ المعلمون الأجانب يسعون جهد امكانهم الى استمالة تلاميذهم الى بلادهم(٦).

وتنبهت الدولة العثمانية لخطر هذه المدارس واسلوبها التنصيري، ولكنها لم تستطع أن تقف في وجه المنصرين علناً، بل لجأت الى إقامة العراقيل أمامهم، وفرضت عليهم رقابة شديدة في جميع ولاياتها(٧). كما أشرفت الدولة على هذه المدارس من خلال تصديق مناهجهم في مديريات المعارف إلا أن هذه الإرساليات قاومت هذا الاشراف بواسطة نفوذ حكوماتها(٨). ولقد كان النصارى العرب أول المستفيدين من التعليم الحديث في مدارس التنصيريين التي أنشأتها روسيا القيصرية.

ولقد جاء انتشار المدارس الروسية وازدياد الاقبال عليها نتيجة حرص النظام التعليمي الروسي على احترام العادات والأعراف المحلية فضلاً عن مستواه العالي بهيكلية متكاملة ومتماسكة اساسها المدارس الابتدائية وقمتها المعاهد العالية.

وفي عام ١٣٠٤ هـ/١٨٨٦م اقيم دار للمعلمات في بيت جالا لاعداد الفتيات العربيات لتحمل المسؤولية التعليمية في المدارس الأرثوذكسية كما شيد معهد المعلمين في الناصرة عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م وبجانب المدارس الروسية اقيم العديد من المدارس الكاثوليكية في شتى أنحاء فلسطين. لكن التفوق الحقيقي لهذه المدارس برز في متصرفية القدس حيث ادارت

(١) بيهم، الحلقة المفقودة...، ص٢٢٣.

(٢) صقيلي، المصدر السابق، ص٣١٠؛ فروخ وخالدي، المصدر السابق،ص ص٧٦-٨٩.

(٣) حسين وسعداوي، الكنائس العربية، ص١١.

(٤) اشترطت الدولة العثمانية اثناء منحها تراخيص فتح المدارس من هذا النوع أن لايقبل فيها الطلاب المسلمون، ينظر: الكنائس العربية...، ص١١.

(٥) نوري السامرائي، محاولات تغلغل الرأسمال الأمريكي في الامبراطورية العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٣٠، السنة الثانية عشرة، ١٩٨٦، ص٦٩.

(٦) ربما يعود سبب ذلك للحماية التي تتمتع بها هذه المدارس من قبل الهيئات القنصلية والمؤسسات الأجنبية.

(٧) عوض، الادارة العثمانية في سوريا، ص ص٢٦٥-٢٦٦.

(8)Shaw, OP. Cit, P.250.

الرهبانيات ابتداء بـ (الفرنسيسكان) وانتهاء بـ (أخوات القديس يوسف) نظاماً شاملاً من المدارس الابتدائية والثانوية انتشرت في كل من يافا وغزة والخليل[١].

وقد اتبع التوزيع الجغرافي للمدارس البروتستانتية نمطاً مشاركاً باقي المؤسسات التعليمية الأجنبية اذ انتشرت المدارس الابتدائية في المدينة الصغيرة والقرى الفلسطينية بينما ترسخت المدارس الثانوية في المدن الكبرى لاسيما القدس ويافا وقامت على تعليم منهجي متنوع وجاد[٢].

ومن بين العديد من المدارس التي أنشأها المنصرون البروتستانيون اللمان في فلسطين كانت المدرستان اللتان نالتا أرفع درجات التقدير هما (المقيم السوري) وهي المعروفة على نحو أفضل باسم مدرسة الأب (شنللر) وهي من المدارس الابتدائية، عدد طلابها الذكور (١٣٤) والاناث (٧) وتاريخ افتتاحها كان في ١٢٧٨هـ/١٨٦١م[٣]. قدمت مدرسة الأب (شنللر) لتلامذتها تدريباً عملياً شاملاً في شتى أنواع الحرف اليدوية مثل صنع القوالب والخياطة والنجارة، كما أنشئ معهد (تليثاكومي) وكلاهما اقيما في مدينة القدس، وكان المعهد رائداً في النشاط التربوي. فعندما كان تعليم الاناث في فلسطين لايزال في حالة من الاهمال الملحوظ، كرس المنصرون اللمان أنفسهم لتربية الفتيات الصغار من الملل والطوائف الدينية كافة اذ قامت على إدخال تربية الاناث في مجتمع محافظ يعارض التغيير المفاجئ وجعلت هذه التربية ضرورية ومرغوبة[٤].

أما مدارس الارساليات الأمريكية في القدس فقد زادت بشكل ملحوظ عشية العام ١٩١٤، فأخذت المعاهد الأمريكية تحدو حدوها في فترة مبكرة ترجع الى العام ١٨٨٤م عندما جرى افتتاح مدرسة (الأصدقاء) للبنات في رام الله لكي تتبعها بعد فترة مدرسة (الأصدقاء) للبنين. أما (جمعية الكنيسة التبشيرية) فقد مارست النشاط التربوي على أكبر قدر من الطاقة والنشاط وسيطرت بالفعل على عدد كبير من المدارس حيث كانت مابين ١٨٨٦-١٨٨٧ مسؤولة عن ادارة ٤٥ مدرسة في مدينة القدس وضواحيها وانتسب الى هذه المدارس (١٠٥٠) صبياً وحوالي (٧٥٠) فتاة[٥].

---

(١) صقيلي، المصدر السابق، ص ص٣١٠-٣١١.

(٢) المصدر نفسه، ص٣١٢.

(٣) س.ن.م.ع، ١٣١٨هـ/١٩٠٠م، ص١٦٦٠.

(٤) صقيلي، المصدر السابق، ص٣١٢.

(٥) لمزيد من المعلومات حول هذه المدارس والجهات التي افتتحتها واعداد الطلاب فيها ينظر: س.ن.م.ع ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م، ص٣-١٤٥٣-١٤٥٦؛ س.ن. م.ع ١٣١٦هـ/١٨٩٨م،ص ص١٤٧٣-١٤٧٦؛ س.ن.م.ع ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، ص ص١٤٧٣-١٤٧٥؛ س.ن.م.ع ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ص ص١٦٥٦-١٦٦٣.

ويمكن تقسيم المدارس الأجنبية في القدس حسب السنوات الى ما يأتي[1]:

الجماعات او الدولة	١٩٠١	١٩٠٣
المانيا	ثلاث ابتدائيات	اربع ابتدائيات
الانكليز	ابتدائية واحدة	ست ابتدائيات
الموسوية او اليهودية	تسع عشرة ابتدائية	
	رشدية واحدة	
	اعدادية واحدة	
بروتستانت	ثلاث عشرة ابتدائية	اثنتان وعشرون ابتدائية واعدادية واحدة
روس	ابتدائية واحدة	

(1)Kodamam, op, cit.,p68.

وتفيدنا الوثائق أن أثر المدارس الأجنبية[1] في ميدان التعليم يتلخص في النقاط الآتية:

1. كان مظهرها الخارجي يدل على القوة والتطور والفاعلية.
2. كانت تحصل على الدعم والمساعدات من كل مكان.
3. كانت لها أرضية قوية مادية ومعنوية تنطلق منها في نشاطاتها.
4. كانت مثالاً للتنظيم والادارة والانتماء للهدف الذي تعمل من أجله.
5. عرّفت بالنظام الغربي في التعليم.
6. لعبت دوراً كبيراً في الحياة العلمية والثقافية للدول العثمانية، لاسيما بعد التنظيمات.

ولكن من جانب آخر لعبت هذه المدارس دوراً سياسياً كبيراً ضد الدولة العثمانية، فمنذ أن نشأت وجدت الوسط الملائم لنشر الأفكار التي تخدم مصالح دولها في المنطقة ولم تفوت فرصة داخل المدرسة أو خارجها إلا استفادت منه. كما لعبت دوراً في الحياة الاقتصادية وخلقت مشاكل أساسية في السياسة والتعليم والاقتصاد، فهي أول من اجرى الأبحاث على طبيعة نظام الأراضي في الدولة العثمانية وجدواها الاقتصادية ولعبت دوراً في انهيارها[2].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن المدارس الأجنبية في الامبراطورية العثمانية ينظر:

II KNUR Polat Haydartoglu, Osmanli Importoriugn’da Yabanci Okullar Kultur Bakanligi, Ankara 1990.

(٢) العريض، المؤسسات العثمانية... ص١٩.

الخاتمة

من خلال دراستنا لموضوع البحث «**التعليم في القدس في العصر العثمانى ١٨٤١- ١٨٧٦**» يمكننا أن نحدد النتائج في النقاط التالية :

- كان للسلطان عبد الحميد الثانى دور كبير في تطوير التعليم في القدس وعمل على إبتكار سياسات إصلاحية تعليمياً منها جعل التعليم الإبتدائى إجبارياً وزاد نفقات الدولة على التعليم وأفتتحت في عهدة عدد كبير من المدارس في القدس.
- يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني مؤسسا للتعليم الابتدائي والمتوسط على الطراز الغربي وانشأ المدارس الاعدادية والثانوية في الولايات كافة ومنها القدس وافتتح المدارس الابتدائية في جميع القرى وجعل تعليم اللغة الأجنبية إلزامياً في المرحلة الاعدادية وأنشأ دوراً للمعلمين في عدد من الولايات ومنها.
- تلقى أهالى القدس تعليمهم في المدارس الأهلية ثم في المدارس الحكومية، واقتصر التعليم في المدارس الأهلية على معرفة القراءة والكتابة والحساب وعين الأثرياء معلماً خاصاً لأبنائهم تحت اشرافهم ولكل مرحلة بنسبة تقدمهم في التحصيل الدراسي.
- تأسست في العهد الدستوري بعض المدارس الأهلية في القدس ولكنها كانت ضعيفة الموارد المالية مثل المدرسة الدستورية ومدرسة روضة المعارف واشتمل التعليم في المدارس الحكومية على مبادئ اللغات التركية، والفرنسية، والفارسية، والعربية، وعلوم الحساب، والهندسة، والجغرافية، وكان ينفق على هذه المدارس من الخزينة المحلية.
- كانت المدارس الغير مسلمة والمذهبية على أساس ديني في بداياتها وسرعان ماتحولت الى مدارس حديثة تختلف مناهجها عن مناهج المدارس الحكومية وتلقى الدعم من أبناء الطوائف أو القناصل الأجانب.
- كان للدولة العثمانية دور كبير في تطوير التعليم في القدس من خلال إستحداث مجموعة من القوانين والقرارات الإدارية التى أسست لنظام تعليمى قوى ساهم في تطوير الحركة التعليمية وبناء أجيال ساهمت في النهضة المعرفية بين أبناء القدس.

الملاحق

١- المدارس الابتدائية في القدس لعام ١٣١٧هـ-١٨٩٩م[١]

اللواء	المدينة	اسم المدرسة	محلها	مدرسها	عدد طلبتها	باني المدرسة
القدس الشريف	القدس	المسجد الأقصى	داخل الحرم الشريف	على زاده الشيخ عبد الرزاق افندي	١١٠	غير معلوم
القدس الشريف	القدس	المسجد الأقصى	داخل الحرم الشريف	امام زادة الشيخ يوسف أفندي	١١٠	غير معلوم
القدس الشريف	القدس	المسجد الأقصى	داخل الحرم الشريف	ابو السعود الشيخ يوسف افندي	١١٠	غير معلوم
القدس الشريف	القدس	المسجد الأقصى	داخل الحرم الشريف	ابو السعود الشيخ طهر افندي	١١٠	غير معلوم
القدس الشريف	القدس	المسجد الأقصى	داخل الحرم الشريف	عوري زادة شيخ علي افندي	١١٠	غير معلوم
القدس الشريف	القدس	المسجد الأقصى	داخل الحرم الشريف	جماعي زادة شيخ علي أفندي	١١٠	غير معلوم
القدس الشريف	القدس	المسجد الأقصى	داخل الحرم الشريف	بديرى زادة شيخ موسى أفندي	١١٠	غير معلوم
القدس الشريف	القدس	المسجد الأقصى	داخل الحرم الشريف	حسين زادة شيخ كامل افندي	١١٠	غير معلوم
القدس الشريف	يافة	ابو لبوت باشا	الجامع الكبير	مفتي شيخ علي أبو الواهب افندي	٣٠	محمد باشا ابو لبوت

(١) سالنامة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ص ص١٤٧٢-١٤٧٣.

اللواء	المدينة	اسم المدرسة	محلها	مدرسها	عدد طلبتها	باني المدرسة
القدس الشريف	يافة	ابو لبوت باشا	الجامع الكبير	دجاني شيخ ابراهيم افندي	٣٠	محمد باشا ابو لبوت
القدس الشريف	يافة	ابو لبوت باشا	الجامع الكبير	دجاني شيخ سعود أفندي	٣٠	محمد باشا ابو لبوت
القدس الشريف	يافة	ابو لبوت باشا	الجامع الكبير	دجاني شيخ توفيق افندي	٣٠	محمد باشا ابو لبوت
القدس الشريف	يافة	ابو لبوت باشا	الجامع الكبير	رشيد شيخ حسين افندي	٣٠	محمد باشا ابو لبوت
القدس الشريف	يافة	ابو لبوت باشا	الجامع الكبير	امام شيخ حسين افندي	٣٠	محمد باشا ابو لبوت
القدس الشريف	غزة	جامع كبير	محلة درج	شيخ حمودة شيخ سليم شعشاعة افندي	٠	محمد باشا ابو لبوت
القدس الشريف	غزة	جامع كبير	محلة درج	شيخ حسن الشوا افندي	١٦	حضرة عمر (رض)
القدس الشريف	غزة	جامع كبير	محلة درج	شيخ عبده العلمي افندي	٢٠	حضرة السلطان محمود خان

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق الغير منشورة

أ. أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول (نسخة مترجمة ومصورة محفوظة في معهد الدراسات العربية بالقاهرة)

١. ارشيف استانبول، ارادة داخلية ١٥١٢٦، رقم الوثيقة ٣٢ في ٢٢ شعبان ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م.
٢. ارشيف استانبول، رقم الوثيقة ٩٠٦ في ٢٠ جمادي الأول ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م.
٣. ارشيف استانبول، داخلية رقم الوثيقة ٩٠٦ في ٢٠ جمادي الأول ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م.
٤. ارشيف استانبول،، داخلية وثيقة رقم ٧٩٥٢٦ في ٢٣ محرم ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م.
٥. ارشيف رئاسة الوزراء باستانبول، رقم البحث ٣٩٣٧، دفتر مهمة ٣٨، رقم الوثيقة ١٧٥٠٠، تاريخ الوثيّقة ٢٦ ذي القعدة ١٢٩٧هـ.
٦. ارشيف استانبول، ارادة داخلية رقم ٦٤٣٥٧، تاريخ الوثيقة ١٢ ذي القعدة ١٢٩٦هـ/١٨٧٨م.
٧. ارشيف استانبول، ارادة داخلية رقم ٧٩٧٥٠، تاريخ الوثيقة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م.
٨. ارشيف استانبول، مجلس مخصوص، وثيقة رقم ١٧٧ في ٩ رمضان ١٢٧١هـ/١٨٥٤م.
٩. ارشيف استانبول، داخلية، رقم الوثيقة ٩٠٥ في ٢٩ ربيع الآخر ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م.

ثانياً: الوثائق المنشورة

١. الدستور، ترجمة نوفل نعمة الله نوفل، ج١،٢، (بيروت،١٣٠١هـ).

ثالثاً: المطبوعات الرسمية

أ. السالنامات العثمانية

١. سالنامة دولت عليّه عثمانية، ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م.
٢. سالنامة دولت عليّه عثمانية، ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م.
٣. سالنامة دولت عليّه عثمانية، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م.
٤. سالنامة دولت عليّه عثمانية، ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م.
٥. سالنامة دولت عليّه عثمانية، ١٣١١هـ/١٨٩٣م.
٦. سالنامة دولت عليّه عثمانية،١٣٢٣هـ/١٩٠٥م.

ب. سالنامات المعارف العمومية

١. سالنامة نظارت معارف عمومية، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م.
٢. سالنامة نظارت معارف عمومية، ١٣١٦هـ/١٨٩٨م.
٣. سالنامة نظارت معارف عمومية، ١٣١٧هـ/١٨٩٩م.

رابعاً: الكتب التركية

أ. بالحروف العربية

١. اوليا جلبي، محمد ظلي بن درويش، اوليا جلبي سياحتنامه سي، جلد ٢، (استانبول، ١٣١٤هـ).

٢. برنس، أمانوئيل، سياحتنامه أرض فلسطين، تعريب أثر محمد رأفت، (سوريا،١٣٠٥هـ).

٣. بهرام منير، وطن مقدس ياخود ممالك عثمانية جغرافيا سي، (استانبول، ١٣٢٩هـ/١٩١٢م).

٤. بيك، فريدون، منشآت السلاطين، ج١، (استانبول،١٢٧٤هـ/١٨٥٧م).

٥. حامد، محسن، أحمد، مصطفى، توركية تاريخي، جلد ٢، ط٢، (استانبول،١٩٢٦).

٦. حقي، اسماعيل، بسمارت حياة خصوصي وسياسي، برنجي جلد، (د.م،د.ت).

٧. حكمت، محمد، جغرافياي عمراني، ممالك دولت عليه عثمانية، قسم اول وثاني، (درسعادت،١٣١٢هـ).

٨. خوجه، سعدي بن حسن جان سعد الدين، تاج التواريخ، ج٢، (قسطنطينية،١٢٧٩هـ-١٨٦٢م).

٩. رفعت، مولانا زادة، توركية انقلا بيك ايج يوزي، (حلب،١٩٢٩).

١٠. نوري، عثمان، عبد الحميد ثاني ودور سلطنتي حيات خصوصية وسياسية سي، (استانبول،١٣٢٧هـ).

ب. الكتب التركية بالحروف اللاتينية

1. A.Alaaddin, Çetin, Yildiz, Ramazan, sulttan II Abdulha-mid. Devlet ve memleket Gorűşleri, Istanbul, 1976.
2. Abad Mamit, sultan, Siysai Hatıratım Haraket yayınları, Istanbul, 1974.
3. Bayram Kodaman, Abdul Hamid Devri Egitim Sistemi, (Istanbul, 1980)
4. Ekrem, Reşat, Osmanlı muahedeleri ve kapitulasiyonlar, 1300-1920 ve lozan muahedesi, Tũrkiye matbaasi, (Istanbul,1934).
5. Gũzel, Celal Hasan, Kemal Gigek. Salım koca, Tũrkler, 13 cilt, yeni Tũrkiye yayınıarı, (Ankara,1995).
6. Sadiye, Osmanglu, Hayatımın Aktive Tatil, Gũnleri, (Istanbul, 1966).
7. Yahya Harun, Tũrkũm Sanli Tarihi, (Istanbul-2002).
8. Yavuze rcan, Osmanlı imparaturLugunda gagi musurmanlarin Ödedikleri vergile ve bu vergilerin dugurdugu sosyal sonuclar, Belleten dergisi, Cilt: Llv say 1:213, Agustos 1991.
9. Ze’evi, Dror, Kudus 17 Yuzyilda Bir Osmanli sacaeinda Toplum ve Ekonomi (Istanbul,2000)

خامساً: الكتب العربية والمعربة

١. الإمام، رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط ١٢٥٣-١٥١٦، ط١، (تونس،١٩٧٦).

٢. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط٦، ج٦، (بيروت،١٩٩٧).

٣. ابو ذكري، وجيه، القدس عربية عبر القرون، (فلسطين،١٩٦٧).

٤. ابو عرفة، عبد الرحمن،القدس تشكيل جديد للمدينة، (عمان،١٩٨٦).

٥. ابو عليّهن، عزمي عبد محمد، القدس بين الاحتلال والتحرير، (عمان،١٩٩٣).

٦. ابو عمشة، ابراهيم صقر، فاعلية الفلسطينيين وتطورهم، (تونس،١٩٨٤).

٧. ابو غنيمة، زياد، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، ط١، (الأردن،١٩٨٣).

٨. افندي، كاظم بك، تلخيص الحقوق الموضوعة، ترجمة كمال قزح، ط٢، (بيروت، ١٩٠٠).

٩. انطاكي، عبد المسيح، نيل الأماني في الدستور العثماني، (القاهرة،د.ت).

١٠. انطونيوس، جورج، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس، (بيروت، ١٩٦٢).

١١. اوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، ط١، (استانبول، ١٩٨٨).

١٢. اوغلي وآخرون، أكمل الدين احسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، ط١، (استانبول،١٩٩٩).

١٣. ايفانوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤، ترجمة يوسف عطا الله، (بيروت، ١٩٨٨).

١٤. بدران، نبيل ايوب، التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني، ج١، (بيروت، ١٩٧٣).

١٥. البرجس، برجس حمود، فلسطين والقدس في التاريخ، (الكويت،١٩٨٧).

١٦. برو، توفيق علي، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، ١٩٠٨-١٩١٤، (القاهرة، ١٩٦١).

١٧. بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الاسلامية، الأتراك العثمانيون وحضارتهم، تعريب: نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، ط١، (بيروت، ١٩٤٩).

١٨. البستاني، سليمان، عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، ط١، تحقيق خالد زيادة، (بيروت،١٩٧٨).

١٩. بن طولون، شمس الدين محمد بن علي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق، محمد مصطفى، ط١، (القاهرة،١٩٦٢).

٢٠. بني المرجه، موفق، صحوة الرجل المريض او السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة العثمانية، (الكويت،١٩٨٤).

٢١. البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، حققه محمد بهجة البيطار، (دمشق،١٩٦١).

٢٢.توما، أميل، فلسطين في العهد العثماني، (عمان،د.ت).

٢٣. _______ جـذور القضـية الفلسـطينية، (القدس،١٩٧٦).

٢٤.جـب وبـون، هـاملتون، هارولـد، المجتمـع الاسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج١، ٢، (القاهرة،١٩٧١).

٢٥. جبارة، تيسير، دراسات في تاريخ فلسطين الحديث، (القدس،١٩٨٦).

٢٦.الجبرتـي، عبـد الـرحمن، عجائـب الآثار فـي التراجم والأخبار، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وآخرون، (القاهرة،١٩٥٨

٢٧.جريس، سمير، القدس، ط١، (بيروت،١٩٨١).

٢٨.جـريس، صـبري، تـاريخ الصـهيونية (١٨٦٢-١٩٤٨)، ط٢، (بيروت،١٩٨١).

٢٩.جفريز، ج.م.ن، فلسطين، اليكم الحقيقة، ترجمة أحمد خليل الحاج، (مصر،١٩٧١).

٣٠.الجميـل، سـيار كوكـب، العـرب والأتـراك، الانبعـاث والتحـديث مـن العثمنـة الـى العلمنة، ط١، (بيروت،١٩٩٧).

٣١. الجميل، سيار كوكب، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦، ط١، (موصل،١٩٩١).

٣٢.الجميل، سيار كوكب، زعماء وأفندية الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب، البنية التاريخية للعراق الحديث، ط١، (عمان، ١٩٩٩).

٣٣.الجنـدي، أنـور، يقظـة الفكـر العربـي فـي مواجهة الاستعمار، (القاهرة،١٩٧١).

٣٤.الجنـدي، سـامي، عـرب ويهـود، (بيـروت، ١٩٦٨).

٣٥.الجواهري، عماد أحمد، الاوضاع الاقطاعية في فلسطين في العصر الحديث، (بغداد، ١٩٨٣).

٣٦. حجار، جوزيف، اوربا ومصير الشرق العربي، حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة، مراجعة حسن فخر، (بيروت،١٩٧٦).

٣٧.حسن، محمد عبد الرحمن، العرب واليهود فـي الماضـي والحاضـر والمسـتقبل (الاسكندرية، ١٩٦٩).

٣٨.الحصـري، سـاطع، الـبلاد العربيـة والدولـة العثمانية، (القاهرة،١٩٥٧).

٣٩. حلاق، حسان، موقف الدولة العثمانية من الحركـة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩، ط٢، (بيـروت، ١٩٨٠).

٤٠. الحلو، انجليا، عوامل تكوين اسرائيل السياسية والعسكرية والاقتصادية، (بيروت، ١٩٦٧).

٤١. حمـادة، سـعيد، النظـام الاقتصـادي فـي سوريا ولبنان، (بيروت،١٩٣٦).

٤٢.حمـدان، جمـال، سـتراتيجية الاسـتعمار والتحرير، (القاهرة،١٩٦٨).

٤٣.الحمداني، طارق نافع، عروبة القدس في العصـر الحـديث ١٥١٦-١٩١٨، مجلـة صـدى التـاريخ، اتحـاد المـؤرخين العـرب، العـدوة، السنة الثالثة، (بغداد،٢٠٠٠).

٤٤.حمزة وآخرون، الاختلالات البنيوية في الكيان الصهيوني، (بغداد،٢٠٠٠).

٤٥. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ج٢، ج٥، ج٦ (بيروت،١٩٧٥).

٤٦.حنا، عبد الله، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان ١٨٢٠-١٩٢٠، القسم الأول، (بيروت،١٩٧٥).

٤٧.الحنبلي، ابو اليمن عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العليمي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط٢، ج٢، (النجف،١٩٦٨).

٤٨.الحوت، بيان نويهض، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، (بيروت،١٩٨١).

٤٩.حوراني، البرت، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، ط٣، (بيروت،١٩٧٧).

٥٠. الخالدي، محمد روحي، اسباب الانقلاب العثماني وتركية الفتاة، (القاهرة، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م).

٥١. الخالدي، وليد، القدس من العهدة العمرية الى كامب ديفيد الثانية، (بيروت،٢٠٠١).

٥٢. فتال وسكري، هند، رفيق، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، ط١، (طرابلس الشام، ١٩٨٨).

٥٣.خضور، اديب، الصحافة السورية نشأتها-تطورها-واقعها الراهن، (بيروت،١٩٧٣).

٥٤. الخطيب، روحي، تهويد مدينة القدس، (عمان،١٩٧٩).

٥٥.الخطيب، محمد نمر، حقيقة اليهود والمطامع الصهيونية، (بيروت،د.ت).

٥٦. خلة، كامل محمود، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩، (بيروت،١٩٧٤).

٥٧. خوري واسماعيل، اميل، عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩-١٩٥٨، ج١، (بيروت،١٩٥٩).

٥٨. خوري، يوسف.ق، الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦-١٩٤٨، ط١، (بيروت،١٩٧٦).

٥٩. الخولي، حسن صبري، سياسة الاستعمار الصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، ج١، (مصر،١٩٧٣).

٦٠. الداقوقي، ابراهيم، صورة العرب لدى الأتراك، ط١، (بيروت،١٩٩٦).

٦١. __________، فلسطين والصهيونية في وسائل الاعلام التركية، (بغداد،١٩٨٧).

٦٢.الدباغ، مصطفى مراد، الموجز في تاريخ الدولة الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين، ط١، ج٢، (بيروت،١٩٨٢).

٦٣. __________، بلادنا فلسطين، ط١، (بيروت،١٩٧٥).

٦٤.دروزة، محمد عزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، ج١، (بيروت،١٩٥٩).

٦٥. الدسوقي، محمد كمال، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، (القاهرة، ١٩٧٦).

٦٦.___________، السياســــة الدوليــــة وفلسطين، (القاهرة،١٩٧٦).
٦٧.الدمشقي، ميخائيل، حوادث الشام من سنة ١١٩٧هـ-١٢٥٧هـ/١٧٨٢م-١٨٤١م، علق عليه ووضع فهارسه الأب لويس معلوف اليسوعي، ط١، (بيروت،١٩١٢).
٦٨.دومال، لوردا، جاك، ماري، التحدي الصهيوني، أضواء على اسرائيل، ترجمة نزيه الحكيم، ط١، (بيروت،١٩٦٨).
٦٩.الدومينيكي،أ.س مرمرجي، بلدانية فلسطين العربية، (بيروت،١٩٤٨).
٧٠. رأفت، عبد الكريم، العرب والعثمانيين (١٥١٦،١٩١٦)، ط١، (دمشق،١٩٧٤).
٧١. ___________، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانية الى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨، ط٢، (بيروت،١٩٦٨).
٧٢.راشد، سيد فرج، القدس عربية اسلامية، ط١، (الرياض،١٩٨٦).
٧٣. الرافعي، عبد الرحمن، عصر محمد علي، (القاهرة،د.ت).
٧٤.الرامينـي، أكرم، نابلس في القرن ١٩م، (عمان،١٩٧٩).
٧٥. رزق، اسعد، الدين والدولة في اسرائيل، (بيروت،١٩٦٨).
٧٦.رستم، اسد، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، مج١، (بيروت،١٩٣٠).
٧٧.________، المحفوظات الملكية المصرية، مج١، (بيروت،١٩٦٦).
٧٨.________، بشير بن السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، القسم الأول، ط٢، (بيروت،١٩٦٦).
٧٩.الرشيدات، شفيق، فلسطين تاريخاً.. وعبرة.. ومصيراً، (بيروت،١٩٩١).
٨٠. الرفاعي، شمس الدين، دراسات صحفية، (مصر،١٩٦٩).
٨١. رفعت، محمد، التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة، (مصر،١٩٦٤).
٨٢.زايد، عبد الحميد، القدس الخالدة، (القاهرة،١٩٧٤).
٨٣. الزبدة، عبلة المهندي، القدس تاريخ وحضارة (٣٠٠٠ ق.م،١٩١٧)، ط١، (بيروت،٢٠٠٠).
٨٤.ستيورت، دزموند، تاريخ الشرق الأوسط الحديث، ترجمة زهدي جار الله، (بيروت،١٩٧٤).
٨٥. سرهنك، اسماعيل، حقائق الأخبار عن دول البحار، ط١، (بولاق،١٣١٤هـ/١٨٩٦م).
٨٦.سعيد، أمين، الثورة العربية الكبرى، مج٣، (القاهرة،د.ت).
٨٧.سعيد، أمين، الدولة العربية المتحدة، تاريخ الاستعمار الانكليزي في بلاد العرب، مج١، (مصر،د.ت).
٨٨.السفري، عيسى، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، (يافا،١٩٣٧).
٨٩.سلطان، علي، تاريخ الدولة العثمانية، (دمشق،د.ت).

٩٠. سليم، محمد عبد الرؤوف، تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة ١٨٩٧-١٩١٨، القسم الثاني، تصريح بلفور واصداؤه العالمية، (مصر،١٩٧٤).

٩١. ____________ نشاط الوكالة اليهودية لفلسطين، (بيروت،١٩٨٢).

٩٢.السوداني، صادق حسن، النشاط الصهيوني في العراق ١٩١٤-١٩٥٢، (بغداد،١٩٨٠).

٩٣. سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ، ط٢، (بغداد،١٩٧٣).

٩٤.شاكر وآخرون، أمين، تركياوالسياسة العربية من خلفاء آل عثمان الى خلفاء أتاتورك.

٩٥. شاكر، مصطفى، العرب والاسلام وفلسطين عبر التاريخ من بحوث كتاب القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، ج١، (الموصل،١٩٨٣).

٩٦.الشهابي، مصطفى، القومية العربية، (تاريخها وقوامها ومراميها)، ط٢، (مصر، ١٩٦١).

٩٧.الشوابكة، أحمد فهد بركات، حركة الجامعة الاسلامية، (الأردن،١٩٨٤).

٩٨.شوفاني، الياس، الموجز في تاريخ فلسطين، (بيروت،١٩٩٨).

٩٩.شولش، الكساندر، القدس في القرن التاسع عشر ١٨٣١-١٩١٧، ترجمة كامل جميل العسلي، (عمان،١٩٩٢).

١٠٠. الصباغ، ميخائيل نقولا، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، (لبنان،د.ت).

١٠١. صفوة، نجدة فتحي، يهود العالم والصهيونية واسرائيل، (بيروت،١٩٧٤).

١٠٢.صلاح، حنا، فلسطين وتجديد حياتها، (نيويورك،١٩١٩).

١٠٣. الصليبي، كمال سليمان، تاريخ لبنان الحديث، (بيروت،١٩٦٧).

١٠٤.طاهر، سعود، الدولة والمجتمع في المشرق العربي، (بيروت،١٩٩١).

١٠٥. طربين، أحمد، التجزئة العربية كيف تحقق تاريخنا، ط١، (بيروت،١٩٧٨).

١٠٦.طلس، محمد أسعد، تاريخ العرب، ط٢، (بيروت،١٩٧٩)، مج٢،

١٠٧.طلس، محمد أسعد، مصر والشام في الغابر والحاضر، ط١، (القاهرة،١٩٤٥).

١٠٨.الطوباسي، اسماعيل الخطيب، كفاح الشعب الفلسطيني ١٩٠٨-١٩٦٥، (عمان، ١٩٧٩).

١٠٩.طوران، مصطفى، اسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خوجة، ط١، (تونس، ١٩٨٤).

١١٠. طوطح والخوري، خليل، حبيب، جغرافية فلسطين، (القدس،١٩٢٣).

١١١. العابد، ابراهيم، العنف والسلام، دراسة في الاستراتيجية الصهيونية، (بيروت،١٩٦٧).

١١٢.العابد، ابراهيم، الموشاف، القرى التعاونية في اسرائيل، (بيروت،١٩٦٨).

١١٣. العابدي، محمود، قدسنا، (عمان،١٩٧٤).
١١٤. ________، من تاريخنا، (عمان،١٩٧٤).
١١٥. العارف، عارف باشا، تاريخ بئر السبع وقبائلها، (القدس،١٩٣٤).
١١٦. ________، تاريخ غزة، (القدس، ١٩٤٣).
١١٧. ________، تاريخ القدس، (القاهرة، ١٩٥١).
١١٨. ________، المفصل في تاريخ القدس، ط١، (القدس،١٩٦١).
١١٩. عازوري، نجيب، يقظة الأمة العربية، ترجمة وتقديم احمد بوملحم، (بيروت،د.ت).
١٢٠. العامري، محمد أديب، القدس العربية، ط٣، (عمان،١٩٧١).
١٢١. عبد الحميد، محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، (دمشق،١٩٨٩).
١٢٢. عبد الرحمن، اسعد، المنظمة الصهيونية العالمية تنظيمها وأعمالها ١٨٩٧-١٩٤٨، (بيروت،١٩٦٧).
١٢٣. عبد الكريم وآخرون، أحمد عزت، تاريخ العالم العربي في العصر الحديث، ط١، (القاهرة،١٩٥٨).
١٢٤. عبد الكريم، أحمد عزت، تاريخ العالم العربي، (القاهرة،١٩٥٨).
١٢٥. ________، دراسات في تاريخ العرب الحديث، (بيروت،١٩٧٠).
١٢٦. العبيدي، الطائي، فخر الدين، محمد حامد، فلسطين وضعها الجغرافي وتطورها التاريخي، (بغداد،١٩٤٨).
١٢٧. العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية، مج٢، (عمان،١٩٨٢).
١٢٨. ________، من آثارنا في بيت المقدس، (عمان،١٩٨٣).
١٢٩. ________، القدس في التاريخ، ط١، (عمان،١٩٩٢).
١٣٠. العطار، نادر، تاريخ سوريا في العصور الحديثة (١٥١٦-١٩٠٨)، (دمشق،١٩٦٢).
١٣١. عطية، علي امام، الصهيونية العالمية وأرض الميعاد، (القاهرة،١٩٦٣).
١٣٢. العقاد، احمد خليل، تاريخ الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦-١٩٤٨، ج١، (دمشق،١٩٦٦).
١٣٣. علي، اورخان محمد، السلطان عبد الحميد الثاني، حياته، وأحداث عهده، (الأنبار،١٩٨٧).
١٣٤. علي، علي شاكر، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨م-١٧٥٠م، (الموصل، ١٩٨٥).
١٣٥. كرد علي، محمد، خطط الشام، ج٣،٢،١، (دمشق،١٩٢٦).
١٣٦. عماد عبد الغني، السلطة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر، ط١، (بيروت،١٩٩٣).
١٣٧. عمر، عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢، (الاسكندرية،١٩٨٤).

١٣٨. العمري، محمد طاهر، تاريخ مقدرات العراق السياسية، مج١-٢، (بغداد،١٩٢٥).
١٣٩. عودة، عودة بطرس، القضية الفلسطينية في الواقع العربي، (القاهرة،١٩٧٠).
١٤٠. عوض، عبد العزيز، مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث، ١٨٤١-١٩١٤، (عمان،٢٠٠٠).
١٤١. العيدروس، محمد حسن، تاريخ العرب الحديث، (لا.م،٢٠٠٠).
١٤٢. غانم، محمد حافظ، المشكلة الفلسطينية في ضوء أحكام القانون الدولي، (القاهرة،١٩٦٥).
١٤٣. غرايبة، عبد الكريم محمود، سوريا في القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٤٠-١٨٧٦، (القاهرة،١٩٦٢).
١٤٤. غربال، محمد شفيق، عصر محمد علي، (القاهرة،١٩٥٤).
١٤٥. الغزالي، عبد المنعم، اسرائيل قاعدة للاستعمار وليس امة، ط١، (القاهرة،١٩٥٨).
١٤٦. الغنام، سليمان بن محمد، قراءة جديدة سياسة محمد علي باشا التوسعية (١٨١١-١٨٤٠) في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا، (الرياض،١٩٨٠).
١٤٧. غنيمة، يوسف رزق الله، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، (بغداد، ١٩٢٣).
١٤٨. الغوري، اميل، فلسطين عبر ستين عاماً، (بيروت،١٩٧٣).
١٤٩. فاعور، اسماء عبد الهادي، فلسطين والمزاعم اليهودية، (بيروت،١٩٩٠).
١٥٠. _________، عوني عبد الهادي، اوراق خاصة، (بيروت،١٩٧٤).
١٥١. _________، أطلس الصراع العربي الصهيوني حتى بداية ١٩٧٨، (دمشق،د.ت).
١٥٢. _________، الصراع العربي الاسرائيلي في خرائط، (دمشق،١٩٧٩).
١٥٣. القدس أمانة في عنق كل عربي ومسلم، حقائق ومعلومات، يوم القدس، الندوة السابعة، (عمان،١٩٩٦).
١٥٤. القشطان، عبد السلام، التعليم العربي الحكومي ابان العهد التركي والانتداب البريطاني (١٥١٦-١٩٤٨)، (عمان،د.ت).
١٥٥. قلعجي، طاهر أديب، رسالة عشق الى يافا، (عمان،٢٠٠٢).
١٥٦. الكبيسي، محمد عبيد عبد الله، احكام الوقف في الشريعة الاسلامية، (بغداد، ١٩٧٧).
١٥٧. كتافاكو، فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسوريا ١٨٣١-١٨٤١، عربها وعلق عليها الخوري بولس قرألي، (حريصا،١٩٣٧).
١٥٨. كتن، هنري، القدس الشريف، ترجمة نور الدين كتانة، مراجعة هشام العراف، ومحمد محمود العمر، ط١، (عمان،١٩٨٩).

١٥٩. كرشه وأبيض، اندراوس، يورغاكي، الثمار الشهية في جغرافية المملكة العثمانية، (طرابلس، ١٩١٢).

١٦٠. الكساندر شولش، تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦-١٨٨٨، ترجمة كامل العسلي، (عمان،١٩٨٨).

١٦١. كوثراني، وجيه، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠-١٩٢٠، (طرابلس،١٩٧٨).

١٦٢. كورك، نجيب فاضل قيصة، السلطان عبد الحميد خان واليهود، ترجمة يوسف محلي، ط١، (بيروت،١٩٨٤).

١٦٣. متي، فيليب، تاريخ سوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة كمال اليازجي، (بيروت،١٩٥٩)، ج٢.

١٦٤. المجذوب، طلال ماجد، تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠-١٩١٤، (بيروت،١٩٨٣).

١٦٥. المحافظة، علي، العلاقات الألمانية الفلسطينية ١٨٤١-١٩٤٥، ط١، (بيروت،١٩٨١).

١٦٦. المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العليّه العثمانية، تحقيق احسان حقي، ط٧، (بيروت،١٩٩٣).

١٦٧. محمد ورجب، أنيس، حراز، المشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، (القاهرة،١٩٦٧).

١٦٨. محمود، معين أحمد، تاريخ مدينة القدس، (بيروت،١٩٧٩).

١٦٩. المرعشلي وآخرون، أحمد، الموسوعة الفلسطينية، ط١، (دمشق،١٩٨٤).

١٧٠. مروة، أديب، الصحافة العربية، نشأتها وتطورها، (بيروت،١٩٦١).

١٧١. المسعودي، الدولة العثمانية في لبنان وسوريا حكم أربعة قرون ١٥١٧-١٩١٦، (لا.م، ١٩١٦).

١٧٢. مصطفى، وليد، القدس سكان وعمران من ١٨٥٠-١٩٩٦، (عمان،د.ت).

١٧٣. المقدسي، شمس الدين ابو عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، (ليدن،١٩٠٦).

١٧٤. مناع، عادل، اعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني، ١٨٠٠-١٩١٨، (القدس،١٩٨٦).

١٧٥. منتشا شفيلي، أ.البرت، العراق في سنوات الانتداب، ترجمة هاشم صالح التركيتي، (بغداد،١٩٧٨).

١٧٦. موسى، سليمان، الحركة العربية، سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨-١٩٢٤، ط٢، (بيروت،١٩٧٧).

١٧٧. ناصر، أسعد، تاريخ الناصرة من أقدم زمانها الى ايامنا الحاضرة، (القاهرة،١٩٢٤).

١٧٨. النتشة وآخرون، رفيق شاكر، تاريخ مدينة القدس، (عمان،١٩٨٤).

١٧٩. النتشة، رفيق شاكر، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ط١، (عمان، ١٩٨٤).

١٨٠. النجار، جميل موسى، الادارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد الوالي مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني ١٨٦٩-١٩١٧، ط٢، (بغداد،٢٠٠١).

١٨١. النجار، حسين فوزي، السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط، ط١، (القاهرة،١٩٥٣).

١٨٢. نجم، رائف يوسف وآخرون، كنوز القدس، ط١، (عمان،١٩٨٣).

١٨٣. نجم، نوري، فلسطين والصراع العربي الصهيوني، (بغداد،١٩٨٦).

١٨٤. النحال، محمد سلامة، سياسة الانتداب البريطاني حول أراضي فلسطين العربية، ط٢، (بيروت،١٩٨١).

١٨٥. ____________، فلسطين أرض وتاريخ، ط١، (بيروت،١٩٨١).

١٨٦. نديم، شكري محمود، حرب فلسطين ١٩١٤-١٩١٨، (بغداد،١٩٦٤).

١٨٧. النعيمي، أحمد نوري، أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، (بغداد،١٩٨٢).

سادساً: الكتب الانكليزية

1. Bernard, Lewis, The Emergence of modern Turkey London, 1968.
2. Chaim Wiezmann, Trail and Error. London, 1999.
3. Cohen, Lewis, Amnon, Bernard, Population and Revenue in the Towns of palestion in the sixteenth century, princeton university press, princeton, New Jersey, 1978.
4. Davis, Gohn H, The Evasivepeace. London, 1969.
5. Drechsler. Mathieu, Valerie And Martin, Voir "Jerusalem" Pelerins, Conguerants, Voyageurs, (Paris, 1997).
6. Eliatzureik, the palestinans in Israel, Astudy in internal colonia lism, London, 1979.
7. Francis mc Cullagh, The Fall of Abdul Hamid, London 1910.
8. Geoffre, Furlonee, Palestine Is my country, (London, 1967)
9. Geoffrey, Lewis, Turky, London, 1965.
10. Glubb, Jonn Bagot, Brition and the Arabs (London, 1959).
11. Guedalla, Philip, Napolen and palestine, London, 1925.
12. H.Karpat, Kamal, Ottoman pouplaution 1836-1940, Madison, 1985.
13. Isaih, Frieedman, Germany, Turkey and zionism 1897-1918, Oxford at the ciarendonpress, 1977.
14. MERON, BENVENISTY, JERUSAEM the TOREN City (JERUSALEM, 1976).
15. Owen Reger, The Middle East in the world Economey 1800-1919, Newyork, 1981.
16. Peters, F, E, Jerusalem (princeton

University Press, 1985).

17. Reader Buiiard, the Middle East Apolitical and Econmic, (London, 1961).

18. Robinson, Lees, Jerusalem 111 ustrate (London, 1893).

19. Singer , Amy, Palestinian peasants and Ottoman officials Rural Administration Around sixteen Century (Jerusalem), (London, 1994)P. 7

20. Standford Shaw, And Ezel Karul Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey (1808-1970), Vol.2, (cambridage univer, 1977).

21. Tibawi, A.L. The islamic pious foundations in Jerusalem: origins, History and usurpation by Israel, (London:1978).

22. WWW. Hollypal. Com/palestine/ cities/ htm.

23. WWW. Pnic. Gov.ps/aracbic/history/ Palestine. Html-top.

24. Y. Porath, The Emergence of the palestinian Arab National Moverment, 1918-1929, frank cass, London, 1974.

سابعاً: الرسائل والأطاريح الجامعية

أ. رسائل الماجستير

١. الجبوري، أحمد حسين عبد، القدس في العهد العثماني (١٥١٦-١٦٤٠) دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، (الموصل، ٢٠٠٣).

٢. صبري، بهجت حسين، لواء القدس تحت الحكم العثماني ١٨٤٠-١٨٧٣، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، (القاهرة،١٩٧٣).

٣. الربيعي، صادق علي، الاستيطان الصهيوني في فلسطين ابان حكم الدولة العثمانية ١٨٨٢-١٩١٧، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، (بغداد،١٩٧٨).

٤. سلمان، محمد عصفور، العراق في عهد مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٢)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، (جامعة بغداد،١٩٨٩).

٥. العبيدي، محمد عبد الرحمن يونس، السلطان عبد الحميد الثاني والجامعة الاسلامية ١٨٧٦-١٩٠٩، رسالة ماجستير، كلية الآداب، (الموصل،٢٠٠٠).

٦. القيسي، أنيس عبد الخالق محمود، السلطان عبد الحميد والأطماع الصهيونية في فلسطين ١٨٧٦-١٩٠٩، رسالة ماجستير، كلية الآداب، (جامعة بغداد،١٩٩٨).

٧. مراد، خليل علي، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٠٤٨هـ-١١٦٤هـ / ١٦٣٨م-١٧٥٠م، رسالة ماجستير، كلية الآداب، (جامعة بغداد، ١٩٧٥).

ب. أطاريح الدكتوراه

١. ابو بكر، أمين مسعود محمود، ملكية الأراضي في متصرفية القدس ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م -١٣٣٦هـ/١٩١٨م، اطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليّه، (الجامعة الأردنية،١٩٩٦).
٢. عبد القادر، عصمت برهان الدين، العرب والمسألة الدستورية في الدولة العثمانية ١٨٧٦-١٩١٤، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، (الموصل،١٩٩٥).
٣. نديم، شكري محمود، احوال العراق في مرحلة المشروطية الثانية ١٩٠٨-١٩١٤، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، (جامعة بغداد،١٩٨٥).

ثامناً: البحوث والدراسات:

أ. البحوث العربية

١. ابو علية، عبد الفتاح حسن، الاسس الاجتماعية والحضارية للاضافات والترميمات العمرانية والعثمانية في القدس الشريف، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع(٩-١٠)، زغوان، (تونس،١٩٩٤).
٢. ابو غنيمة، زياد، انقلاب الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد مهد الطريق لقيام اسرائيل، مجلة الحياة ع١٠٩٥١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٤ شباط ١٩٩٣.
٣. ادهم، علي، بسمارك رجل الحديد والدم، مجلة العربي، ع١٣٥، (الكويت،١٩٧٠).
٤. التازي، عبد الهادي، أوقاف المغاربة في القدس، دراسة في تاريخ وآثار فلسطين، وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، مج١، (جامعة حلب،١٩٨٤).
٥. ___________، اوقاف المغاربة في القدس، دراسات في تاريخ آثار فلسطين، مركز الآثار الفلسطينية في حلب، مج١، (جامعة حلب،١٩٨٤).
٦. جتين، عثمان، دور الأوقاف العثمانية الخيرية في المجتمع العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان (١٥-١٦) ١٩٩٧.
٧. جحا، شفيق، التنظيمات او حركة الاصلاحات في الامبراطورية العثمانية ١٨٥٦-١٨٧٦، مجلة الأبحاث، السنة الثانية، ج٢، حزيران ١٩٦٥.
٨. صبري، بهجت حسين، المظاهر الاقتصادية في مدينة القدس من خلال الوثائق الشرعية ١٨٧٤-١٨٨٠، مجلة النجاح للأبحاث، مج٢، ع٧، ١٩٩٣.
٩. جري، بهجت حسين، لواء القدس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، مج٣، (عمان،١٩٨٣).
١٠. الجميل، سيار كوكب، تباينات مجتمع مدينة القدس في المركز والمحيط ابان العهد العثماني، ندوة القدس (٥٠٠٠) عام من الحقوق العربية الثالثة، جامعة اليرموك، (اربد،١٩٩٨).
١١. حلة، محمد علي، القدس الشريف حقائق

وآفـاق المسـتقبل، النـدوة الاسـلامية العالمية لشؤون القدس ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

١٢. حمارنة، صالح، الهيكليون الألمان وآثارهم في فلسطين، آثار القدس من أجل جهد موحد لانقاذها، الندوة الرابعة، (عمان،١٩٩٣).

١٣. حمـزة، كـريم محمـد، الأبعـاد الاجتماعيـة لتهويـد مدينـة القـدس، مجلـة دراسـات تاريخية، ع٥، السنة الثانية، (بغداد،٢٠٠٠).

١٤. الحولي، عليّهن عبد الله، تاريخ التعليم في القدس، ندوة يوم القدس الرابعة جامعة النجاح الوطنية، ١٩٩٨.

١٥. دايـة، جـان، عـازوري حـذر فـي بدايـة القرن العشـرين مـن خطـورة الاسـتيطان الصـهيوني، مجلـة العربـي، ع٥٠٤، تشـرين الثاني، (الكويت،٢٠٠٠).

١٦. رجب، معد صابر، محاولات اليهود الاستيطانية في القدس قبل صدور وعد بلفور، مؤتمر القدس السنوي الرابع، (جامعة تكريت،٢٠٠٢).

١٧. الزيات، محمد حسن، المؤامرة على فلسطين، مجلة العربي، ع٢٢، (الكويت،١٩٧٧).

١٨. سـحاب، فيكتـور، بوابـات القـدس، مجلـة الهلال، عدد خاص عن القدس، (مصر،١٩٦٩).

١٩. سراج الدين، أحمد، الحركة التربوية وتطورها في سوريا ولبنان خلال القرن التاسع عشر، مجلة الأبحاث، ج٣، الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٥١.

٢٠. سيرة السلطان عبد الحميد الثاني، مجلة تاريخ العرب والعالم، ع١٢، (بيروت،١٩٨٠).

٢١. شراب، مجاهد علي، كفاح ونضال الشعب العربـي الفلسـطيني منـذ الحـرب العالميـة الأولـى، جريـدة الـوطن الكويتيـة فـي ١٩٧٦/٨/١٠.

٢٢. صايغ، فـايز، فلسطين: وثيقتان بريطانيتان سـريتان، مجلـة حـوار، ع٨، كـانون الثـاني (بيروت،١٩٦٤).

٢٣. عـامر، محمـود، الأوضـاع العامـة للقـدس فـي ظـل الادارة العثمانيـة، مجلـة دراسـات تاريخية، ع(٥٩-٦٠)، (دمشق،١٩٩٧).

٢٤. عبـد الـدائم، عبـد اللـه، موقـف الصـهيونية كفكـر وحركـة، مجلـة شـؤون عربيـة، ع٥٥، (مصر،١٩٨٨).

٢٥. عبـد القـادر، عصـمت برهـان الـدين، اوضـاع ولايـة الموصـل السياسـية والاقتصـادية والاجتماعية والثقافية من خلال سالنامات الموصل العثمانية، مجلة المجمع العلمـي، مج٤٥، ج٢، (بغداد،١٩٩٨).

٢٦. عبـد الكـريم، أحمـد عـزت، التقسـيم الاداري لسـوريا فـي العهـد العثمـاني، الباشـويات العثمانيـة والعصـبيات الاقطاعيـة، مجلـة حوليات كلية الآداب، (القاهرة،١٩٥١).

٢٧. العدول، جاسم محمد حسن العدول، الحرب الروسـية العثمانيـة ١٨٧٧-١٨٧٨ وآثارهـا علـى العراق، مجلة التربية والعلم، ع٨، ١٩٨٩.

٢٨. العـدول، جاسـم محمـد حسـن، المحـاكم والقضـاء، موسـوعة الموصـل الحضـارية، مج٤، (الموصل،١٩٩٢).

٢٩.العريض، وليد، المؤسسات العثمانية في القدس في الوثائق العثمانية، ندوات القدس، ٥٠٠ عام من الحقوق العربية، الندوة الثانية، (المفرق،١٩٩٧).
٣٠.العريض، وليد، تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وآثارها، مجلة دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، ع١، مج٢٤، الجامعة الأردنية، شباط ١٩٩٧.
٣١. __________، مفهوم الظلم عند العثمانيين، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة مؤتة، مج١٣، ع٧، (الأردن،١٩٩٨).
٣٢.العسلي، كامل جميل، القدس تحت حكم العثمانيين، مجلة القدس الشريف، ع٥٦-٥٨، السنة الرابعة، (عمان،١٩٨٩).
٣٣.__________، مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس، من بحوث ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الاسلامي، (بغداد،١٩٨٣).
٣٤. عوض، عبد العزيز، الأطماع الصهيونية في القدس قبل عام ١٩٦٧، من بحوث القدس في الخطاب المعاصر، المؤتمر الأول لكلية الآداب، جامعة الزرقاء الأهلية، (عمان،١٩٩٨).
٣٥.__________، الحركة العربية في متصرفية القدس، مجلة الشرق الأوسط، (القاهرة،١٩٧٦)، ع١.
٣٦. __________، الشخصية الفلسطينية والاستيطان الصهيوني، (١٨٧٠-١٩١٤)، مجلة شؤون فلسطينية، ع٣٦، (بغداد،١٩٧٤).
٣٧. __________، متصرفية القدس في أواخر العهد العثماني، مجلة شؤون فلسطينية، ع٤، ١٩٧١.
٣٨. __________، مجتمع مدينة القدس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ندوات القدس، الندوة الثالثة، جامعة اليرموك، (اربد،١٩٩٧).
٣٩. الفرا، محمد، تهويد فلسطين، المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول، مج٤، (الرياض، ١٩٨٤).
٤٠. فوزي، فاروق عمر، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني، مركز الدراسات الفلسطينية، مج٣، ع٢، (بغداد،١٩٧٤).
٤١. فوزي، فاروق عمر، اضواء على تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، ع٢، نيسان ١٩٧٤.
٤٢.القادري، عبد القادر، السلطان عبد الحميد المفترى عليه، مجلة دعوة الحق، ع٩، السنة الرابعة عشرة، شوال ١٣٩١هـ تشرين الأول ١٩٧١.
٤٣. قاسمية، خيرية، بيت المقدس وأكناف بيت المقدس صراع الهوية والأرض وقائع الندوة العاشرة (عمان،١٩٩٩).

القدس: قراءة في كتابات بريطانية معاصرة
(١٩٢٠-١٩٣٠)

أ. د/جمال محمود حجر

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

والعميد السابق لكلية الآداب جامعة الإسكندرية

ظهرت مسألة[١] القدس إلى الوجود عمليا يوم دخلها الجنرال اللينبي بقواته البريطانية في ٩ ديسمبر ١٩١٧ منهيا أربعة قرون من الحكم العثماني الإسلامي، ومعلنا بداية الحكم العسكري البريطاني، وممهدا لتنفيذ وعد بلفور الصادر يوم ٢ نوفمبر من العام نفسه. هذا رغم أن قضية القدس كانت تطرح نظريا منذ طرحت الفكرة الصهيونية، ومنذ بدأ النقاش حول "وطن لليهود" أو "دولة لليهود" أو "دولة يهودية" للمناقشة في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا عام ١٨٩٧. وفيما بين هذين التاريخين (١٨٩٧ و ١٩١٧) جرت محاولات كثيرة لتحويل الفكر الصهيوني إلى فعل، وبُذلت جهود لحشد الطاقات والإمكانيات وراء كافة المحاولات الساعية لتوطين اليهود المشردين في العالم في الأرض المقدسة. وجرت مناقشات حول ما يعرف اصطلاحا بـ "أرض الميعاد" وما يعرف اصطلاحا بـ "الحقوق التاريخية" لليهود في فلسطين.

وتصادف ذلك مع رغبة الأمم الأوروبية في التخلص من اليهود، وحرص اليهود أنفسهم على أن يكون لهم وطن مستقل

---

(١) يود الباحث أن يشير هنا إلى الفصل بين ثلاث مفردات هي: "المسألة" و "المشكلة" و "القضية"، وجميعها يستخدم بوعي أو بغير وعي عند الإشارة إلى "القضية الفسطينية" بلغة هذه الأيام؛ فالمسألة هي البداية عادة قبل نشوء المشكلة، والمشكلة هي تطور المسألة دون حل مرض لأي من الأطراف المعنية، والقضية هي تطور المشكلة ورفعها إلى مؤسسات دولية للنظر فيها. وفي مرحلة هذه الدراسة كان الأمر لا يزال في مرحلة المشكلة التي يسعى الجميع إلى إيجاد حل لها. ومع ذلك، فقد آثرنا استخدام اللفظ الدارج "القضية" في إشارة إلى أن المشكلة لم تحل وأنها لا تزال تطرح بين الحين والآخر على أوساط التحكيم الدولية.

استقلالا ذاتيا في فلسطين. وفي هذه الظروف تبلورت الأفكار القومية عند العرب ليصبحوا خارج الدائرة العثمانية الطورانية، التي أكدت عليها جماعة تركيا الفتاة منذ عام ١٩٠٨. في هذه الظروف نفسها التي كان الفكر القومي العربي والطوراني يتبلور، كانت القومية اليهودية تنطلق من أوروبا الشرقية آملة أن تكون فلسطين وجهتها، ورغم أن ذلك الطموح لم يتحقق تماما، إلا أن فلسطين أصبحت منذئذ ميدانا للصدام بين العرب أصحاب الأرض على كثرتهم واليهود الوافدين على قلتهم. وحين هيأت بريطانيا الأجواء لتمكين الهجرة اليهودية إلى فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كانت عيون المراقبين ترصد ما يجري على أرض فلسطين، عندئذ أراقت أقلام البريطانيين من صناع القرار، والمشاركين فيه، والمهتمين بالقضية اليهودية من الصهاينة، ومن المهتمين بالشرق الأوسط وبالأرض المقدسة، ومن الباحثين والأكاديميين كثيرا من المداد في صياغة ما يجري حولهم. وقد اخترت نماذج متنوعة من تلك الكتابات التي خطها أصحابها فيما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٣٠ (١).

وهذه الدراسة ليست معنية بمستقبل اليهود إلا بقدر ما يمس العمل من أجل ذلك بالقدس خاصة وبفلسطين عامة، باعتبار أن القدس منذ البداية وحتى اليوم هي جوهر القضية الفلسطينية، ولكن الدراسة معنية في المقام الأول بالنظر في نماذج(٢) من تلك الكتابات وإعادة قراءتها للوقوف على رؤية الآخر تجاه التفكير في مستقبل منطقتنا، في محاولة لفهم الماضي الذي يبدو أننا أهملناه كثيرا ولم نتعلم من أخطائه، فكانت مشكلة القدس واحدة من كبريات المشاكل

---

(١) الكتابات موضوع هذه الدراسة هي:

- Ormsby Gore, "The Organization of British Responsibilities in the Middle East", **Journal of Central Asian Society**, vi (1920)

=

=

- Lieut-General F. H. Tyrrell, "Zionism and Palestine", **Asiatic Review**, vol. 22, (1926).
- Arnold Toynbee, "The Modernization of the Middle East, Address given on 4 June 1929, from the notes of Professor Sir Denison Ross", **Journal of the Royal Institute of International Affairs**, vol. 8, (1929).
- Henry W. Nevinson, "Arabs and Jews in Palestine". **Foreign Affairs**, no. 8 (January 1930)
- Arnold J. Toynbee, "The Present Situation in Palestine", **Journal of the Royal Institute of International Affairs**, (January, 1931).

(٢) - من المستحيل على الباحث الإلمام بكل ما كتب حول القضية الفلسطينية في اللغات المختلفة وإخضاعه للمناقشة، ولكن من الطبيعي اختيار كتابات كنماذج تعبر عن التوجهات العامة للمرحلة التاريخية.

المستعصية على الحل إلى اليوم. ويجري ذلك من خلال منهج يعتمد على نقل هذه الرؤى إلى اللغة العربية كما هي لتعكس صورة العصر، ووضع الشروح والتعليقات المناسبة عليها كلما تطلب الأمر ذلك.

ولكن لماذا البحث في الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٠؟ السبب يعود إلى واقعتين مهمتين تشكلان منعطفين في مستقبل القدس والقضية الفلسطينية. الحدث الأول وقع في إبريل ١٩٢٠، وهو ما يعرف باضطرابات عيد النبي موسى، أو رد الفعل الفلسطيني في القدس والخليل على الهجرة اليهودية إلى فلسطين وعلى الحكم العسكري البريطاني، الذي أنهته بريطانيا وحولته إلى حكم مدني في العام نفسه تحت قيادة السير هربرت صمويل اليهودي الصهيوني، تمهيدا لنظام الانتداب بعد عامين في يوليو ١٩٢٢؛ والحدث الثاني أن عام ١٩٣٠ هو العام الذي أعقب حادث البراق (في أغسطس ١٩٢٩) وشهد نتائجه الدامية في فلسطين ردا على الهجرة اليهودية. في هذا العام الأخير وضع توينبي تصورا لحل المشكلة الفلسطينية، وهو التصور الذي تسعى كل الأطراف إلى تفعيله اليوم، وكأن القضية تجمدت عند ذلك التاريخ، وهو التصور الذي نختم به هذه الدراسة.

البداية، كما هو واضح من عنوان الدراسة، تأتي في أعقاب الحرب العالمية الأولى؛ حين كانت القضية الفلسطينية في مرحلة التكوين في بداية العشرينيات، وفي هذه المرحلة نرى أورمسبي جور[١] يلقي محاضرة يوم ١٨ فبراير ١٩٢٠ في جمعية آسيا الوسطى حول موضوع يمس فيه حاضرنا اليوم، حين يتكلم عن "إعادة ترتيب بريطانيا لمنطقة الشرق الأوسط"[٢]، أو بعبارة أخرى حين رسم صورة "مستقبل الشرق الأوسط". وهنا سأنقل عن جور ما ورد في محاضرته عن القدس وفلسطين، لما في ذلك من علاقة مباشرة بأفكار مهدت الطريق للتطورات التي أدت إلى نشأة إسرائيل في النهاية. وتأتي أهمية ما أورده جور من أنه كان صاحب دور في نشأة القضية الفلسطينية، فهو الذي يقول: "في ربيع سنة ١٩١٨ عُدتُ إلى فلسطين لأشغل

(١) - **من هو أورمسبي جور** Ormsby Gore ؟ يعرف جور نفسه فيقول: "كُنتُ طرفاً في الكثير من القضايا المتصلة بالشرق الأوسط لعدة سنوات مضت؛ فخدمت كضابط سياسي في المكتب العربي بالقاهرة عند بداية الثورة العربية في الحجاز في الفترة من منتصف عام ١٩١٦ إلى منتصف عام ١٩١٧. ثم عدت إلى لندن للعمل بدرجة مساعد وزير بالقسم الشرقي بوزارة الخارجية البريطانية، وكنت معنيا بلجنة الشرق الأوسط، التي كانت إحدى اللجان المنبثقة عن وزارة الخارجية ووزارة الحرب والأدميرالية ووزارة الهند تحت إشراف اللورد كيرزون".

(2) - Ormsby Gore, The Organization of British Responsibilities in the Middle East, **Journal of Central Asian Society**, vi (1920)

وظيفة ضابط سياسي، وعندما وقعت الهدنة (العسكرية لإنهاء الحرب العظمى)، غادرتُ فلسطين إلي باريس لمدة شهرين عضوا في الوفد البريطاني لعقد معاهدة السلام مع تركيا (الدولة العثمانية). كانت رؤيتي وقتئذ تتفق مع رؤية كل من شاركوا في صنع الأحداث في منطقة تمتد عبر فلسطين وسيناء والبحر الأحمر علي وجه الخصوص، كما تتفق مع رؤية الحكومة في لندن"[١].

كانت خبرة الرجل بالمنطقة وبالأعمال المخابراتية والحربية والسياسية كبيرة، وسوف نستقي منها ما يتعلق برؤيته لمستقبل القدس خاصة وفلسطين عامة. يقول جور في شأن الأبعاد الاستراتيجية لفلسطين:

"يوجد بفلسطين سهل ضيق بين مرتفعات يهودا والبحر المتوسط، وإليه يهاجر كثير من الناس، من الشمال ومن الشرق، وعيونهم على وادي النيل العظيم الواقع إلى الغرب، وإنه لمن الضروري أن تُبقي (بريطانيا) علي ذلك الاتصال الطبيعي بين فلسطين ومصر عبر قناة السويس، وأكثر من ذلك فإننا سوف نتحكم في سكة حديد الحجاز، وبالتالي فلن تكون هناك صحوة أخرى للأتراك". ويشير إلى المعضلة التي تواجه بريطانيا في فلسطين والتي تواجه فلسطين ككيان سياسي محتمل، فيقول: "إن المشكلة الاستراتيجية لفلسطين تكمن في حدودها الطبيعية، وفي موقع وادي الأردن، الذي هو ضروري لخلق فلسطين قوية عسكرياً واقتصادياً وسياسياً. أما الصعوبات السياسية التي تواجهها الآن فيجب أن ندرسها قبل أن نقترح التنظيم الإداري لها". وهذا يعني أن صورة فلسطين لم تكن واضحة وضوحا كافيا أمام الدبلوماسيين والعسكريين والمخططين البريطانيين حتى ذلك الوقت.

وفي إشارة واضحة إلى سكان القدس على وجه التحديد، يقدم جور معلومة ذات دلالة فيقول: "في مدينة القدس وحدها يوجد ٣٠ ألف يهودي و ١٥ ألف مسيحي منقسمين إلي ٤٠ مذهباً أو جماعة، ومعظم هؤلاء (اليهود والمسيحيين) من الأوربيين، كذلك يوجد بها ١٥ ألف مسلم. لقد كان عدد

---

(١) - يعطي جور تفاصيل دوره فيقول: "كنا قد شكلنا المكتب العربي في القاهرة سنة ١٩١٦، وكان من بين أهدافنا أن نجمع معلومات من مختلف أنحاء المنطقة العربية؛ كنا نمطاً من مكاتب التجسس السياسي، ولنا فروع في زنزبار والبصرة والمغرب وغيرها، وكانت كل المعلومات التي تُجمع من خلال هذه المكاتب تصب في المركز الرئيسي بالقاهرة. لقد كنا بالطبع نتعامل مع الحجاز ومع عدن. وحينما كانت تتجمع لدينا المعلومات نبعث بها إلي وزارة الخارجية وإلي مديري أجهزة المخابرات الحربية والبحرية في لندن. وبهذه الطريقة توافرت لدينا معلومات شاملة حول اتجاه الأحداث واحتمالات ما بعد الحرب في هذه المنطقة الواسعة التي صرنا الآن مسئولين عنها والتي اسمها العالم العربي".

اليهود في القدس يساوي عدد كل من المسيحيين والمسلمين مجتمعين"[١]. صحيح أن فلسطين كان فيها وقتئذ جماعات من كل نوع ووصف، نظرا لطبيعتها المقدسة عند أهل الديانات السماوية الثلاث، والقدس تستقبل هذه الديانات من كل الأجناس والأعراق كما تستقبل مكة المسلمين من كل الأجناس والأعراق. ويلفت النظر أن يقسم جور فلسطين إلى مناطق نفوذ، فيصف غزة بأنها "مستعمرة مصرية"[٢]، وأما بيت لحم والناصرة فهما "بالكامل للمسيحيين"، بينما طبرية وصفد فهما "في الغالب لليهود". ويصف المسلمين في فلسطين بأنهم "منقسمون على أنفسهم، ولا يوجد بينهم وفاق على الإطلاق."[٣]

---

(١) - لاحظ أنه ضرب مثالا بالقدس وليس بفلسطين التي كان أغلبها من المسلمين.

(٢) - لاحظ الربط بين غزة ومصر منذ ذلك التاريخ إلى اليوم، وتحاول إسرائيل اليوم توكيد ذلك الرابط للخروج من مأزق غزة وتفتيت القضية لفلسطينية.

(٣) - ظلت مسألة النظر إلى فلسطين غير الموحدة سائدة طوال العشرينيات، وتساءل الباحثون في هارفارد وكيمبردج في أواخر العشرينيات عما إذا كان سكان فلسطين أمة واحدة في ظل الانتداب، أم أنها عدة أمم، أم أنها أمة واحدة ومجموعات عقائدية متعددة. هذه الإشارات للفصل ما بين هو محلى أو وطني وما وما هو دولي أو عالمي. وفي نظر هذا التجمع الأكاديمي فإن اليهود وحدهم يُعدون أمة في فلسطين فضلا عن أنهم أصحاب عقيدة واحدة. أما باقي الجماعات في فلسطين =

ثم يشير جور إلى نقطة خطيرة تكشف عن عمق رؤيته حين يؤكد على أن "فلسطين هي البلد الوحيد، استثناء من كل بلاد العالم، الذي إذا ما أعطي استقلالاً ذاتياً سيتحول

= فلا هي أمة ولا اسم لها وإنما تصنف تحت مسمى "باقي سكان فلسطين" التي تحمي حقوقها المدنية والدينية بناء على العرق أو العقيدة. ويجب أن نلفت الانتبا هنا إلى أن القدس كانت في نظر العثمانيين منذ منتصف القرن التاسع عشر منطقة مرتبطة ارتباطا مباشرا بالسلطة المركزية في إستانبول، وأن سنجق القدس كان يعني فلسطين، أي أن الجزء كان يعني الكل، على غير الحال في مصر التي تعني عند أهلها القاهرة، والحال نفسه ينطبق على الشام التي تعني عند أهلها دمشق. وتشير خصوصية العلاقة الدلالية بين القدس وفلسطين وبينهما واستانبول على حرص هذه الأطراف عليها حرصا لافتا للانتباه، بينما نجد أن العالم الغربي كان يفكر في فلسطين كلها باعتبارها أرضا دولية تحتاج إلى دعم اقتصادي وديموجرافي ينهض بها، ومن هنا نبتت فكرة التكامل بين الأرض العربية ورأس المال اليهودى فيما بعد. انظر:

Penny Sinanoglou (Harvard University),"BRITISH PLANS FOR THE PARTITION OF PALESTINE, 1929–1938", **The Historical Journal**, 52, 1 (2009), pp. 131–152;

http://journals.cambridge.org/action/displayFulltext?type=1&fid=4389704&jid=HIS&volumeId=52&issueId=01&aid=4389696;

هنري لورانس، **مسألة فلسطين**، ترجمة بشير السباعي، (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧) مج ٢، الكتاب ٣، ص ١٨

إلي فوضى"[١]، ويبرزذلك بأن "للصهاينة فيه آمال وتطلعات". وفيها "يتبادل اليهود مع غيرهم الشك والريبة". ويشير إلى واحد من أهم عناصر القوة عند اليهود بقوله: "بينما نجد غير اليهود يفتقرون إلي التماسك، نجد اليهود متماسكين ومنظمين للغاية، كما هو حالهم في العالم كله، وجهودهم تنمو بشكل طبيعي، ويتعاون اليهود مع الإنجليز الذين يديرون المنطقة، ولا يحاولون مضايقتهم. ولكن الإدارة البريطانية تحاول أن تمسك بالميزان لتحفظ التوازن بين مصالح الأطراف المختلفة في فلسطين. ولكي ندع فلسطين تشق طريقها واضحاً من أجل تنمية نفسها، فلابد من إحداث تغييرات جذرية بها، وقهر الاتجاه المحافظ بشأنها، ولكن مثل هذه التغييرات المفاجئة ليست محببة لأبناء الشرق".

ويضع جور بلاده في بؤرة صنع القضية الفلسطينية حين ينتهي إلى القول: "يمكن ملء فلسطين بالمهاجرين اليهود، الذين يمكن أن يأتوا من جميع أنحاء العالم، بعقولهم المفكرة ورؤوس أموالهم، فقد جاء الوقت لكي يلعب اليهود دورا في تنمية بلدهم القديم". هكذا كانت بداية القضية، وهكذا كان ترتيب البريطانيين مبكرا لتغليب اليهود في القدس وفي كل فلسطين. لقد كان جور يمهد المسرح السياسي في فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى. عند هذه المرحلة بدا التوافق واضحا بين المصالح البريطانية والمصالح اليهودية، واستطاع حاييم وايزمان[٢] ذو الأصول الروسية وزعيم الاتحاد الصهيوني البريطاني أن يدعم فكرة هذا التوافق قبل أيام من دخول أللينبي القدس، وأن يفوز بالوعد البريطاني لليهود في ٢ نوفمبر ١٩١٧ بتسهيل إقامة وطن قومي لهم في فلسطين[٣]. وإذا كان جور قد فضح الدور البريطاني الذي كان هو نفسه طرفا فيه،[٤] فإن مسؤولا بريطانيا آخر لم يتردد في كشف التلازم القوي بين بريطانيا والصهيونية في منتصف العشرينيات.

---

(١)- لا يزال هذا يجري حتى اليوم، بما يفيد أن رؤية جور كانت عميقة.

(٢)- حاييم وايزمان من مؤسسي نواة الحركة الصهيونية في إنجلترا عام ١٩٠٧، صار في عام ١٩١٨ رئيسا للبعثة الصهيونية إلى فلسطين في أعقاب صدور وعد بلفور، ثم رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٢١، وتوجت جهوده بأن صار أول رئيس لإسرائيل. انظر: عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** (القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٩) ص ٢٥٣ وما بعدها.

(٣)- هنري لورانس، **مسألة فلسطين**، ترجمة بشير السباعي، (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧) مج ٢، الكتاب ٣ ، ص ٢١و٢٢

(٤)- شهدت الفترة الواقعة فيما بين الحربين العالميتين فضح السياسة البريطانية في الشرق الأوسط عن طريق العسكريين والسياسيين والدبلوماسيين البريطانيين أنفسهم، ومن هؤلاء جور وفيلبي وغيرهم كثير.

وفــي منتصــف العشــرينيات يبــرز لنــا بريطاني آخر، هو الجنرال إف إتش تيريل، الذي خـدم فـي الجـيش البريطـاني فـي الشـرق الأوسـط أثناء الحرب العالمية الأولى، والذي ينتمـي إلـى أسـرة بريطانيـة عريقـة، أسـباب اقتراح سلفه جور "ملء فلسطين بالمهاجرين اليهـود" وكأنهـا "أرض بـلا شـعب" كمـا جـرى الترويج لـذلك كـي تُعطـى "لشعب بلا أرض"، معتمدا علـى أسـس أيديولوجيـة مبنيـة علـى فكــرة الصــهيونية والإرث التــاريخي لـــلأرض المقدسـة، فيقـول فـي دراسـته الموسـومة "الصـــهيونية وفلســـطين"[١]: "إن الأمـــة اليهودية لم تعد قانعة بمجرد انتظار العناية الإلهيـة لتحقـق آمالهـا فـى اسـتعادة مُلـك إسرائيل. ففـى الوقـت الـذى كـان الـدين هـو العنصـر المـؤثر فـى السياسـة، كـان اليهـودى قانعـا بإيمانـه التـام بوعـود أنبيائـه القـدامى الذين قالوا باسترداد المسيح لإسرائيل، وكذلك عـن اسـتعادته لـلأرض التـى منحـه "يهـوه"[٢]. ولكـن المفـاهيم السياسـية والقوميـة حلـت محـل تلـك المفـاهيم المتعلقـة بالـدين مـع ظهـور القوميات الحديثة عند منتصف القرن التاسـع عشـر. فالقوميـات nations فـي العـالم الحـديث كانـت تناضـل كـى تصـبح دولاً States، والـدول تُعلــن وتؤكــد باســتمرار أنهــا ذات قوميـات متجانسـة، فـي عـالم تتنـافس فيـه التوجهات السياسية، والأعـراق، واللغات، حتى العقائـد صـارت تتنـافس مـع بعضـها كمعـايير للقومية، وهو ما يتضمن معنى مشترك فى الأذهـان لكـل مـن "الدولـة" State، و"الأمـة" nations.

يقول تيريل: من هذه المفاهيم الجديدة، خرجـت القوميـة اليهوديـة باسـتنتاج مـزدوج؛ "فـاليهود فـى هـذا العـالم لـم يكونـوا فـى أحسـن الأحـوال سـوى مـواطنين مـن الدرجـة الثانيـة، باسـتثناء واحـد هـو إمكانيـة وجـودهم فى دولة خاصة بهم، وإذا كانوا في حقيقة الأمر أمة، فقد كانوا بالفعل دولة فى طور الجنين. وقد نتج عن هذه الأفكار الجديدة تغير فــى مــواقفهم، مــن الصــبر ترقبــاً لحــدوث التوقعـات التـى طالمـا تـاقوا إليهـا بعـودتهم المنتظرة إلى فلسطين، إلى محاولة التعاون لتفعيل الغاية الإلهية"[٣].

ولعــل حركــة مُعــاداة الســامية، التــى اجتاحت فرنسا وألمانيا عـام ١٨٨٠[٤]، والمذابح

(1) - Lieut-General F. H. Tyrrell, "Zionism and Palestine", ***Asiatic Review***, vol. 22, 1926, pp. 37-45.

(٢)- يهوه Jehovah أي الله بالعبرانية.

(٣)- ربما نجد عند هذه المرحلة جذور فكرة الدولة اليهودية التي لا تزال إسرائيل تسعى لتحقيقها اليوم.

(٤)- كانت فرنسا نابليون من أوائل الدول التي تبنت فكرة توطين اليهود في فلسطين في إطار الصراع مع بريطانيا في الشرق، إلا أنها كانت أيضا من بين من عادى السامية كما نـرى، ولـذلك بـرز دور بريطانيا فـي مناصـرة القضـية =

التي جرت ضد اليهود، واضطهادهم في روسيا ورومانيا، ما أدى إلى هجرتهم من أوروبا الشرقية إلى الولايات المتحدة، قدمت حافزا كبيرا للصهيونية. فقد عُقد المؤتمر الصهيوني الأول في "بازل"[1] في أغسطس ١٨٩٧ برئاسة "ثيودور هرتزل"[2]، ومنذئذ أصبح المؤتمر الصهيوني كيانا دائما ترعاه المنظمة الصهيونية. والصهيونية هنا تعني: العمل من أجل العودة إلى جبل صهيون بالقدس، وبناء عليه يعد الصهيوني هو من يعمل من أجل العودة إلى القدس. وهو أمر أحاطه الخيال والبعد عن الواقعية عبرتاريخ الشتات اليهودي.

في هذه الظروف تعددت مفاهيم مصطلح "الصهيوني". فيذهب تيريل إلى أن وصف شخص ما بأنه "صهيوني" كان في البداية يعني "شخصا خياليا، يُعّرض نفسه عمداً للسخرية وسوء الفهم". بينما رأى اليهود المتحررون، الذين رغبوا في مجرد لفت الانتباه قليلاً إليهم، أن "الشخص الصهيوني لا يزيد عن أن يكون طفلا مشاكسا". بينما رأى الإصلاحيون أن الفكر الصهيوني كان تهديدا للقيم الروحية التي يقدرونها جيدا، وأن "الشخص الصهيوني شخص كريه". أما الأرثوذكس المتشددون، فقد اعتبروا "الصهيوني أفضل حالاً بقليل من غير

=

اليهودية. فظهر لورد شافتزبري Shaftesbury الناشط المدافع عن فكرة توطين اليهود في فلسطين، ورئيس صندوق استكشاف فلسطين، والذي قدم مشروع "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، انظر: محمد رشيد عناب، **الاستيطان الصهيوني في القدس، ١٩٦٧- ١٩٧٣.** (القدس، منشورات بيت المقدس، ٢٠٠١) ص ٢٦و٢٧.

(١)- كان من المقرر أن يعقد المؤتمر الصهيوني الأول في ميونخ Munich بألمانيا ولكنه عقد في النهاية في Basel بسويسرا بسبب المعارضة المحلية لعقده في ميونخ. شارك في المؤتمر ٢٠٠مشاركا، وكان من بين أهم نتائجه تأسيس المنظمة الصهيونية Zionist Organization بهدف تأمين وطن قومي لليهود في فلسطين. انظر:

David Mendelsson, From the First Zionist Congress (1897) to the Twelfth (1921), http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/Zionism/firstcong.html

(٢)- تيودور هرتزل Theodor Herzl رئيس المؤتمر الصهيوني الأول ومؤسس الحركة الصهيونية ولد عام ١٨٦٠ في بست Pest وهي القسم الشرقي من بودابست Budapestبالمجر وهو من أصول صربية، انتقل مع أسرته عام ١٨٧٨ إلى فيينا حيث درس القانون، عمل مراسلا لإحدى الصحف الفرنسية *Neue Freie Presse* كما عمل محررا أدبيا بذات الصحيفة، وكتب العديد من الأعمال الدرامية والكوميدية للمسرح في فيينا، وبصفته مراسلا

=

صحفيا لصحيفة فرنسية فقد تابع حركة معاداة السامية التي قامت في فرنسا ورفعت شعر الموت لليهود، خرج بعدها بفكرة ضرورة مغادرة اليهود أوروبا وتأسيس وطن خاص بهم. ألف كتابه المشهور عن دولة اليهود، نقله إلى العربية محمد يوسف عدس تحت عنوان: **الدولة اليهودية** (القاهرة، مركز نصوص، ٢٠٠٦) انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Theodor_Herzl

المــؤمنين"، فهــو شــخص يشــغله ســعيه المتـبجح لـدفع يـد القـدير (اللـه). وأمـا غيـر المكترثين وغير المهتمين، فقد كان "الشـخص الصـهيونى فـي نظرهم مجرد شـخص واهـم يتتبع كـل ما هو واه وخيالي". ويخلص تيريل إلـى أن الصـهاينة دفعـوا ثمـن كـونهم كـانوا متخلفـي عصرهم. هكذا استعرض تيريل تقييم نظـرات التحقيـر إلــى اليهــودي الصــهيوني المتطلع للعودة إلى القدس.

وإذا كانت تلك هـي الانطباعات عـن مـن ينتمـي إلـى فكـرة الصـهيونية، إلا أن حماس الصـهيوني ثيـودور هرتـزل جعلـه يعلـن أن: "الصـهيونية هـى التقـدم، بـل هـي وطـن المســتقبل، بــل هــي المســتقبل القــومي للشــعب اليهــودى، قبــل أن تصــبح كــذلك بالنسـبة لــلأرض اليهوديــة". ويتفــق معــه صهيوني آخر في الهدف وليس في الطريق إليـه، ذلـك هـو أتشـاد حاعـآم[1] ذلـك الأديـب المفكـر الـذي كتـب يقـول: إن "الأمـل فـى مسيرة حياة وطنية لليهود يكمن فى جذور الصهيونية عند بلوغ استقلال فلسطين التام مسـتقبلاً". عندئـذ بـدأ التفكيـر فـي تحويـل أحـلام الصـهيونية وخيـال الصـهاينة إلـى واقـع ملمـوس علـى الأرض، ومـع هـذه الخطـى ظههرت إلى الوجود قضية القدس.

وبهذه الخلفيـة الثقافيـة فـي البحث عـن وطـن حـول جبـل صـهيون، منحـت الحكومـة البريطانيـة المنظمـة الصـهيونية فـي البدايـة (عـام ١٩٠٣) سـتة آلاف ميـل مربـع مـن الأرض فــى شــرق إفريقيــا البريطانيــة بعيــدا عــن فلســطين. عندئـذ أرسـل المـدير التنفيـذى الصهيونى لجنة إلى شرق أفريقيا لاستكشاف المكان، فجاءت بتقرير غير مشجع. ثم خولت مهمـة قبـول المنحـة البريطانيـة إلـى ناشـط صــهيوني هــو إســرائيل زانجويــل[2]، ولكــن

(١)- يعد أتشاد حاعآم ذو الأصول الروسية Achad Ha'am من أبرز مفكري الحركة الصهيونية قبل نشأة إسرائيل، وإذا كان هرتزل مؤسس الصهيونية السياسية فإن أتشاد حاعآم كـان يعمـل بجـد مـن أجـل "دولـة يهوديـة" وليـس "دولـة لليهود"، "a Jewish state and not merely a state of Jews." فـي فلسـطين، وكـان برؤيتـه الدنيويـة يريـد أن يجعـل مـن فلسطين مركـزا روحيا "spiritual center" لليهـود. انسحب مـن الحركـة الصهيونية بسـبب خـلاف حـول برنامج هرتـزل الـذي لم يكن مناسبا من الناحية العملية. انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Ahad_Ha'am

(٢)- إسـرائيل زانجويـل Israel Zangwill كاتــب يهــودي وناشط سياسـي، يعد أنشـط اليهود المتحدثين بالإنجليزية في مطلع القرن العشرين، ولد في لندن سنة ١٨٦٤لأبوين مهاجرين مـن شـرق أوروبـا، وتعلـم فـي مـدارس يهوديـة، وتخـرج فـي جامعـة لنـدن، عمـل بالصـحافة وكتـب فـي الفكاهـة، اهتم بالقضايا اليهوديـة فـي كتاباتـه، مـع نهايـة القرن التاسع عشر عمل بالنقد الاجتماعي فـي الصحافة البريطانية والأمريكية، وفـي مطلع القرن العشرين عاد إلى الكتابة في الدراما الاجتماعية وفـي الترجمـة. وفـي الوقـت نفسـه كـان ناشـطا صـهيونيا، دعـم هرتـزل بعناصـر صهيونية وظل يسانده إلى أن مات في عام ١٩٠٥. هو صاحب فكرة =

الصهاينة الروس، الذين شكلوا الضلع الرئيس فى هذه الحركة، رفضوا بقوة العرض البريطانى، لأن وطن اليهود يجب أن يكون فلسطين حيث جبل صهيون في القدس وليس في أي مكان آخر. ورغم أن المؤتمر الصهيونى سجل فى محضره التقدير للعرض البريطانى، إلا أن المنظمة الصهيونية كانت معنية فقط بالقدس وفلسطين والبلاد المجاورة. عندئذ شرع الصهاينة فى التفاوض مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني(١)

لشراء فلسطين بأسرها. ولكنهم وجدوه مُساوما صعب المراس، إذ لم تعد تركيا الفتاة طيعة، فقد ثبت للصهاينة أن مسألة الحصول على رخصة من الباب العالى بشأن القدس وفلسطين مجرد وهم. عندئذ عمد الصهاينة إلى تغيير مخططاتهم، وبدلاً من محاولة تأسيس "دولة يهودية فى فلسطين"، أقنعوا أنفسهم بفكرة إقامة "وطن لليهود في فلسطين" يعيشون فيه جنباً إلى جنب مع السكان العرب، الذين لم ينظر اليهود إليهم قبل ذلك بعين الاعتبار، ولكنهم وجدوا أنفسهم مضطرين لوضعهم فى الحسبان.

هكذا استقر الفكر الصهيوني في هذه المرحلة على فلسطين وخاصة القدس، فقد تعهد المؤتمر الصهيونى الحادى عشر، الذى

=

Territorialism التي تهدف إلى إيجاد وطن مناسب لليهود، ولهذا الغرض أسس منظمة Jewish Territorial Organization (ITO) بهدف توطين اليهودي أينما وجد، وقد وضعت في الاعتبار مناطق في شمال وغرب أفريقيا وفي أستراليا والمكسيك وكندا وغيرها، ولكن أيا منها لم يتحقق، فشجع الهجرة إلى أمريكا التي استوعبت عشرة آلاف فيما بين عامي ١٩٠٧ و١٩١٤، وبعد تصريح بلفور سعى زانجويل لإقامة وطن قومي يتمتع بحكم ذاتي وليس مجرد مكان لاستيعاب اللاجئين اليهود. وفي عام ١٩٢٣ خطب في جمع كبير منتقدا الزعماء الصهاينة على تقصيرهم ومعلنا موت الصهيونية السياسية. انظر:

Meri-Jane Rochelson, Israel Zangwill (1864 — 1926), http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/biography/zangwill.html

(١)- السلطان عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. وولد في ٢١ سبتمبر ١٨٤٢، وتولى الحكم عام ١٨٧٦. أبعد عن العرش عام ١٩٠٩ م بتهمة الرجعية، وأقام تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته في ١٠ فبراير ١٩١٨. اتصل به هرتزل مرارا ليسمح =

=

لليهود بالانتقال إلى فلسطين، ولكن السلطان كان يرفض، *ثم* فوسط هرتزل أصدقاءه الأجانب الذين كانت لهم صلة بالسلطان أو ببعض أصحاب النفوذ في الدولة، كما وسط بعض الزعماء العثمانيين، فلم يفلح، وأخيرا وفي لقاء مع رئيس الجالية اليهودية في سالونيك، وقدّموا له الإغراءات لكنه رفض بشدة وطردهم من مجلسه وقال: "إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فلن أقبل، إن أرض فلسطين ليست ملكى إنما هي ملك الأمة الاسلامية، و ما حصل عليه المسلمون بدمائهم لا يمكن أن يباع و ربما إذا تفتت إمبراطوريتى يوما ، يمكنكم أن تحصلوا على فلسطين دون مقابل، ثم أصدر أمرًا بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين. أنظر: **ويكابيديا، الموسوعة الحرة**، عبد الحميد الثاني.

عُقد فى فييّنا عام ١٩١٣ بعمل برنامج طموح للاستيطان ودعم فكرة إنشاء الجامعة العبرية في القدس التي تعد مدخلا علميا وثقافيا للمكان، والتي ستفتح أبوابها بعد اثنتي عشرة سنة من هذا التاريخ[١]. وخلال الاثنى عشر شهراً التالية، دخل فلسطين قرابة ستة آلاف مهاجر يهودى إلى فلسطين، وبدأ تدفق المهاجرين، لولا نشوب الحرب العالمية الأولى. ووضعت خطة محددة لإنشاء الجامعة العبرية فى القدس لتكييف الواقع العلمي والثقافي الجديد في المدينة بما يتناسب والهجرة. وسخّرت الوكالة الصهيونية فى يافا جهودها لشراء الأراضى لتأسيس المستوطنات اليهودية الزراعية. ولم تكن هناك مشكلة في نقص الأموال لتنفيذ تلك المستوطنات، نظراً لأن الحركة كانت مُمولة كلياً من البارون إدموند دى روتشايلد[٢] ومن أثرياء اليهود فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. ولكن بسبب اندلاع الحرب العالمية عام ١٩١٤ ودخول الأتراك فى الصراع إلى جانب ألمانيا، توقفت أنشطة اليهود فجأة.

ولكن دخول الجيش البريطانى أرض فلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى بقيادة الجنرال ألليني[٣]، أحيا آمال الصهاينة وجدد

---

(١)- انشغل هذا المؤتمر أساسا بأمرين رئيسين الأول مناقشة النشاط الاستيطاني في فلسطين، والثاني دعم فكرة إنشاء الجامعة العبرية في القدس. انظر:

David Mendelsson, From the First Zionist Congress (1897) to the Twelfth (1921),

http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/Zionism/firstcong.html

(٢)- البارون إدموند دى روتشايلد (1845-1934) Baron Edmond James de Rothschild ثريا فرنسيا لم ينضم إلى إمبراطورية عائلته البنكية، وإنما راح ينفقها في ميادين الفن والثقافة، لكن دوره الذي اشتهر به يتصل بإنجازاته =

= الضخمة في التصدي للتهديدات التي تعرض لها اليهود في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر حين مول بسخاء شراء أراضي لإقامة مستوطنات يهودية في فلسطين، التي كان يعتبرها أرض إسرائيل، والتي زارها عدة مرات ولكن بيته بقي في باريس، وقد أفادت جهوده في دعم اليهود مستقبلهم كثيرا. وفي تقدير لدوره أختير رئيسا شرفيا للوكالة اليهودية في عام ١٩٢٩. مات روتشيلد سنة ١٩٣٤ في باريس، وفي عام ١٩٥٤ نقلت رفاته ورفاة زوجته إلى إسرائيل، حيث دفنا في زخارون يعقوف Zikhron Ya'akov وهي واحدة من المستوطنات الأولى التي أسسها. انظر:

http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/biography/rothschild.html

(٣) يعد دخول الجيش البريطاني بقيدة الجنرال ألليني General Edmund Henry Hynman Allenby أرض فلسطين في ١١ يناير ١٩١٧ بداية الحكم البريطاني لفلسطين، الذي استمر حتى إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. ومع نهاية عام ١٩١٧ وبعد يوم واحد من القتال مع القوات التركية دخل ألليني مدينة القدس لتسقط في أيدي الإنجليز بعد أربعة قرون من الحم العثماني وليصبح أول حاكم مسيحي بعد الفترة العثمانية، وليبسر تنفيذ وعد بلفور. وفي ٩ ديسمبر أعلن ألليني وضع المدينة تحت الحكم العسكري تحت =

نشاطاتهم. فقد كان قادتهم على اتصال قوى بالحكومة البريطانية طوال فترة الحرب، الأمر الذى أظهر تعاطف الإنجليز مع رؤى الصهاينة أكثر من أى طرف من الأطراف الأخرى. وأسفر هذا التعاطف عن بيان أو وعد بلفور(١) الشهير الذى أصدره مجلس الوزراء البريطاني وأبلغه وزير الخارجية بلفور إلى لورد روتشيلد فى ٢ نوفمبر ١٩١٧، وهو بيان مُحكم التدبير سياسيا، وتم تأكيده مراراً من قبل الحكومات البريطانية المتعاقبة، وتمسكت به بإخلاص، وأبلغته الحكومتان الفرنسية والإيطالية، إذ لم يتم إصدار الوعد قبل التأكد من موافقتهما.

ويضيف تيريل: كان مؤتمر السلام في فرساي بالقرب من باريس (١٩١٩-١٩٢٠) منشغلاً تماماً بتسوية الشئون الأوروبية، وأهمل ما دون ذلك بصورة متعمدة. وبعد مرور ثلاثة أعوام من احتلال فلسطين اتخذ المجلس الأعلى لعصبة الأمم المجتمع فى سان ريمو عام ١٩٢٠ قرارا محددا بأن تقوم بريطانيا العظمى بإدارة فلسطين تحت الانتداب، وأن تقيم نفسها مسئولة عن تنفيذ وعد بلفور. وهكذا وقعت الأرض المقدسة للديانات السماوية الثلاث فى قبضة بروتستانتية، وأصبحت بيت المقدس أو القدس أى "المقدسة" فى الإسلام تعرف بـ "أورشليم" ، وهى ذات الأرض المقدسة التى كانت . على مدى قرن من الزمان . ميدان حرب بين أوروبا وآسيا، وبين المسيحية والإسلام، ومحلاً للنزاع بين حكام الكاثوليك والأرثوذكس، وبين البابوات والبطاركة. تلك القبضة البروتستانتية وجدت عملها قد تم بلورته بالفعل لصالحها.

أما العرب الذين يشكلون تسعة أعشار التعداد السكانى في فلسطين، فقد أظهروا حنقاً شديداً على الإدارة البريطانية التي أولت الأقلية اليهودية اهتماما خاصا. وصارت اللغة العبرية لغة رسمية إلى جانب الإنجليزية والعربية. وتحول العرب إلى موقف الغاضب ورفضوا التقاسم الرحب للإدارة، التى منحهم إياها الحُكام البريطانيون. وخاصة عندما ساد الاعتقاد بأن اليهود، الذين اعتبروا أنفسهم "شعب الله المختار" قد تم قبولهم من قبل

=

قيادته وستبقى كذلك طالما تطلب الأمر ذلك، مع الحفاظ على كل المقدسات التابعة لأصحاب الديانات الثلاث وحقهم في ممارسة شعائرهم بحرية. انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Edmund_Allenby,_1st_Viscount_Allenby

(١) - ينص الوعد على: "تنظر حكومة جلالته بعين التأييد لتأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وستبذل جل ما بوسعها من أجل تسهيل إنجاز هذا الأمر، ومن المفهوم تماماً أنه لن يتم القيام بأى شئ من شأنه إلحاق الأذى بالحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين، وكذلك [بالمثل ينبغى عدم الإضرار] بحقوق اليهود ووضعهم السياسى الذى يتمتعون به فى أى دولة أخرى".

الأمم المسيحية. والحقيقة أن هذا الاعتقاد بأنهم "شعب الله المختار" قد تولد عن اليهود أنفسهم، وكان ينقصه الدعم من مصادر خارجية أو من حقائق تاريخية تثبته.

والحقيقة التي يؤكدها تيريل هي أن اليهود لم يكونوا وحدهم الذين يعدون أنفسهم شعب الله المختار، فقد كان شائعا بين الناس الادعاء بأن أمتهم على وجه الخصوص قد تم تفضيلها بالعناية الإلهية؛ إذ نسمع عن روسيا المقدسة، وعن النسب الإلهى للراجبوت Rajput فى الهند، وعن الأسرات الملكية الصينية، وعن "ولايات الله القدير الحرة". لكن عند اليهود يفوق العنصر السامى هؤلاء جميعاً فى الإدعاء بنيله حظوة إلهية خاصة. فى بادئ الأمر كان "يهوه" Jehovah (الله بالعبرانية) وحده الإله القومى لبني إسرائيل. لكن "يهوه" قد أصبح ملكاً عظيماً يفوق الأرباب كافة، وأخيراً عندما أصبح "إسرائيل" نفسه موحداً بالله، أصبحت جميع آلهة الوثنيين مجرد خشب وحجارة، كما أصبح الوثنيون الذين يتعبدون إليها، مُجرد أشياء عُرضة لسخط الله، وأعداء لشعب الله المختار. ولكن ثقة بني إسرائيل فى قدرهم المميز لم يتقاسمها معهم من يقطنون البلدان المجاورة. فبنو إسرائيل كانوا أناسا متواضعي المستوى من حيث العدد ومن حيث الدورالسياسى، ولا تتناسب إدعاءاتهم مع ما لهم من قوة وتأثير، فهم لم يخلفوا أثرا فى حضارة العالم القديم، كما أن المؤرخين القدامى أغفلوا وجودهم، حتى أن تلك الأرض التى يباهون بأنها عطية الله لهم لم تسمى باسمهم وإنما سميت باسم "الفلسطينيين"[١]. ورغم ذلك فمن المستحيل أن يُخلف الله غايته ويهجر شعبه. فقد يكون رفع حمايته عنهم مجرد أمر مؤقت لاختبارهم. ومن هنا بزغت فكرة المسيح المخلّص لاستعادة المُلك لإسرائيل.

ويرصد تيريل أن بزوغ المسيحية قد تسبب فى تغير تام فى موقف العالم من اليهود. فقد كان "المسيح عيسى" والحواريون أتباعه يهوداً، ورثوا عادات الشعب اليهودى وآدابه، ونقلوا عقيدتهم إلى تلاميذهم. وتم التسليم عندئذ بادعاءات اليهود أنهم شعب الله المختار وفُسرت المحن التى تعرضوا لها على أنها عقاب إلهى لإنكارهم أن عيسى المسيح هو المسيح المنتظر. وعبر قرون من التاريخ الأوروبى ثبت أنه التفسير الملائم والمقنع لمشاعر الكراهية تجاه اليهود، وهي مشاعر لها

(١) الفلسطينيون عند تيريل وقتئذ كانوا أمة وثنية، أغلب الظن أنها ذات أصول إغريقية، حيث أتوا من وراء البحار لاستعمار ساحل فلسطين، و"فلسطين" ، أرض "الفلسطينيين" كانت بالنسبة للعالم مكان رحب، وما زالت كذلك حتى يومنا هذا (منتصف العشرينيت من القرن العشرين).

أصلها الواقعي المتمثل فى العداء العرقى الطبيعى بين العرقين "الآرى" و"السامى".

ويفسر علماء اللاهوت المسيحيون أن قدرة الشعب اليهودى طوال عشرين قرن على احتمال الشتات والاضطهاد إنما ترجع إلى العناية الإلهية التى اختصوا بها، ولكن حالهم فى مجملها لم تكن فريدة من نوعها؛ فقد تعرض الأرمن للغزو والاضطهاد من قبل جيرانهم تماماً مثل اليهود، وتشتت شملهم بين بلدان عدة فى آسيا وأوروبا، كما تعرضوا (أثناء الحرب العالمية الأولى) إلى النفى والاضطهاد والإبادة من قبل الأتراك، فضلاً عن الخزلان الذي تعرضوا له من قبل القوى المسيحية الكبرى، التي شاهدت معاناتهم ولم تحرك ساكناً، لاسيما الألمان الذين ساعدوا أعمال الأتراك "البربرية"[1]. وكذلك الحال مع الـ "بارسيس"[2] فى الهند، الذين هم أناسٌ يعيشون فى المنفى بعيداً عن الوطن الأصلي في بلاد فارس لأجل دينهم. فقد تمسكوا بإيمانهم وبعاداتهم الوطنية وتقاليدهم دون تغيير على مدى خمسة عشر قرناً فى أرض غريبة.

والآن ما علاقة ماسبق بالقدس؟ الواقع أن شتات هذه الأمم المبعثرة جميعاً كان له تأثير إيجابي عليها، تمثل فى نبوغها القومى، بعيداً عن الأنشطة السياسية والعسكرية، وتركز فى المجال المالى والتجارى. فقد أصبح كل من اليهود والأرمن والبارسيس أصحاب مصارف وتجارا وأخصائيين بإدارة المال، وذاع صيتهم وأصبحوا من أثرياء بلاد المنفى. وظهرت نتائج ذلك الثراء حين خصص أثرياء اليهود فى أوروبا وأمريكا بالفعل ملايين الجنيهات الإسترلينية لتأسيس المستوطنات اليهودية لتسكين المستوطنين اليهود في أرض فلسطين؛ ذلك أن قيام الحركة المناهضة للسامية قد عجل بخروج اليهود من أراضى المنفى، إما بسبب مشاعر الحقد والغيرة التى تحركت تجاه الثروات اليهودية الضخمة، وإما نتيجة ما ترتب عن ذلك الثراء من تزايد التأثير اليهودى. أو بسبب روح الاطهاد الدينى التى لم يتخلص منها كل من الكاثوليك والأرثوذكس فى الكنيسة المسيحية. لقد أدت هذه التطورات إلى أن تصبح القدس قبلة هؤلاء الأثرياء في هذا الوقت بالتحديد.

---

(١) هناك اتجاهان واضحان بين المؤرخين حول المسألة الأرمينية؛ أحدهما يبرئ الأتراك من المذابح التي ارتكبت ضد الأرمن والآخر يدينهم.

(٢)- البارسيس Parsis عناصر فارسية الأصل هاجرت إلى غرب الهند واستقرت هناك واندمجت جزئيا في المجتمع الهندي، ومع محافظتها على ثقافتها انقطعت عن جذورها الفارسية . ورد المصطلح إلى أوروبا لأول مرة في اللغة الفرنسية عام ١٣٢٢ ثم في اللغة البرتغالية فاللغة الإنجليزية. انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Parsi

وينتهـي تيريـل إلـى أن الظـروف التـي أفررزتها الحرب العالمية بإعادة توطين اليهود فـى فلســطين إنمـا تعمـل لصـالح اليهـود ولصالح فلسطين. "فهـي تعمل عن طريـق قـوتين مـؤثرتين هما الانتداب البريطانى من ناحيـة، والجماعـات اليهودية فـي العـالم مـن ناحية أخرى. وقـد وضعت حكومة فلسطين البريطانيـــة معيـــارا جديـــدا لإدارة منظمـــة ومستنيرة فـي البلاد، ويستطيع هؤلاء الذين يعرفون فلسطين أيام الأتراك أن يقدّروا تماماً كل ما تدين فلسطين به للانتداب البريطانى. وليس من المبالغة فى شئ القـول بأن كل تقدم تقريباً أنجزته فلسطين مؤخراً سواء كان فـى الزراعـة أو الصـناعة أو الفـن، أو العلـوم أو حتـى التعلـيم، كلهـا تـدين بالفضـل بصـورة رئيسية إلى وجود اليهود".

ورغـم أن تيريـل لـم يعـد يعتقـد فـي منتصف العشـرينيات بـأن أورشـليم (القـدس) هى المركـز الحقيقـى للعالم كما كانت تمثل فـى خريطـة العـالم فـى العصـور الوسـطى (التـى مـا زالـت معلقـة علـى حـائط كاتدرائيـة "هيرفورد" Hereford ، ولكن بعيداً عن الوضع الجغرافى والرابط التاريخى) فإن فلسطين ما زالـت الأرض المقدسـة فـى عقائـد الأديـان الثلاثـة العظيمـة، ولها سحر روحى مؤثر فى نفـوس البشـر، ومـا زال قـدرها المرتقـب يثيـر اهتمـام العـالم المتحضـر. ثـم يؤكـد علـى أن الصـهيونية لازالـت تـرتبط بالقيـام بـدور عظـيم فى تنمية هذا القدر المرتقب، مشيرا إلى أن "ليونـارد شـتاين"[(١)] أحد الـرواد الصـهاينة قـدم للعــالم فـــى تقريـــره الواضـــح عـــن نشـــأة الصهيونية وأهدافها وأنشطتها خدمات جليلة للغايـة. هكـذا كـان الفكـر الصـهيوني مـتغلغلا

(١)- درس ليونـارد شـتاين Leonard Stein فيمـا بـين عـامي ١٩١٠و١٩١٤ فــي جامعــة أكســفورد، وأصــبح رئــيس اتحــاد الجامعـة، وكـان أول يهـودي يشـغل هـذا المنصـب. وأثنـاء الحـرب العالميـة الأولـى خـدم مـع القـوات البريطانيـة فـي فرنسـا. وفـي عـام ١٩١٨ لحـق بـالإدارة العسـكرية البريطانيـة فـي فلسـطين، و فـي عـام ١٩٢٠ صار واحد مـن الصـهاينة الـرواد، فقـد شـغل وظيفـة السـكرتير السياسـي للمنظمـة اليهوديـة العالميـة، ومنـذ عـام ١٩٢٩ كـان يعمـل قريبا مـن حـاييم وايزمـان، الـذي صـار أول رئـيس لإسـرائيل فيمـا بعـد (عـام ١٩٤٩). وفيمـا بـين عـامي ١٩٣٩ و١٩٤٩ صـار رئيسـا للجمعيـة البريطانيـة اليهوديـة، وكـان يمثلها لـدى الحكومـة البريطانية خلال فترة السطوة النازية. وفي عام ١٩٦٣ وصل إلـى سـن الخامسـة والسـبعين، قضـى السـنوات العشـر الأخيرة من عمره في الإشراف على الطبعة الإنجليزية من أوراق حاييم وايزمان الخاصة Letters and Papers of Chaim Weizmann وحـــرر بنفســـه المجلـــدان الأول والســـابع. زارفلسـطين لأول مـرة عـام ١٩٠٨، ومـع أنـه كـان صـهيونيا ملتزما إلا أنـه كـان ينـتهج نهجـا سـلميا فـي حـل المشـكلة الفسـطينية عـن طريـق التعـايش السـلمي بـين جميـع الأطراف فيها. انظر:

Floreat Domus, Balliol College, Oxford University. Issue 7, June 2001.

http://alumni.balliol.ox.ac.uk/news/fd2001/leonard_stein.asp

حتى النخاع عند البريطانيين في منتصف العشرينيات من القرن الماضي.

*****

وفي أواخر العشرينيات من القرن الماضي زار البروفيسور سير دنيسون روس[١] الشرق الأوسط، وعاد بحصيلة من التقارير والانطباعات حول ما رآه على أرض الواقع من تحولات وتغيرات، وبسبب مرضه عهد إلى البروفسور أرنولد توينبي[٢] ليلقي في ٤ يونية ١٩٢٩ كلمة مبنية على ملاحظاته حول حصيلة زيارته للشرق الأوسط في كل من مصر وفلسطين وسوريا والعراق وفارس، أراد من خلالها عرض تصوره لتحديث الشرق الأوسط[٣]. يقول توينبي: إن البروفسور دنيس روس بدأ بعين خبير سياسي ومؤرخ سرد انطباعاته عن رحلته هذه بمجموعة من الملاحظات التي سجلها عن الأوضاع الحالية (١٩٢٩) للإسلام والمسلمين في منطقة الشرق الأوسط. ولا يعنينا هنا ما قاله عن مصر والشام، أوإيران أوغيرها، وإنما يعنينا ما قاله عن ما يجري في فلسطين من نهضة عمرانية في ظل إدارة الإنتداب البريطاني. ويلفت النظر هنا تلك العبارة العامة التي أطلقها روس عن التغيرات التي كانت تجري في الشرق الأوسط، فقال بلسان توينبي: إن الثقافة العامة للمسلمين تتعرض الآن (١٩٢٩) لتغيرات ضخمة، وبصورة منفصلة بعيدا عن السياسة الدولية؛ فالعناصر الأساسية لبنية الإسلام بدأت تنمو، وبدأت أبوابه تتفتح للتجديد، مع تحجيم دور المنظرين من المدرسة (الفكرية) القديمة، والمسئولين عن الخيالات والخرافات، ويجري ذلك دون المساس بالعقيدة الإسلامية نفسها.

ويشير روس إلى ما رآه في فلسطين، في الوقت الذي تضطرب فيه العلاقة بين العرب وكل من اليهود والبريطانيين، فيقول على لسان توينبي: من القليل الذي رأيته

---

(١) - جرت زيارة دنيسون روس قبل الاضطرابات التي وقعت في أغسطس من العام نفسه بسبب حائط البراق.

(٢) - أرنولد توينبي Arnold J. Toynbee (١٨٨٩- ١٩٧٥) لعله أشهر المؤرخين البريطانيين وأكثرهم موضوعية، خدم في وزارة الخارجية البريطانية خلال الحربين العالميتين، كان ضمن الوفد البريطاني إلى مؤتمر السلام في باريس. كان مدير البحوث في المعهد الملكي للشئون الدولية The Royal Institute of International Affairs في لندن (١٩٢٥- ١٩٥٥) يرى أن مشكلة التاريخ تكمن في الجماعات الثقافية وليس في القوميات كما هو شائع. لعل أشهر مؤلفاته كتاب: دراسة التاريخ, **A Study of History** (12 vol., 1934–61)

(3) -The Modernisation of the Middle East, Address given on 4 June 1929, by Professor Arnold Toynbee =

=

from the notes of ProfessorSir Denison Ross, **Journal of the Royal Institute of International Affairs**, vol. 8, July 1929

فـي فلسـطين، أجـد أنهـا البلـد الـذي حقـق أعلـى اسـتفادة مـن نتـائج الحـرب (العالميـة الأولى). ومن ذلك خطوط السكك الحديدية الممتازة، ومحطاتها التـي تبـدو أوروبيـة تمامًا، والطرق التي أنشئت هي من أفضل ما رأيت، والأمـن والنظـام مسـتتبان تمامًا دون وجـود جنـدي واحـد. ولـم أر أي شـيء يخـص الصـهيونية. ولعـل مجـرد هـذه الإشـارة الأخيـرة إلى الصهيونية تعني أنه كان متوقعا أن يرى بصمة للصهاينة هناك، من فرط ما يعرف عن تطلعات الصهاينة في القدس.

ولعـل أهـم مـا لمسـه روس مـن تحـديث يبحث عنه فـي المنطقـة هـو الجامعـة العبرية الجديدة في القدس، والتي يبدو أنها لم تكن أثـرا كافيـا معبـرا عـن الحضـور الصـهيوني الفعلـي؛ خاصـة وأنـه رآهـا ذات مبنـى جمـيلا يقف على مرتفعات سكوبوس المطلة على البحـر الميـت، وأنـه اعتبرهـا أفضـل إشـارة عمـا يمكن تحقيقـه فـي الشرق الجديد؛ وأكثر من ذلك يعتبرها ظاهرة ليس لها نظير، رغم أنهـا فـي مرحلـة التكـوين، فكـل التعليمـات كتبـت باللغـة العبريـة؛ حيـث عـادت العبريـة المطـورة إلى العالم الحديث، وبدأ التعاقد مع الأساتذة اليهـود مـن جميـع أنحـاء العـالم فـي كافـة التخصصـات، ولـدى الجامعـة قسـم كامـل التجهيـزات للغـة العربيـة، بـه خمـس قاعـات محاضرات ومكتبة كبرى، تقوم بأنشطة بحثيه قيمـة. لكـن النقص الحقيقـي هـو فـي عـدد الطـلاب، وهـو موقـف يحسـدون عليـه، لأن الأساتذة يمكنهم القيام بأبحاث أكثر. ويضيف لكننـي علـى يقـين مـن أن هـؤلاء الطـلاب سيتدفقون بأعـداد كبيـرة، وستصـبح القـدس فـي النهايـة مركـزًا عظيمًـا للدراسـات والآثـار الشـرقية. ولا أرى سـببًا يجعـل المسـيحيين الشرقيين ليسـوا مـن بـين الطـلاب فـي تلـك الجامعـة. فهـؤلاء الـذين يدرسـون اللغـات السـامية سيسـهل علـيهم الأمـر بقـراءة اللغـة العبريـة الحديثـة. ولـم يشـر روس إلـى الطـلاب المسـلمين حتـى وإن كـانوا سيدرسـون الآثـار الشـرقية. بينمـا لـم تفتـه الإشـارة إلـى أن منـاخ القدس ممتاز، والمدينة بها تسهيلات مريحة، وإن كانت الفنادق كما فيما عداها من أماكن، ماعدا القاهرة، سيئة بصورة تدعو للإشفاق، أما الريـف المحـيط بهـا ففيـه مـا لا ينضـب مـن مواطن الجمال والمتعة.

وعن الصهيونية يقول دنيس روس على لسـان تـوينبي: "لـم أكـن يومًـا ممـن يـدعون بالصهيونية، على العكس كنت فـي وقـت ما أحـد قـادة الـدفاع عـن الفلسـطينيين العـرب، ولكنـي منذ اطلعت على تصريح بلفور تحولت قليلاً. لقـد اعتقـدت أن مبدأ الـوطن اليهـودي أفسده أن عددًا قليلاً من اليهود سيرغب في الاستيطان بفلسطين، وهم ليسوا من الأثرياء، أو من ذوي النفوذ، ولكنـي الآن أرى أن نجاح

الصهيونية لا يعتمد على الأعداد، بل على تأكيد مركز عام لعرق مشرد". تكشف كلمات دنيس روس عن تحول نحو الصهيونية ومناصرتها انطلاقا من أنها ستقود إلى تطوير الشرق الأوسط عن طريق أموال اليهود الأثرياء المشردين في بقاع مختلفة من العالم.

*****

هذا العرق المشرد كان في مطلع الثلاثينيات موضع اهتمام هنري نيفنسون أحد عتاة الصهاينة، الذي كتب مقالا بعنوان "عرب ويهود فى فلسطين"(١). تحدث فيه بحس مرهف عن مشاعر الرجال والنساء من الإنجليز والأسكتلنديين، الذين ترعرعوا فى أجواء المسيحية الإنجيلية، نحو القدس والأرض المقدسة، فماذا هو قائل عن مقدار ما يشعر به اليهود المشردون، الذين ارتبط تاريخهم وشريعتهم ودينهم كله بتلك الأرض! إنه تطور ملحوظ لدى البريطانيين في مساندة فكرة الصهيونية وتيسير تحقيق طموحاتها في الأرض المقدسة.

يعزف هنري نيفنسون ذات النغمة التي سادت طوال العشرينيات، والتي عزفها من سبقوه في هذه الورقة، من أن اليهود ظلوا هم الأكثر تعرضاً للشتات والاضطهاد من بين الأجناس كافة، ومع ذلك ظلوا من بين أكثر الأجناس تمسكاً بعاداتهم وبمشاعرهم الوطنية تجاه وطن الأجداد. ويردد نيفنسون ما يتغنى به الغرب يهود ومسيحيون فيقولون: "عند مياه بابليون، جلسنا وانتحبنا عندما تذكرناكِ، آه صهيون، فقد علّقنا قيثارتنا على الأشجار التى تنمو هناك. كيف لنا أن نغنى أغنية السيد فى أرض غريبة؟ إذا أنا نسيتك يا أورشليم (القدس)، إذن فلتنسى يُمناى مهاراتها". ويؤكد نيفنسون على أننا جميعاً نعرف تلك القصيدة، رغم أننا نغفل خاتمتها المُرعبة. فهى مرثية تَغنى بها اليهود لقرون. وفي الختام يبدي شفقة على اليهود الذين لم يصنعوا تلك الخاتمة المرعبة، بل كانوا هم من وقع عليهم فحواها، ومعهم أطفالهم فى كل دول العالم تقريباً، لاسيما في أوروبا الشرقية. فقلوب اليهود جميعاً لم تزل معلقة بصهيون، ولم ينسوا أبداً "أورشليم (القدس)".

يوظف نيفنسون التاريخ لخدمة الهدف فيقول: فى بدايات القرن الرابع، قرأنا عن زيارة اليهود لأطلال المدينة المقدسة للانتحاب إلى جوار الكتل الحجرية الضخمة الخاصة بحائط المبكى (حائط البراق)، وهى الآثار الباقية الوحيدة لمعبدهم. وجرت العادة، من عهد لآخر، أن يهيم اليهود العابدون فى المدينة،

(1) -Henry W. Nevinson, "Arabs and Jews in Palestine". **Foreign Affairs**, no. 8 (January 1930), pp. 225- 236.

لكى يتأملوا شريعة الله، وليقضوا نحبهم. كان هـذا هـو الهـدف "أن يتـأملوا وأن يقضـوا". وسوف نلاحظ أن الهدف قد تبدل ليصبح أن "يعملوا وأن يبقوا". ولم يزل مثل هذا الحجيج يأتى إلى المدينة المقدسة حتى يومنا هذا (١٩٣٠)، ولقد رأيتهم يتجولون هنا وهناك فى أورشـليم (القـدس)، يرتـدون قباعـات ضـخمة وقمصـان طويلـة مـن الـرأس إلـى القـدم، واضعين خصلات شعر طويلة تتدلى على جـانبى الوجـه وفـق السُـنّة التلمودية، وهـم يبـدون شـاحبى الوجـوه وبأجسـاد هزيلـة، لأن الدعم الذى اعتادوا الحصول عليه من اليهود الروس قد منعه السوڤيت.

ويرصـد نيفنسـون جماعـة واحـدة علـى الأقـل، "مـن بـين هـؤلاء الطلبـة الخاشـعين، الذين لا يزالون ماكثون بين مناطق الجبال فى الشـمال. بينمـا قضـى العديـد مـن هـؤلاء الطــلاب والنُسّــاك الــورعين فــى المــذابح الأخيـرة"[١]، وكـان مـن بيـنهم دكتـور ڤـاينر "زعـيم الطـلاب الشـجاع، الـذى كـرس حياتـه لخدمـة الغـرب ولصـداقتهم. ولـم تكـن ثـورة

(١) فـي إشارة إلـى أحداث حائط البراق (**براق المسلمين** (**The Moslem's Buraq**) عام ١٩٢٩ التي جرت بين الفلسطينيين مـن جهـة واليهـود بمسـاندة قـوات الاحـتلال مـن الجهـة الأخرى، وذلـك بسـبب إخـلال اليهـود ببنـود صـك الانتـداب، الـذي يقضـي ببقـاء الأوضـاع علـى مـا هـي عليـه فـي الأماكن المقدسة للمسلمين. ويعرفه اليهود باسم **حائط المبكى** **Wailing wall**، وهو جزء من الحائط الغربى لمسجد "عمـر" الـذى يعـد بالنسـبة للعـالم الإسـلامى بأسـره فـي المنزلـة التاليـة "لمكـة" و"المدينـة". والحـائط مـع الممر =

= المتاخم له وجميع المبانى والممتلكات الحصينة المحيطة بـه وقـف خـالص للمسـلمين. وكـان مـن قبيـل سـماحة المسلمين أن تم السماح لليهـود وغيرهم مـؤخراً بالـدخول إلى الحائط للزيارة. وعقب الحرب طالب اليهود بحق العبادة العمومية هناك، وما يشمل ذلك من استخدام العديد من المرافق، وهو ما من شأنه أن يجعل من المكان الإسلامى المقـدس وأمـلاك الوقـف معبدا يهوديا مفتوحـا. وعقـب ذلـك، أصـدرت الحكومـة البريطانيـة الكتـاب الأبـيض (white paper) عـام ١٩٢٨، لتعلن حرمة الأملاك الإسلامية ولتدعم الوضع القـائم، علـى أن يبقـى كما كـان فـى زمـن الأتراك، وهو مـا تـم تسـجيله قبلاً بواسـطة الحكومـة، وتـم تحديـده بالمسـتندات الرسـمية فـى الملكيـة الإسـلامية. ورغـم مـرور عـام، فقـد فشـلت الحكومـة، بتـأثير صـهيونى، فـى وضـع الأسس التى نص عليها الكتاب الأبيض قيد التنفيذ، حتـى تعاظم تأثير الصهاينة إلى الحد الذى جعلهم يسيرون فـى مظـاهرة غاضـبة فــى ١٥ أغســطس ١٩٢٩، وذلــك مــروراً بالأحياء الإسـلامية وصـولاً إلـى البُـراق، وقـد خلقـوا جـواً من التوتر بلـغ الـذروة فـى أحـداث شغب ٢٣ أغسـطس ١٩٢٩. ورغم أن هذه الأحداث فى حد ذاتها من الأهمية بمكان، إلا أنها كانت مجرد الشرارة التى أشعلت حريق أغسطس المدمر. فـالظلم الـذى ابتلـى بـه العرب من جـراء السياسـة الصهيونية ربما يتسبب فى شرارة أخرى فـى أى وقـت قـد تؤدى إلى ثورة المشاعر الغاضبة. انظر: عادل حسن غنيم، **حـائط البـراق أم حـائط المبكـى؟** (القـاهرة، دار قبـاء، ٢٠٠١)؛ وانظر أيضا:

Jemal Bey Al Husseini, "The Arab Statement on the Present Situation in Palestine", **Journal of the Central Asian Society**, vol. XVI, 1930, part I. pp. 93- 97.

الغضب التى انتابت العرب في القدس وفلسطين موجهة ضد هؤلاء الزوار بالضرورة. فقد كانت موجهة في الحقيقة ضد المستوطنين الدائمين، الذين عادوا إلى فلسطين من ربوع العالم المختلفة، ليس بهدف التأمل والموت، وإنما للعمل والعيش". لقد تغير الهدف وتبدل من تأمل إلى عمل ومن موت إلى عيش. كانت البداية منذ خمسين عاماً مضت، أي في مطلع الثمانينيات من القرن التاسع عشر، حين راحت قلة من اليهود فى أورشليم (القدس) فى إقامة المستعمرات في مناطق مختلفة من فلسطين، قدم لها البارون "إدموند دى روتشايلد" من باريس يد العون، حيث أجزل العطاء لهذا الغرض، ولم تزل مستوطناتهم الكبيرة والمنتعشة باقية[١]، ولكن ذلك لم يلق تشجيع القواعد الصهيونية الجديدة. لقد عانى المستوطنون الأوائل في فلسطين، مثلهم مثل كافة الرواد، حين تعرضوا للتحرش من قبل الحكام العرب والأتراك، وحين ابتلوا بداء الملاريا وعانوا من غياب نظم تصريف المياه.

وفى مطلع القرن العشرين بدأت "شركة تنمية أرض فلسطين" بداية نشطة، آتت ثمارها لدى المنظمة الصهيونية، التي أنشأها المؤتمر الصهيونى[٢]. ورغم أن بعض التغيرات طرأت على هذا النظام فى مؤتمر "زيورخ"[٣] فى يوليو وأغسطس (١٩٢٩)، لم تزل السلطات الإدارية للوكالة اليهودية الجديدة مقسمة إلى فرعين؛ وتدار من خلال جهازين مسئولين عن الحركة الصهيونية فى

---

(١) - من تلك المستعمرات يذكر نيفنسون: مستعمرة "فجر الأمل" Petah Tikvah، التى اشتهرت ببرتقال يافا ومستعمرة Rishon-le-Zion، التى اشتهرت بخمورها إلى أن اتخذت الولايات المتحدة (قرارها) بحظر بيع الخمور، وتحولت مزارع الكروم الخاصة بها إلى بساتين برتقال، وكذا (مستعمرة) Rosh Pinah، البلدة الجبلية الجميلة التى تطل على بحيرة "ميروم Merom فى الشمال.

(٢) - إشارة إلى المؤتمر الصهيوني الأول في بازل ١٨٩٧.

(٣) - يُعد المؤتمر الصهيوني السادس عشر في زيورخ Zurich نقطة تحول خطيرة في نمو الحركة الصهيونية؛ ففيه أنشئت الوكالة اليهودية بين شريكين، هما: المنظمة الصهيونية (ZO) و(الجماعات اليهودية الشعبية غير الصهيونية non - Z) بالتساوي في عدد الأعضاء. وصار حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية رئيسا للوكالة اليهودية، التي أفرزها المؤتمر لتكون وسيلة جميع اليهود في بناء الوطن، ولكن هذا لم يتحقق بسبب الأزمة المالية العالمية سنة ١٩٢٩. ومع مرور الوقت صارت الوكالة اليهودية تقوم بالدور نفسه الذي تقوم به المنظمة الصهيونية. كما يعد هذا المؤتمر نقطة تحول كبيرة في مواقف الفلسطينيين من الهجرة اليهودية، وهو ما أدى إلى أحداث ١٩٢٩ الدامية التي وصفها الغربيون بـ "المجازر". انظر:

World Zionist Organization (WZO),
http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/Zionism/wzo.html

فلسطين، الأول: "الوقف اليهودى الوطنى"[١]، والثانى: "الوقف الصهيونى العام"[٢]. ويبدي نيفنسون إعجابه بالعمل الدؤوب للصهاينة، ويقول: بإمكان المرء أن يحول الرمال إلى كيان ثابت الأركان، كما جرى في البلدات التي كانت منذ عشرين عاماً مضت (١٩١٠) مجرد كومة من الرمال، مثل حيفا/"تل أبيب"، التي يبلغ عدد سكانها حالياً (١٩٢٩) خمسين ألف نسمة، فقد تم تمهيد الشوارع، وبناء بيوت راسخة، بيضاء ونظيفة، وكذا إنشاء بنوك وفنادق ومصانع صغيرة، تعمل بالطاقة الكهربائية، التى سيتم توفيرها قريباً بطاقة صغيرة ولكنها كافية من نهر الأردن وغيره. إنها بلدة حديثة، وبامتداد ساحلها، توجد جميع المسرات الحديثة، التى يمكن التمتع بها من أماكن استحمام، وكازينوهات، سينمات، ركوب قوارب، ركوب دراجات، ولعله بالفعل مشهد يبعث على الابتهاج حيث الشباب اليهود يتهللون فرحاً بحريتهم الجديدة وبإشراقة الشمس إلى جوار البحر.

أما عن بلدة "حيفا" الرحبة على الجانب الشمالى من جبل الكارمل، فهى تمتد باتجاه الشمال بطول الساحل. وقد تم شراء قطاع كبير من الأرض الصحراوية التي تتكون من رمال ومستنقعات للتنمية المستقبلية، وإذا ما تم تنفيذ التصميم المقدم من حكومة الانتداب، فإن حيفا ستصبح أهم ميناء فى فلسطين، إن لم يكن فى شرق البحر المتوسط؛ لأن النوايا قد انعقدت على تحويل مصب نهر "كيشون" إلى ميناء، وفى تلك الحالة فإن المدينة الصهيونية سوف تلتف حوله ثم تتجه شمالاً. يمتلك اليهود بالفعل منازل رحبة بطول منحدرات جبل الكارمل، فضلاً عن مدرسة كبيرة للعلوم والتدريب العملى. وعلى ذات المستوى، يقوم مشروع للأسمنت وآخر للصابون، ويبدو أنهما يزدهران.

يقول نيفنسون مبرزا دور اليهود في التعمير: عندما كنت هناك رأيت جموع الشباب اليهودى تكد فى المستنقعات بأجساد عارية تقريباً، وهى دوماً مهمة خطيرة نظراً لانتشار الملاريا. عرف نيفنسون أن الحكومة تقوم بتوظيف العمال العرب فى مشروع الميناء، نظراً لأن العربى يعمل مقابل خمسة قروش يومياً (ما يعادل ٢٥ سنت) فى حين يطلب اليهودى خمسة عشر قرشا. ولعل من أكثر ما

---

(١) The Jewish National (Keren Kayemeth) Fund، وهو الفرع المختص ببيع الأراضى الوقف، المشتراة من كبار الملاك العرب غير القادرين على زراعتها، فضلاً عن قيام (هذا الفرع) بتنظيم صرف المياه (فى تلك الأراضى) وتحسينها.

(٢) The Zionist General Fund (Keren Hayesod) ، الذى يجمع الأموال، وينظم الهجرة، ويوزع المستوطنين، ويشرف على المدارس اليهودية، ويتعامل مع حكومة الانتداب.

أثار دهشته أثناء تفحص الأنشطة الصهيونية علـى أرض الواقـع، هـو شـجاعة الـرواد اليهـود وصـــلابتهم فـــى محاولـــة القضـــاء علـــى مســـتنقعات الملاريـــا عبـــر الامتـــداد الطويـــل لمجموعـة مـن الوديـان الممتدة باتجـاه الجنـوب الشرقى من جبل الكارمل نحـو نهر الأردن، حيث قامت على جانبيها المستعمرات الصهيونية.

ويعود نيفنسـون فيقـول: لابـد أن نلتفت إلـى أورشـليم (القـدس)، فثلث سـكانها علـى الأقل من اليهود، والبعض يقـول إنهم ثلثان، وبها حي يهودى كبير، وضاحية يهودية رغدة باتجـاه الشـمال الغربـى، ناهيـك عـن الجامعـة اليهوديـة التى تقف علـى جبل "سـكوبوس"[(١)] حيـث كـان يطـل معسـكر "تيتـوس"[(٢)] علـى المدينة القديمة قبل تدميرها.

ويشـير نيفنسـون إلـى تعـداد اليهـود فـى فلسطين الذي يبلغ في عام ١٩٣٠ حـوالى ١٦٠ ألف نسمة، فـى مقابـل ٧٥٠ ألف عربـى. وقـد تم تنظيم أعداد المهاجرين مـن قبل "الوقف الصهيونى العام"، بالترتيب مع موظفي لجنة الانتداب. ويذكر أن عدد المهاجرين عـام ١٩٢٥ كان ضخماً للغاية، ومن بينهم حرفيون كثر، لم يسـتوعبهم مكـان وقتئـذ. وفـي إشـارة إلـى الاضــطرابات الأخيـرة فــي فلســطين، يضـيف نيفنســون: لا أســتطيع أن أخبــر عــن مــدى تأثيرها فـى الهجـرة. ولكـن اليهـود طالما عـانوا مــن ويـــلات مماثلـــة ولـــن يثـــبط هـــذا مـــن عـزيمتهم. فالإسـهامات الصـهيونية فـى تزايـد كبيــر، ويجــب دومــاً أن نتــذكر أن الحركـــة الصـــهيونية تتلقـــى نصـــائح الإمبراطوريـــة البريطانيـــة ودعمهـــا. أوكمـــا كتـــب برفيســـور "أينشـتاين"[(٣)]: "يرى الشعب اليهـودى، الذى

---

(١) - جبل سكوبوس Scopus يعرف عند العرب باسم جبل المشارف وجبل المشهد وجبل الصوانة، يقـع إلـى الشمال الشـرقي مـن القـدس، ويعـد موقعـا اسـتراتيجيا للسـيطرة على المدينة في القديم والحديث والمعاصر، انظر:
http://www.tripwolf.com/en/guide/show/5711/Israel/Jerusalem/Mount-Scopus:
http://en.wikipedia.org/wiki/Mount_Scopus

(٢) - "تيتـوس" Titus قائـد رومـاني خـدم تحـت إمـرة أبيـه (الإمبراطــور فسباســيانوس Vespasianus ٦٩- ٧٩) خـــلال الحرب اليهوديـة الرومانيـة الأولـى فـي فلسـطين فيما بين عامي ٦٧ و ٧٠ حين وضع حدا لحركـة التمرد اليهوديـة عام ٧٠ واستطاع أن يدمر مدينة القدس ومعبدها، وهـو نفسـه الــذي أصــبح إمبراطــورا خلفـــا لأبيـــه عـــام ٧٩. أنظـــر:
http://en.wikipedia.org/wiki/Titus

(٣) - ألبـرت أينشـتاين Professor Albert Einstein يهـودي ألمـاني الأصـل عـاش فيما بـين عـامي ١٨٧٩و١٩٥٥ تنامـت ميولـه الصـهيونية تـدريجيا، فهـو صـاحب فكـر غيـر تقليـدي، وكذا كانت أفكاره الصهيونية. فالصهيونية لم تكن تنسجم مـع أفكـاره المثاليـة حـول السـلام والاشـتراكية، ولا مـع مظهره الذي يوحي بأنه غير متدين. نشرت له دار مكملان Macmillan في عـام ١٩٣١ كتابا يضـم أوراقـه الخاصـة وخطبـه التي ألقاها عن الصهيونية. وكان ذلك فـي أعقـاب أحـداث البـراق عـام ١٩٢٩ وصـدور الكتـاب الأبـيض البريطـاني، وردود =

تعـرض لآلاف مـن الشـرور الماديـة والتحقيـر الأخلاقى، فى الوعد البريطانى صخرة راسخة يمكنـه عليهـا إعـادة تأسـيس حيـاة قوميـة يهوديــة فـــى فلســـطين التـــى بوجودهــا الحقيقى، وكذلك بإنجازاتها العقلية والمادية، سـوف ترتـوى جمـوع اليهـود، المشـتتة فـى أنحاء العالم كافـة، بإحساس جديد من الأمل والكرامة والكبرياء"[١].

لقد أعلن السيد بلفور (لورد بلفور ١٩٣٠) خلال المباحثات أنـه "صهيونى"، وأثبت صدق نواياه بدعمه الغاية الصهيونية، وبوضع حجر أسـاس الجامعـة الصـهيونية المطلـة علـى أورشـليم (القـدس)، وبالمخـاطرة بنيـل عـداء العامـة فـى دمشـق، وبـالجلوس بصـبر فـارغ لسـماع الخطـب التـى لا آخـر لهـا أثنـاء حفـلات العشاء الصهيونية. وترتب على ذلك أن منحت عصبة الأمم بريطانيا العظمى حق الانتداب

عِلـى فلسـطين. وجعلتها مسئولة عـن وضع الـبلاد تحـت مظلـة الانتـداب فـى مثـل هـذه الظـروف السياسـية والإداريـة واللاقتصـادية، ستقوم بتأمين تأسيس وطن قـومى لليهـود وتنميـة مؤسسـات الحكـم الـذاتى، وحمايـة الحقـوق المدنيـة والدينيـة لقـاطنى فلسـطين كافـة بغـض النظـر عـن جنسـهم أوديـنهم. وهكذا، وبموافقة بقية القوى الأوروبية، مثل فرنسـا وإيطاليـا، أصـبحت بريطانيـا العظمـى مسـئولة الانتـداب السياسـى، أمـام عصـبة الأمم، لإحلال حكومة ناجحة فى فلسطين، أو هكذا توقع نيفنسون.

كـان انحيـاز نيفنسـون لما تفعلـه بريطانيا فــي فلســطين واضــحا، حــين أرســلت أحــد الصهاينة وهـو سير هربـرت صامويل[٢] مندوبا

= الفعـل التـي حـدث مـن الهجـرة اليهوديـة إلـى فلسـطين أنظر:

About Zionism: Speeches and Lectures by Professor Albert Einstein. Translated and Edited With an Introduction by Leon Simon. London, Soncino 1930, Macmillan, 1931; "Albert Einstein and Zionism". http://www.zionism-israel.com/Albert_Einstein/Albert_Einstein_about_zionism.htm

(١) - خطـاب إلــى "مانشســتر جارديــان" Manchester Guardian في ١٨ أكتوبر ١٩٢٩.

(٢) - سـير هربـرت صـامويل Herbert Samuel صـهيوني مخلص قدم لحكومته في عام ١٩١٤ مذكـة يقترح فيها أن تكـون فلسـطين وطنـا لليهـود، أختيـر فـي عـام ١٩٢٠ أول منـدوب سـامي فـي فلسـطين قبـل أن يوافـق مجلـس عصبة الأمـم علـى إسـناد الإنتـداب إلـى بريطانيـا، واسـتمر في المنصب حتى ١٩٢٥، كان صمويل أول يهـودي يحكـم مـا يسـميه أرض إسـرائيل التاريخيـة بعـد انقطـاع دام ٢٠٠٠ سنة، فأقر اللغة العبرية واحدة من ثلاث لغات رسمية هـي (العبرية والعربية والإنجليزية) في فلسطين تحت الانتداب. وقـد اعتبـر اليهـود اختيار صـمويل ميـزة لهـم، بينما اعتبرتـه الإدارة العسكرية بقيادة أللينبي خطرا علـى الاستقرار فـي فلسطين وغير قانوني. انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Herbert_Samuel,_1st_Viscount_Samuel

ساميا في القدس، الذي اعتبرت تقريره خلال خمس سنوات من الإدارة، نموذجا يحتذى به فى الكيفية التى يجب أن تكون عليها التقارير، كما أرسلت لورد بلومر[١] أحد أبرز قادة الحرب، وإلى جانبه وقف كولونيل سيمز[٢] الذى يعد نموذجا فى الإنصاف. وكذا أرسلت الآن (١٩٣٠) سير جون تشانسلور[٣]، وهو رجل إدارة ولديه خبرة بشئون الشرق. أما السيد لوك، الذى حل محله، فيبدو وكأنه تنقصه الحكمة المطلوبة أو البصيرة لمن هو فى مثل منصبه.

بدأت سلطة الانتداب فى تحسين موارد المياه لأورشليم (القدس)، وتنظيف شوارعها، لكننا ندين لحاكم المدينة البريطانى، سير رونالد ستورز[٤] بالحفاظ عليها بإنشاء الطرق

---

(١) - لورد بلومر Lord Plumer خلف هربرت صمويل مندوبا ساميا في فلسطين عام ١٩٢٥ في ظل إدارة مدنية تعتمد قليلا على الجيش وبدرجة أساسية على الشرطة وسلاح الطيران منذ ١٩٢٠، وخاصة في حماية المستوطنات اليهودية من هجمات الثوار العرب منذ ثاروا عام ١٩٢٠ في القدس على المستوطنين اليهود، وفي حيفا في العام التالي. انظر:

David E. Omissi, **Air Power and Colonial Control...1919- 1939**,

(Lord Plumer and Zionists), pp.44- 45

(٢) - جورج ستيوارت سيمز Colonel Sir George Stewart Symes (١٨٨٢- ١٩٦٢). كان حاكما على المقاطعة الشمالية من فلسطين فيما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٥، ثم سكرتيرا عاما لحكومة فلسطين فيما بين عامي ١٩٢٥و ١٩٢٨. ثم خدم في مصر بعد ذلك. أنظر:

http://wapedia.mobi/en/George_Stewart_Symes

(٣)- سير جون تشانسلور Sir John Chancellor (١٨٧٠- ١٩٥٢) كان عسكريا بريطانيا في سلاح المهندسين ومسؤولا في وزارة المستعمرات، وسكرتيرا للجنة الدفاع فيها، ثم مساعدا لسكرتير لجنة الدفاع الإمبراطوري (١٩٢٢- ١٩٢٣)، وفي عام ١٩٢٨ أصبح مندوبا ساميا في فلسطين، حيث اتخذ موقفا باردا تجاه طموحات الصهاينة، رغم أنه انتقد فورة العرب ضد الهجرة اليهودية التي بدأت في كل =

= من القدس والخليل على وجه التحديد عام ١٩٢٩ إلا إنه كان أقل حدة في نقده، ساهم في إعداد الكتاب الأبيض البريطاني عام ١٩٣٠ الذي يهدف إلى إعادة النظر في تفسير وعد بلفور وليخلص بريطانيا نت التزامها بإنشاء دولة يهودية. غادر تشانسلور فلسطين في العام التالي (١٩٣١). انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/John_Chancellor_(British_administrator);

Shlomo Hersh, Eyewitness to History``The Government is With Us'', The **Hebron Pogrom of August 1929.**

http://www.professors.org.il/docs/eye.htm#Hersh

(٤) - رونالد ستورز Ronald Storrs (١٨٨١- ١٩٥٥) يعد من أكثر العارفين بشئون القدس وفلسطين بصفته أول حاكم عسكري بريطاني للقدس عقب دخول أللينبي أرض فلسطين عام ١٩١٧ وما تلاها من الانتداب البريطاني بصفته حاكم القدس ويهودا فيما بين ١٩٢٠ و١٩٢٦. وله تاريخ طويل مع العسكرية والدبلوماسية البريطانية من قبل في القاهرة (١٩٠٧- ١٩١٧) والجزيرة العربية خلال الفترة ذاتها، ثم من بعد في قبرص وروديسيا إلى أن استقال من العمل الرسمي عام ١٩٣٤. يقول عنه الكولونيل كيش Lt.-Colonel F. H. Kisch (رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية في فلسطين ١٩٢٣- ١٩٣١) إن ستورز كان يعتبر نفسه خلفا =

العريضة التى تتخلل المراكز القديمة وكذا مد خطوط الترام وصولاً إلى جبل الزيتون. كما أنشأت الحكومة نظاما معتدلا للقضاء تحت إمرة قضاة بريطانيين، وإلى جانبهم معاون عربي وآخر يهودى. وعرضت الحكومة تأسيس مجلس منتخب بدلاً من حكومة معينة بأوامر فى المجلس. لكن العرب أعلنوا رفضهم المشاركة فيها خوفاً من أن يتحالف كل من اليهود والبريطانيون ضدهم فى المجلس. ولكن خوفهم لا أساس له، لأن من بين موظفى الحكومة هناك من ينحاز لصالح العرب؛ الذين يمكن السيطرة عليهم بسهولة، ولأن أجورهم زهيدة، فالعربى يعمل بحوالى ثلث الراتب الذى يتقاضاه اليهودى.

ويرى نيفنسون أن الحكومة أظهرت اهتمامها بكلا العنصرين العربي واليهودي أثناء إنشاء الطرق الجديدة الجديدة بالإعجاب، ولكنه يبدو متواطئا بل ومتحاملا حين يشير إلى أنه على طول جانبي الطريق الرئيس للسيارات هناك طريقان أهليان لسير جِمال السكان العرب، حيث أن وجود الجِمال والسيارات على ذات الطريق يوحى له بالمقارنة بين العرقين العربي واليهودي، فجمال الجنس العربي القديم تتخطى المشى خلال هذه الروبة بأنوف خفيضة تزدرى الهواء، إذ تقطع ١٥ ميلاً يومياً دون طعام أو شراب إلا القليل. وفى أسفل الطريق الرئيس تندفع السيارة بسرعة تبلغ عشرة أو عشرين ميلاً فى الساعة. كذلك هو حال الصدام بين العرقين، أو الحضارتين، الشرق والغرب، حيث يقبع هذا الصدام فى أساس جميع ويلات الحاضر. إنه يتكلم عن صدام الحضارات في فلسطين التي هم مسئولون عن تحقيق الوفاق فيها.

ويبدي نيفنسون انحيازا واضحا للصهاينة حين يقول: "لا أعلم ماهية المعتقدات التى أثرت فى مستر بلفور عند بلورته لبيانه، أعتقد أنها فكرة نبيلة تتعلق بالبحث عن وطن لليهود فى أرضهم الدينية والتاريخية، لكنه ربما كذلك بحث عن الكيفية المثلى التى يمكن من

=

لـ بونتوس بيليت Pontus Pilate الحاكم المثالي للمقاطعة الرومانية في يهودا فيما بين عامي ٢٦ و٣٦م. وكتب ستورز في مذكراته التي نشرها عام ١٩٣٧: إنه لا يستطيع أن يصف حبه للقدس التي تعد وحدها عنده أفضل مدينة في العالم. اصطدم ستورز في بداية عمله حاكما للقدس مع الحركة الصهيونية، التي اعتبره أتباعها مسؤولا عن اضطرابات عامي ١٩٢٠ و١٩٢١. وفي أواخر أيامه في القدس لم يكن ستورز معنيا بمعركة الحركة الصهيونية في القدس. أنظر:

Sir Ronald Storrs and Zion: The Dream that Turned into a Nightmare.

Middle Eastern Studies, (July, 01, 2000).

http://www.accessmylibrary.com/article-1G1-64976112/sir-ronald-storrs-and.html;

http://en.wikipedia.org/wiki/Pontius_Pilate

خلالها إدخال السرور على ١٥ مليون يهودى فى العالم إبان أزمة الحرب العظمى. على أية حال، فقد منحنا حق الانتداب مزايا لم يكن بمقدر السيد بلفور التنبؤ بها".

*****

ومع غروب عام ١٩٣٠ كان في وسع أرنولد توينبي أن يُشَرح "الوضع الراهن فى فلسطين"[(١)] بعمق فكري غير مسبوق، وبنظرة مؤرخ فيلسوف واقعي، من خلال محاضرة ألقاها في المعهد الملكي للعلاقات الدولية ، مستخدما أبسط العبارات في وصف ماهية ذلك الصراع الجاري بين اليهود والفلسطينيين. يقول توينبي: يجري الصراع فى فلسطين بين مجتمعين، اليهود والعرب، ونحن (بريطانيا) معنيون بهذا الصراع، لأن بريطانيا العظمى هى سلطة الانتداب. وقد يبدو الأمر بسيطا، وهو بالفعل كذلك للحد الذى (تعبر عنه الكلمات)، ولكنها لا تجدى نفعاً أبداً فى تفسير الإشكالية الغربية الخاصة "بالمسألة الفلسطينية" التى نواجهها.

في هذا الوقت المبكر من عمر القضية، وضع توينبي النقاط فوق الحروف حين قال في المعهد الملكي للعلاقات الدولية يوم ٩ ديسمبر ١٩٣٠: إن فلسطين بلد متناهي الصغر، ورغم ذلك فالصراع فيه بين اليهود والعرب ليس مجرد شأن فلسطينى محلي، لأن العالم بأسره يشعر به. حتى إن تأثيره يصل إلى تلك المرتفعات القاصية والمعزولة فى الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية (اليمن) لقد رصد توينبي بوضوح لا يشوبه شك أصداء ما جرى في فلسطين من اضطرابات بين العرب واليهود في العام السبق، ثم تساءل تساؤل العارفين وقال: كيف يمكن أن يُحدث الصراع فى فلسطين تأثيرات واسعة المدى على هذا النحو؟ وما هو مصدر هذه القوة النفسية الهائلة التى تشع من فلسطين؟. ثم راح يفسر الأمر بقوله: إن هذه الطاقة الروحية التى تشع من فلسطين إلى جميع أنحاء العالم بصورة مدهشة لم تتولد فى فلسطين ذاتها، بل سرت إليها أولاً من بقية العالم؛ ثم تعود إلى المصدر الذى جاءت منه أصلاً، في إشارة واضحة إلى أن القدس وجهة الديانات السماوية الثلاث قبلة كل العابدين على اختلافات أجناسهم وعقائدهم السماوية، من هنا وضع توينبي يده على أصل فكرة تدويل الصراع في فلسطين.

من هنا يرى توينبي أن القوتين اللتين تتصارعان في فلسطين ليستا قوىً فلسطينية، بل هما قوتان عالميتان. وهذا

(1) -Arnold J. Toynbee, "The Present Situation in Palestine", **Journal of the Royal Institute of International Affairs**, (January, 1931).

غنى عن البيان فى حالة اليهود؛ فالجماعة اليهودية طرف الصراع ليست ببساطة ذلك العدد من اليهود، الذى يصل حتى الآن (١٩٣٠) إلى ما يقرب من ١٦٢ ألف نسمة داخل فلسطين؛ لأن المجتمع اليهودى المَعنِى بفلسطين هو المجتمع اليهودى عبر أنحاء العالم. فقد وعدت بريطانيا العظمى وعصبة الأمم اليهود بصفة عامة بـ "وطن قومى يهودى فى فلسطين". وهذا "الوطن القومى اليهودى فى فلسطين" هو شأن مشروع لأى يهودى، أينما كان، حتى وإن كان يعيش فى "الصين" أو "بيرو"، حتى وإن انتفت عنده أية احتمالية لأن يذهب هو أو ذريته من بعده للعيش فى فلسطين. فكل يهودى فى العالم يهتم بفلسطين بذات الكيفية التى يهتم بها كل رومانى كاثوليكى بـ "روما". ومن البديهى ألا يصبح كل رومانى كاثوليكى من البيرو أو من الصين أحد قاطنى مدينة الفاتيكان. وهكذا فإن أحد هذين الطرفين المرتبطين بـ "المسألة الفلسطينية" هو المجتمع اليهودى عبر أنحاء العالم.

والطرف الآخر المَعنِى بـ "المسألة الفلسطينية" لا يقتصر هو الآخر على الفلسطينيين. ففى فلسطين، لا يواجه يهود العالم ببساطة سكان فلسطين العرب البالغ عددهم ٧٧٥ ألفا (أي نحو خمسة أضعاف اليهود) فقط؛ فحدود فلسطين المعروفة لا تعنى شيئا للعرب، الذين ينظرون إلى هذه الحدود، التى رسمتها بريطانيا وفرنسا في الأقاليم العثمانية السابقة، تماماً مثلما ينظر البولنديون إلى الحدود التى رسمتها روسيا وبروسيا والنمسا عام ١٧٩٥ أو ١٨١٥ في المقاطعات البولندية، فقد اعتبرها البولنديون تقسيما لبولندا. وبذات الطريقة، اعتبر العرب الحدود تقسيما لبلادهم. لقد فُرض عليهم هذا التقسيم ضد إرادتهم، وقد أبوا بشدة الاعتراف بعدالته، واعتبروا أنه مناهض لصالحهم العام. وهذا يعني أن حدود فلسطين هي حدود الأرض العربية حتى أطرافها.

ويشير توينبي إلى أن الجزء الأكبر من الأرض العربية فى آسيا كان موحداً تحت سيادة الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى. وبعدها تم تفتيت الأقاليم العثمانية السابقة إلى مجموعة من الدول المنفصلة، فأصبحت هذه الوحدة شيئاً من الماضى. ومع ذلك فالإحساس بشكل جديد لها يزداد بين عرب آسيا من خلال وسائل الاتصال الحديثة، فقد تولد لديهم إحساس حقيقى وحي بالقومية العربية المشتركة. و"أستطيع أن أتبين هذا الشعور من مصدره الأصلى بوضوح، إذ يشعر عرب حلب ودمشق وبغداد بأن قضية عرب فلسطين هى قضيتهم أيضاً".

ويؤكد توينبي هذا الاتجاه بطريقة أخرى حين يقول: "من اللافت للانتباه أن الصحف العربية التى تحظى بالمكانة فى آسيا العربية، لا يتم طباعتها فى حيفا أو بغداد أو حتى فى بيروت أو دمشق، بل يتم طباعتها فى القاهرة. فقد أصبح لدى المصريين وعي وطني محلي خاص بهم، وعلى حد علمى، لا توجد حركة حاليا لتحقيق الوحدة السياسية بين مصر وأية دولة عربية فى آسيا. لكن هناك رابطاً ثقافياُ متمثلا فى اللغة المشتركة والأدب المشترك. هناك عالم كبير يتحدث بلسان عربى، مصر هى مركزه الثقافى. إذ تلقى الكتب والصحف المصرية رواجاَ أينما قُرأت العربية، ويزداد تداولها بتحسين وسائل الاتصالات. فالصحف العربية المطبوعة فى مصر الآن يمكن أن تنقل إلى حيفا بواسطة خطوط السكة الحديد التى شيدها المهندسون البريطانيون عبر صحراء سيناء خلال الحرب، ومن حيفا إلى بغداد عبر الصحراء السورية عن طريق السيارات. وبالطبع يقوي ذلك التواصل الفكري حركة القومية العربية. فقد أصبح العربي على وعى بجيرانه؛ وأفاق على إحساس بالتضامن معهم. ويتجاوز ذلك إلى التضامن بين المسلمين كافة، حتى إنه لينمو بين شعوب الشرق التي انشغلت بإشكالية تصفية الحسابات مع الغرب؛ ففى الصين . على سبيل المثال . حيث كنت مسافراً العام الماضى، أثار دهشتى وتأثرى فضول الصينيين الاشتراكيين لسماع ما كان يحدث خلال السنوات العشر المُنصرمة فى تركيا".

هكذا برهن توينبي على وجهة نظره بأن كلا القوتين المتصارعتين فى فلسطين هما قوتان عالميتان.

وعلى ضوء التحليل السابق يوصي توينبي بلاده أن تأخذ بهذه الرؤية بقوله: أعتقد أن هذا هو جوهر الإشكالية التى يجب أن نتعامل معها فى فلسطين. وهذا يعنى أنه ليس بمقدور أي من القوتين أبداً الوصول إلى تسوية دائمة "للمسألة الفلسطينية" عن طريق العنف. فقد يتمكن أحد الطرفين بصورة مؤقتة من إزاحة خصمه بعيداً عن الميدان، لكن لن يكون بمقدوره أبداً دحره إلى الأبد. ذلك أن أي تسوية تفُرض بالقوة لن تكون هى التسوية الأخيرة.

ويخلص توينبي بإدراكه التاريخي ورؤيته المستقبلية إلى النتيجة التالية: "طالما أن أياً من القوتين المتناحرتين فى فلسطين ليست قوة محلية خالصة بسبب مدينة القدس تحديدا، فلن تستطيع أية قوة تسوية المسألة الفلسطينية وحدها بصورة دائمة. ولو فرضنا أن العرب تمكنوا من التخلص من كل يهودى يسكن فلسطين الآن (١٩٣٠): فإنه مازال عليهم التعامل مع المجتمع اليهودى فى مختلف أنحاء العالم، وأتنبأ يقيناً عاجلاً أو آجلاً

أن العرب سوف يجدون أنفسهم مجبورين على الاتفاق مع اليهود. ومن زاوية أخرى لو فرضنا أن اليهود استطاعوا شراء جميع الأراضى الصالحة للزراعة وجميع المنشآت فى فلسطين غرب نهر الأردن، ولن يسمحوا لغير اليهود بالعيش والعمل في أي من الممتلكات التى أقدموا على شرائها، عندئذ ستكون فلسطين اليهودية مجرد أرض ضئيلة منعزلة مُحاطة من جميع جهاتها بالدول العربية المعادية. وحتى وإن أصبحت فلسطين يهودية تماماً مثل ما أن "إنجلترا" إنجليزية، فإنني أتنبأ مجدداً، بل يقيناً بأنه، عاجلاً أم آجلاً، سيتوصل اليهود إلى اتفاق مع العرب. وإذا لم يفعلوا، فستختنق الحياة الاقتصادية فى فلسطين".

ويؤكد توينبي أن اليهود لن يتمكنوا من تطوير فلسطين اقتصادياً، إذا فُصل عنها الظهير العربي، كما أن العرب لن يتمكنوا من تطوير فلسطين اقتصادياً، إذا حُرموا من تدفق رأس المال اليهودى إليها. فالطرفان يستحوذ كل منهما على ميزة اقتصادية فاعلة لتطوير فلسطين؛ اليهود برأس المال، والعرب بالأرض، وليس بمقدور أي منهما أن يفعل شيئاً إذا مُنعت عنه ميزة الطرف الآخر. هكذا، وعلى المدى البعيد، فإن كلا الطرفين يمتلك المقومات التى من شأنها إعادة الطرف الآخر للتفاوض، فالتفاهم المباشر بين الفريقين، المعنيين بالدولة بصورة مباشرة، هو السبيل الوحيد للتسوية.

وتبقى نبوءة توينبي هي المخرج الوحيد لحل المشكلة الفلسطينية، وتبقى القدس جوهر القضية بعد تسعين عاما من الإعلان عن هذه النبوءة في عام ١٩٣٠.

القدس في المسكوكات عبر التاريخ

محمد حامد الزرد

باحث دكتوراه في الآثار والمسكوكات

مستشار علمي لدى متحف فلسطين للنقد سابقاً

عرفت فلسطين المسكوكات في القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً، مع الغزو الآشوري لها وجلب الآشوريين مسكوكاتهم معهم وتعامل بها أهل فلسطين.

ثم بدأ سك العملات محلياً في عدة مدن فلسطينية مثل غزة وعكا وغيرها، إلا أن اسم مدينة القدس بدأ يظهر على المسكوكات في القرن الثالث قبل الميلاد، حيث سُجّلت بضع قطع نادرة جداً لعملات بطلمية فضية ضرب القدس[١]، وهذا يدل على الأهمية الكبيرة للقدس حتى ما قبل النصرانية والإسلام، ربما كمركز اقتصادي أو سياسي، لأن منطقة فلسطين والشام كانت محل نزاع وصراع بين البطالمة والسلوقيين بعد الاسكندر الأكبر، وكان يُعد ضرب النقود في مكان علامة سيادة عليه.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً، سك سكان فلسطين عملات محلية تحت الاحتلال الأجنبي الروماني، كان أغلبها من البرونز وحمل بعضها اسم القدس.

هذه المرحلة تمثل محور الصراع الأثري التاريخي بين الصهاينة وبين أصحاب الأرض من المسلمين والعرب، حيث انتسب الصهاينة زوراً إلى هذه الحقبة وادعوا لهم دولة ووجود من خلال تزييف الحقائق على بعض هذه المسكوكات المكتوبة باللغة الآرامية والكنعانية القديمة، وخرجت الكثير من الدراسات والكتب الأجنبية ذات التوجه الصهيوني لتجيّر هذه المسكوكات في صالح ادعاءهم حقاً لهم في أرض فلسطين، وادعوا أن هذه المسكوكات مكتوب عليها كلمات مثل (صهيون، وإسرائيل، والقدس) وهذا إما ترجمة مكذوبة للنقوش، أو تزييف للنقش الأصلي كما هي عادتهم في تزوير وتهويد التاريخ والآثار، وقد قام الفريق العلمي لمتحف فلسطين الرسمي للنقد بدراسة مسكوكات هذه الحقبة، وخرج

---

[١] انظر صورة رقم ١

بأن هذه المسكوكات هي سَكّة محلية تعود لسكان فلسطين تحت الحكم الروماني.

إذن هي لا تثبت وجود أي كيان مستقل في فلسطين والقدس في ذلك الوقت كونها واقعه تحت الاحتلال الأجنبي، وهذا يدمر الرواية الصهيونية بوجود مملكة عظيمة لليهود في فلسطين ذلك الوقت.

ثم غيّر الامبراطور الروماني هادريان عام ١٣٥م اسم المدينة إلى (إيليا كابيتولينا) (Aelia Capitolina) أو اختصاراً (إيليا)(Aelia) وهو اسم مشتق من اسم جد عائلة هادريان، بعد أن جاء تيتوس الروماني ودمرها تماماً، وتم بناء المدينة من جديد على أنقاض المدينة القديمة.

وفي الفترة ما بين ١٩٥ - ٢٥١م عهد سبتيميوس سيفيريوس (Septimius Severus) أخبرتنا المسكوكات أنه زاد في اسم المدينة الرسمي ليصبح (Colonia Aelia Capitolina Commodiana Pia Felix)، وطبعاً لأن هذا الاسم طويل جداً، كان يُكتب اختصاراً (COLACCPF).

أما البيزنطيون فلم يسكوا العملات في القدس إلا في أواخر أيام حكمهم لها بعد أن لاح الفتح الإسلامي لها في الأفق وأيقن البيزنطيون خسارتهم، فضربوا نقد برونزي يحمل نقش (IEPOCO)[١] أو (XC NIKA)[٢] ربما لرفع الروح المعنوية لجنودهم في القدس بأن لهم السيادة عليها ولن يتخلوا عنها.

ومع الفتح الإسلامي للقدس وفلسطين، لم تكن الأمور مستقرة سياسياً فلم يصلنا أي نقد إسلامي من ضروب القدس حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، حيث كان أول من وضع اسم مدينة القدس على المسكوكات الإسلامية، وكان اسمها المعرّب (إيليا) أو (إيلياء) كما ورد في الحديث الشريف[٣]، فوضع اسمها على مسكوكات مرحلة الإصلاح النقدي على الفلوس الإسلامية على الطراز البيزنطي بلفظ (بإيليا فلسطين)[٤] وأضاف اسم فلسطين للتأكيد على انتماء هذه المدينة المقدسة لجند فلسطين، وبعد التعريب الكامل للمسكوكات ورد اسم (إيليا) على الفلوس الأموي العربية الخالصة[٥] تصريحاً، أو رمزاً بوضع نجمة خماسية ترمز للقدس[٦].

حيث كانت القدس قصبة فلسطين - عاصمتها - العسكرية والإدارية والاقتصادية ومركزاً دينياً زمن البيزنطيين والمسلمين، إلى أن اكتمل بناء مدينة الرملة سنة ١٠٠ه، لتنتقل العاصمة الإدارية والسياسية لها وتبقى

---

(١) انظر صورة رقم ٢

(٢) انظر صورة رقم ٣

(٣) صحيح مسلم، ج٢، ص١٠١٥، رقم ١٣٩٧

(٤) انظر صورة رقم ٤

(٥) انظر صورة رقم ٥

(٦) انظر صورة رقم ٦

القدس كقِبلة دينية عظيمة خالصة.

أما العصر العباسي فكان فيه أو ظهور لإسم (القدس) وليس (إيليا) على المسكوكات سنة ٢١٧ و٢١٩هـ، فقد ضرب العباسيون الفلوس بلفظ (بالقدس)[١]، الإسم العربي الإسلامي الذي ظلت المدينة تحمله إلى اليوم، ويدل على ما لهذه المدينة من قدسية وتعظيم لدى المسلمين.

وقد وثّقت المسكوكات مرحلة مهمة من تاريخ القدس زمن الحروب الصليبية، حيث سك الصليبيون نقود طوارئ من البيلون[٢]، فترة حصار السلطان الناصر صلاح الدين لمدينة القدس سنة ١١٨٧م، وكان الصليبيون في ضيق مادي شديد لدرجة أنهم أخذوا الفضة التي كانت تغطي القبر - في معتقداتهم - الذي في كنيسة القيامة وسكوا منه هذه النقود ذات الجودة المنخفضة ليكثر عدد المسكوك منها وتغطي النفقات، وعلى الرغم من ذلك لم يتم تداول هذه النقود إلا لمدة قصيرة جداً قبل استسلام جيش الاحتلال الصليبي للمسلمين في ذات العام، وقد صوروا على هذه النقود ما يسموه برج داود في قلعة القدس على وجه، وعلى الوجه الآخر القبر المقدس لديهم وفوقه ملاك يحرسه[٣].

وقد سك السلطان الأيوبي صلاح الدين سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، نقداً يخلد فيه انتصاره على الصليبيين وتطهيره لبيت المقدس، ذكر فيه لقب "سلطان الإسلام والمسلمين" في إشارة إلى أنه جاهد باسم المسلمين جميعاً لتحرير القدس.

---

(١) انظر صورة رقم ٧

(٢) سبيكة من الفضة بنسبة ضئيلة ومعادن أخرى.

(٣) انظر صورة رقم ٨



صورة رقم (١)



صورة رقم (٢)



صورة رقم (٣)



صورة رقم (٤)



صورة رقم (٥)



صورة رقم (٦)



صورة رقم (٧)



صورة رقم (٨)

الملك الآشوري سرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق.م)

فاتح السامرة * دراسة تاريخية تحليلية

أ.د. أبتهال عادل أبراهيم

قسم التاريخ /كلية الآداب/ جامعة كركوك

تنسيب الى جامعة نينوى

ملخص البحث:

من بين أهم منجزات الآشوريون في عصرهم الآمبراطوري تمكنهم من فتح مدينة السامرة على عهد الملك سرجون الثاني وجاءت جهوده نتيجة منطقية وحتمية لجهوده من سبقوه من ملوك العصر الآشوري الحديث بعد كثرة التمردات والمشاكل التي أحدثوها ضد السيادة الآشورية فما كان من الملوك الآشوريين الى توجيه الحملات العسكرية المتتالية والتي أتت بثمارها على عهده والذي تمكن من فتح مدينة السامرة و ترحيل سكانها وحل محلها سكان من مناطق مختلفة من أنحاء أمبراطوريته وتأسيسا على ما تقدم جاءت دراستنا في ثلاثة محاور يسبقهما مدخل تاريخي.

- المحور الأول: الأوضاع السياسية العامة ومصادر معلوماتنا عن مدينة السامرة.
- المحور الثاني: جغرافية مناطق ترحيل اليهود.
- المحور الثالث: النصوص التأريخية حول فتح مدينة السامرة.

مدخل تأريخي:

بنيت السامرة لتكون عاصمة الدويلة الشمالية واسمها أشتق من مادة شمر العبرية التي تدل على معنى الحراسة فيكون معناها الحارسة ولا عجب فهي في موقع حصين تقع على أعلى قمة جبل جرزيم إلى الشمال من أورشليم بنحو اربعين ميلا وقرب الممر الرئيسي الذي يصل شمال فلسطين بجنوبها على مسافة عشرة أميال غرب الممر الفاصل بين جبل جرزيم وجبل عيبال وتشرف على وادٍ عريض يتجه نحو البحر مما يوفر للمكان أتصالاً سهلاً مع الممالك الفينقية بينما يوفر مرج أبن عامر في الشمال الأتصال مع الممالك الآرامية[1] وكانت مزودة بتحصينات قوية

(١) فراس السواح: الحدث التوراتي والشرق الادنى القديم، ط٤، دمشق – ١٩٩٩. ص١٦٢؛ Kenyon, K. : =

كشفت عنها التنقيبات الأمريكية خلال ١٩٠٨-١٩١٠؛ ويذكر العهد القديم أن النبي يعقوب قد بنى معبد المكرس للرب في هذا المكان وسماه "بيت إيل "أي بيت الله وكانت تسمى قبل دخول اليهود اليها بأسم مدينة "شكيم "[١]؛ وبعد موت سليمان عليه السلام وأستقلال الأسباط العشرة عن أورشليم والهيكل أستقر يربعام أول حكام السامرة في شكيم وبعد عدة سنوات تركها الى مدينة فنوئيل ثم عاد الى مدينة ترصة التي بقيت عاصمة السلطة من زمري وتأسيسها الفعلي كان على يد الحاكم عمري"٨٨٧-٨٧٧ق. م" والذي حكم أثنا عشر عاماً القرن التاسع قبل الميلاد في نحو ٨٧٨ ق. م بعد أن تمكن من الأستيلاء على السلطة من زمري فيعتبر عمري المؤسس الثاني للدويلة الشمالية فهو الذي آمن لها الأستقرار والأزدهار وكرس أتصالها السياسي مع الممالك الآرامية والفينقية وبنى لها العاصمة جديدة من تل أشتراه من رجل يدعى "شامر" صاحب الجبل ب٢ طالنت من الفضة وبنى على الجبل ودعا أسم المدينة التي بناها ب(السامرة) "[٢]

أظهرت الأساليب الحديثة في التنقيبات العلمية أن المدينة قد تم بناءها في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد وهو تأريخ بناءها الفعلي من قبل عمري كما تم التعرف على العاصمة القديمة ترصة في "تل الفرح"على مسافة ستة أميال شمال شرقي شكيم "نابلس"وتبين أن المدينة قد هجرت في نفس الوقت تقريباً الذي بنيت فيه مدينة السامرة وأن العديد من أبنيتها التي كانت قيد الأنشاء قد أوقف العمل فيها وتركت على وضعيتها والذي يبدو من مجريات الأحداث أن عمري قد بدأ بتحضير ترصة لتكون عاصمته ثم تحول عنها الى موقع مدينة السامرة الذي يمنحها فرصة أوفر للأتصال مع بلاد فينقيا وبلاد الآراميين[٣]

آخاب يستكمل عملية بناء السامرة:

ومات عمري قبل ان يتم بناء المدينة فأكملها ابنه اخاب، ولم تكن العاصمة الجديدة "العاصمة الشمالية لدويلة أسرائيل"إلا تطور

=

Archaeology in the Holy Land, London – 1960, p. 340

(١) حسن ظاظا: الفكر الديني الاسرائيلي اطواره ومذاهبه، القاهرة – ١٩٧١، ص٢٠٥.

(٢) امل ١٦: ٢٤؛السواح: الحدث التوراتي المصدر السابق ،ص١٦٠؛ليو تاكسيل: التوراة كتاب مقدس ام جمع من الاساطير، ترجمة حسان ميخائيل اسحاق، ط١، بيروت – ١٩٩٤، ص ٤٠٩-٤١٠.

(٣) السواح: الحدث التوراتي المصدر السابق ،ص١٦١

Royal Cities Of The Old Testament ,London–1971,p. 71 Kenyon, K

للمدينة السابقة(ترصا) ويرد ذكرها في نصوص الملك الآشوري تيجلاتبليزر الثالث وبقيت عاصمة للدويلة الشمالية الى أن تمكن الملك سرجون الثاني موضوع الدراسة من فتحها[١]

أهمية مدينة فلسطين من الناحية الأستراتيجية:

تحتل فلسطين موقعا متفردا في بلاد الشام فضلا عن ثرواتها الطبيعية وزراعتها فهي حقلة وصل بين مناطق شرقي البحر المتوسط وبين مصر عبرصحراء سيناء كما أنها تعد من المنافذ الرئيسة لطرق التجارة العربية الجنوبية لذلك فقد كانت ذات أهمية كبيرة في سياسة الآشوريين وبخاصة في أثناء حكم الأسر اليهودية التي ناصبت الآشوريين العداء وكانت أوضاع المملكة الآشورية الداخلية وقوة حكامها وحزمهم أو تهاونهم وضعفهم مقياساً لحالة الأقاليم في أستقرارها أو أنشغالها بالفتن والأضطرابات[٢]

المحور الأول: الأوضاع السياسية العامة ومصادر معلوماتنا عن مدينة السامرة

يكتنف الغموض الظروف التي جاءت بسرجون الثاني العرش[٣] ، حيث لا يعرف علاقته بسلفه، وليس هناك خبرا قاطعا عن كيفية موت شيلمنصر الخامس وهل مات ميتة طبيعية ام اغتاله سرجون ليتولى الملك عوضا

(١) ينظر، ١ ملوك ١٦: ٣٤

Kenyon: Archaeology in the Holy, p. 341; Buccellati, G. , Cities and Nation of the Ancient Syria, Rome – 1967, p. 183.

(٢) قاسم محمد علي: سرجون الاشوري (٧٢١ – ٧٠٥ ق. م) سيرته ومنجزاته، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد – ١٩٨٣،ص٦٤.

(٣) لا يذكر أسم سرجون في العهد القديم الا مرة واحدة في سفر إشعيا ٢٠: ١ فعندما بدأت التنقيبات الأثرية والتي كشفت عنها النصوص المسمارية منذ عام ١٨٤٣ م أصبح معروفاً الآن أن هناك ثلاثة حكام تسمّوا بأسم سرجون أشتهر منهم أثنان شهرة كبيرة ينظر مجموعة باحثين: دائرة معارف كتابية ،ج٤،ص٣٦٨ولا يعرف معنى الأسم الحقيقي ولا يعرف أسم أبيه فهو يذكر أن الملوك كانوا أباه متغافلا ذكر نسبه فقد دون أسمه في معظم كتاباته دون أن يذكر أسم أبيه ينظر علي: المصدر السابق ،صص٥٩-٦٠؛الأمين ،محمود: "تعليقات تأريخية على حملة سرجون الثامنة "،مجلة سومر ،م٥،بغداد-١٩٤٩،ص٢١٦؛الا أن هذا الألتباس يزوال عندما تمكن الباحث أيكارت أنكر أن يعثر على كتابة مسمارية مزججة تحمل أسم سرجون الثاني والقابه وتبين أستنادا الى هذا النص أنه أبن تيجلاتبليزر الثالث وبذلك يكون أخاً للملك شلمنصر الخامس الذي حكم قبله , W. W. , "Mesopotamia", In: Encyclopedia Judaica, Jerusalem – 1971, Vol. 16,P105 AncientRecordsof Assyrian and Babylonia (ARAB) , Chicago – 1927,Vol. 2,P. 105.

عنه فاعتلى العرش عام ٧٢١ ق. م، وكان على رأس سلالة حكمت حتى نهاية كيان الاشوريين السياسي، ولشهرته سميت هذه السلالة من قبل الباحثين بالسلالة السرجونية، لانه كان المؤسس لها، انصرف لمدة عام بعد تتويجه بالقضاء على الفتن والاضطرابات الداخلية التي صاحبت توليه العرش بصورة غير شرعية[١] ، ولا يعرف ماهية تلك الفتن والأضطرابات منها داخلية فالملك سرجون يخبرنا بنفسه عن ذللك بالقول: "حررت أهل آشور من التجنيد القسري ومن جباة الضرائب "وهي العبار التي وردت في النص التأريخي بمصطلح "براءة أو ميثاق آشور "فأعفى بموجب ذلك الضرائب والألتزامات لجميع أنحاء البلاد ففرض يموجب ذلك أعباء ضخمة على خزينة الأمبراطورية[٢] ويبدو ان بعض اقاليم ومقاطعات المملكة الاشورية قد استغلت هذه الظروف واعلنت التمرد فقد واجه الملك العديد من المشكلات الناتجة عن تبدل وتغير السلالة الحاكمة وبعضها الآخر كانت ناتجة عن الحملات العسكرية للملك تيجلاتبليزر الثالث التي أضرت بالعيلاميين كما إن السيطرة على بلاد الشام والتحكم بمواردها الأقتصادية: "في بداية حكمي عندما جلست على العرش الملكي وعندما توجت بتاج الجلالة السامريين الذين أتفقوا مع باقي الملوك الأعداء رفضوا نيري ولم يبعثوا الأتاوة وبدأوا عداءهم بقوة " فضلا عن فرض الهيمنة على طرق المواصلات التجارية البرية والبحرية من مصر وأخيرا الأستيلاء على مملكة أورارتو كما كان لتمرد مردوخ بلادن الثاني في بلاد بابل بمساعدة ودعم من بلاد عيلام جعل كل هذه الدول تصطف أعداء للآشوريين فكان لازما على الملك سرجون الثاني مواجهة تلك المشاكل مجتمعة[٣].

تنحصر مصادر معلوماتنا عن اليهود في عهد سرجون الثاني في:

(١) عند توليه الحكم قام بعملية تصفية كبيرة لخصومه والمناوئيين له إذا أجلى أكثر من ستة آلآف آشوري وصفهم بالمجرمين الأشرار الى مدينة حماة السورية عن هذا الموضوع ينظر أيفا كانجيك كيرشباوم: تأريخ الآشوريين القديم،ترجمة فاروق أسماعيل،دار الزمان،ط١ ،دمشق-٢٠٠٨،ص٦٩.

(٢) باقر،طه: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ،ط٢،دار الوراق،بيروت-دون تاريخ،ج١،ص٥٦٣؛كان الملك شلمنصر الخامس سلف الملك سرجون الثاني قد قام بفرض أعمال السخرة على جميع أفراد المجتمع مما ولد استياء من قبل الناس نتيجة لهذا الأجراء.

(٣) علي: المصدر السابق، ص٦٣؛ هاري ساكز: قوة اشور (لندن - ١٩٨٤) ترجمة عامر سليمان، بغداد - ١٩٩٩، ص ١٣٥؛ جورج رو: العراق القديم،ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، بغداد - ١٩٨٤، ص٤١٥
Smith, S. , “The Supremacy of Assyria”, In: CAH, Vol. 3, p. 32-33 ARAB: Vol. 2. No. 132-135, p. 69-70 , Hallop. 1503

أولا العهد القديم: الذي أحيا ذكر العديد من الأمكنة كما أحيا ذكر العديد من الشخصيات التاريخيةالمهمة ومن بينها شخصية الملك سرجون الثاني "فاتح مدينة السامرة ففي سفر إشعيا(٢٠: ١) يذكر أسم الملك سرجون الذي وجه قائد جيشه الى أشدود لمحاربته ؛ وفيما ما عدا ذلك نجد معلومات محرري العهد القديم بخصوص المملكة الآشورية ودورها في أحداث النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد قد بقيت غامضة ومشوشة حتى في المراحل النهائية من حياةالدويلة الشمالية فالملك سرجون الثاني قد بقي مجهولا لديهم تماماً ومحررسفر الملوك الثاني لم يخصه بخبر واحد رغم حملاته الشهيرة التي تمكن من خلالها تغير الخارطة السياسية والسكانية لبلاد البلاد الشام [٢]

ثانيا النصوص التأريخية:

النصوص المسمارية والمدونات التي كانت تزين جدران قصره في دور – شروكين = حصن سرجون [٣] والتي تكرر فيها فتح مدينة السامرة في عدة نصوص فعندما بدأ القنصل الفرنسي إميل بوتا Botta .M عام ١٨٤٣م بالحفر في تل خرسباد بالقرب من الموصل بناء على نصيحة عالم الماني كانت تلك التنقيبات أفتتاحا للأكتشافات الأثرية في بلاد الرافدين حيث تم العثور على قصر الملك سرجون الثاني وهو يحتوي على أكثر من مائتي غفرة وثلاثين فناء وكانت الجدران الداخلية ذات نقوش جميلة ورائعة وكان ذلك في عامي ١٨٤٢-١٨٤٣ وقد نقلت الى باريس وتعد من أهم معروضات متحف اللوفر في فرنسا [٤] كما تمكن بوتا من العثور على مسلة تعود

---

(١) فريد ريك ديليتش: بابل والكتاب المقدس ،ترجمة يرينا داود ،العربي للطباعة والنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،دمشق-١٩٨٧،ص١٣

(٢) فراس السواح: ارام، دمشق، اسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، ط٥، دمشق – ١٩٩٩،ص٢٤٩--٢٥٠.

(٣) خرسباد حاليا تقع على بعد اثني عشر ميلا شمال غربي نينوى على الضفة الغربية لنهر دجلة فهناك نص تاريخي يشير فيه بالتالي: "وأجعل عاصمتي الجديدة "خرسباد"ملأى بالسكان الذين آتي بهم من جميع أقاصي الأرض وأعمل على تدريسهم على أيدي معلمين مهرة بحيث يستطيعون جميعهم أن يتكلموا بلغة واحدة "ينظر على: المصدر السابق ،ص١٥٢؛حسين أحمد سلمان: كتابة التاريخ في وادي الرافدين في ضؤ النصوص المسمارية ،أطروحة دكتوراه غير منشورة 'كلية الآداب' جامعة بغداد- ١٩٩٦،ص١٥٥.

ARAB: Vol. 2,p. 119,Olmstead,A. T. ,History of Assyria,London-1960,p. 269

ينظر جودت السعد: اوهام التاريخ اليهودي، ط١، عمان ١٩٩٨، ص١٠٩.

(٤) السعد: المصدر السابق، ص١٠٠-١٠١.

للملك سرجون الثاني ضمن أطلال مدينة سمأل "زنجرلي"عاصمة الآراميين في الشمال الغربي من سوريا دونت عليها باللغة الأكدية بلهجتها الآشورية وبالخط المسماري تفاصيل الحملة العسكرية على مدينة السامرة والتي أنتهت بالقضاء عليهاوحمل اليهود أسر الى بلاد آشور[1].

وأستكمل فيكتور بلس التنقيب في قصر سرجون وأخذ بعض اللوحات التي عليها نقوش بارزة زنقلها بحراً عن طريق نهر دجلة الى البصرة ومنها الى اللوفر وبعد أعمال بوتا بسنتين قام لايارد بالتنقيب في كلْخ وهناك أكتشف القصور الملكية للعديد من الملوك الأشوريين ومن بينها قصر لآخر لسرجون الثاني.[2] وتمثل أحدى النقوش المتميزة على الرخام الأبيض التي زينت بها جدران حجرات البلاط صورة الملك وهو يتحدث الى قائد جيشه ٣، كما ترك سرجون العديد من المسلات بعد الانتصارات التي حققها في معركة القرقر، فقد عثر بوتا في نفس العام أيضاً بين اطلال مدينة سمأل "سنجرلي "على مسلة لسرجون عليها كتابة تشيد بامجاد عهده وانتصاراته، كما عثر على مسلة اخرى نقشت عليها باللهجة الاشورية والخط المسماري تفاصيل الحملة الاشورية على السامرة والتي انتهت بالقضاء عليها[4].

حكام المدن في فلسطين كانت عندهم اذان صاغية واستعدادا التمرد كلما سنحت لهم الفرصة ففي بابل ثار عليه مردوك –ابلا-أدينا(مردوخ بلادن في العهد القديم أشعيا ا: ٤٣)[5] زعيم سلالة القطر البحري على سواحل الخليج العربي وتمكن من اغتصاب العرش البابلي بمساعدة مملكة عيلام. ورغم محاولات سرجون الثاني القضاء عليه في الفترة الاولى من اعتلاءه العرش، لكنه اضطر ان يوقف أي تحرك ضد مردوك-ابلا-ادينا لما يقرب من أثنتا عشر سنة بسبب انشغاله في الجبهة الغربية[6] بقي خلالها مردوخ بلدان ملكا على بلد بابل(٧٢٠-٧١٠ق. م) عانت خلالها البلاد من ضائقة مالية بسبب تحكم القبائل

(١) كيلاني، لمياء؛ اللالوسي، سالم: اوائل العرب، لندن – ١٩٩٩،ص٤٨.

(٢) رو: المصدر السابق، ص١٠١؛للأستزادة في المعلومات عن التنقيبات الفرنسية ينظر

Botta,P. E. , and Flandin,E. les Monuments De Ninive,Paris–1849–50 ,Place ,V. , Ninive et lAssyrie ,Paris–1867–70.

(٣) ديليتش: المصدر السابق، ص١٣.

(٤) السعد: المصدر السابق، ص١٠١؛ سوسة، احمد: العرب واليهود في التاريخ حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الاثارية، ط٢، دمشق – بدون تاريخ، ص٣٠٧-٣٠٨؛نفس المؤلف: ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ط١، بغداد – ١٩٧٨. ص٢٥-٢٦.

(٥) رو: المصدر السابق، ص٤١٦؛ ساكز: قوة اشور المصدر السابق، ص١٣٥-١٣٦.

(٦) علي: المصدر السابق، ص٦٧-٧٦.

الكلدية والعيلامية فيها وكان البابليون دائما يطلبــون المســاعدة مــن الملــك ســرجون الآشوري ا وبعد الهزيمة التي لحقت بالملك سرجون الآشوري في بلاد بابل على أيدي القوات المتحالفة بقيادة مروخ بلادن واحد الحكام العيلاميين الطامعين فكان ذلك حافزاً ودافعاً لثورة الأقاليم الغربية في بلاد الشام بقيادة السامرة وقد اعلنت بعض المدن السورية والفلسطينية التمرد ومنها مدينة السامرة، فقد كانت تابعة للبلاط الاشوري اثناء حكم تيجلاتبليزر الثالث، ولكنها استغلت اللاوضاع المضطربة خلال حكم شيلمنصر الخامس واعلنت تمردها على الحاكم الاشوري ورفضت دفع الجزية، ولكن تصرف شيلمنصر الخامس المتمثل بالتحرك صوب السامرة واخضع هوشع وارغمه على دفع الأتاوة، يعكس أهمية المنطقة وستراتيجيتها بالنسبة للاشوريين والمرجح بين الباحثين ان سرجون الثاني كان القائد العسكري الذي قاد حصار السامرة اما بحضور وقيادة شيلمنصر الخامس أو بغيابه[٢].

مـا فتئـوا السـامريين بتحـديهم للملـوك الآشوريين منذ عهد شليمنصر الخامس فترك الملك سرجون أمر إخضاع بابل وأسترجاعها مؤقتاً وسار متجهاً الى الغرب وعندما وجدت مصر تميل الى مساعدة الدويلات الغربية المنشقة فعزم الملك سرجون أول الأمر على تصفية الحساب مع فرعون مصر ثم عاد بعد ذلك ليثأر لنفسه من دويلة السامرة التي اخذت تنسق موقفها مع مصر، بعد ان شعرت بعجزها عن الوقوف وحدها امام الاشوريين وكان موقف السامرة ينال دعما واسنادا من المصريين ويبدو ان استعدادات السامرة كان افضل عسكريا، وبقيت السامرة محاصرة من قبل الجيش الاشوري[٣] ، وقد لعب احكام الحصار على المدينة دورا كبيرا في اخضاعها واستسلامها سنة ٧٢١ ق. م[٤] ، فتفشت

---

(١) مهران،محمد بيومي: تأريخ العراق القديم ،دار المعرفة الجامعية ،الأسكندرية -١٩٩٠،ص٣٩٠-٣٩١.

(٢)؛ ساكز، هاري: عظمة بابل، (لندن – ١٩٦٤) ترجمة عامر سليمان، موصل –١٩٧٩،ص١٤٣.

(٣) Mitchell, T. G. , The Bible in British Museum, London – 1990, p. 53.

(٤) محمد جابر عبد العال الحيني: في العقائد والأديان ،القاهرة -١٩٧١،ص: ٢١٣-٢١٤.

Albright, W. F. , “The Original Account of the Fall of Samarina In II Kings”, BASOR, No. 174, 1964, p. 66–67.

فهناك من يرى بان الحملة الاولى ضد السامرة حدثت سنة ٧٢٧ ق. م بينما حدثت الحملة الثانية عام ٧٢٥ق. م واستمرت إلى عام ٧٢١ ق. م لكن غالبية المؤرخين في الوقت الحاضر يأخذون برواية سرجون وان السامرة سقطت في السنة الاولى من حكمه عام ٧٢١ ق. م فمن المحتمل ان الحصار كان من قبل قادة الملك صحيح يذكر أنه أستولى على السامرة في بداية حكمه لكن الوضع في العاصمة الدينية اشور يتطلب تواجده فيها ينظر

=

المجاعة بين سكان المدينة ولم تصلهم الامدادات والمعونة التي وعدهم بها المصريون، وسقطت السامرة وانتهت من الوجود أما مصير سكانها فقسم رحل الى منطقة يهوذا والقسم الثاني بقي في مدينة السامرة ترتب عليه دفع الأتاوات ووضع عليهم حاكما آشوريا[١] أما القسم الثالث فقد تم ترحيل اعداد من السكان مدينة السامرة ويخبرنا العهدالقديم بأن الملك سرجون اسر ٢٧. ٢٩٠ شخصا.

نبوءة النبي عاموس بقضاء الآشوريين عليهم:

يعد النبي عاموس من أقدم أنبياء اليهود الذين وردت الينا أقوالهم مكتوبة وعاصر حاكم السامرة يربعام "٧٤٣-٧٨٣ق. م "وبعض الباحثين يؤرخون أقواله الى عام ٧٦٣ق. م وهناك من يرجعها الى عام ٧٥٠ق. م ويتبين من أقواله ترحاله الكثير ومعيشته خارج السامرة نقرأ في سفر النبي عاموس أنه بعد موت النبي موسى عليه السلام دعا قومه الى العودة الى جادة الصواب وعبادة يهوه الآله الذي دعا اليه موسى عليه السلام وأمر الناس بالتقوى في سلوكهم وتطبيق العدالة والتراحم فيما بينهم وأن ذلك لا يتحقق بتقديم القرابين والهدايا وحدها في أطار المقدس الديني والمعنى ضرورة العودة الى جوهر العقيدة السليمة الصادقة غير المحرفة. وأصدق ما ينقل لنا الفروقات الطبقية التي شاهده في المدينة فالسكان بينهم يعيشوا في القصور والجحور؛وهناك السعداء والبؤساء؛الأحرار والأرقاء فالفوارق الأجتماعية كانت السبب في قيامه بحركته الأصلاحية لأجل أعادة الشعب الى صوابه ومن ثم نراه يتجه الى يهوه يرجوا المغفرة لشعبه ويحذرهم من عاقبة ذلك التمرد والعصيان الذي سيؤدي بهم الى الهلاك وبالفعل لقد تحقق ما حذرهم به أذا قضى الآشوريين على دويلتهم الشمالية عام ٧٢١ق. م[٢].

=

Oppenheim, Leo, “Babylonian and Assyrian Historical Text”, In: Ancient Near Eastern Texts Relating with the Old Testament (ANET) , ed. Pritchard, J. B. , New Jersey – 1969, p. 284-285; Tadmor, H. , “The Campaign of Sargon II of Assur: A Chronological Study”, JCS, Vol. 12, No. 1, 1958, p. 33

(١) ،نجيب ميخائيل ابراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم ،ط،القاهرة -١٩٦٣، ج٦،ص٢٦٧؛ محمد أرشيد العقيلي: اليهود في شبه الجزيرة العربية ،ط،عمان - ١٩٨٠، ص٣٠.

(٢)) دولابورت، ل. : بلاد ما بين النهرين حضارة بابل واشور، ترجمة مارون الخوري، بيروت١٩٧١،ص٢٧٣.

المحور الثاني: جغرافية مناطق ترحيل اليهود

عمد الملك سرجون الآشوري على نهج الملك تيجلاتبليزر الثالث الى ترحيل وتهجير اليهود وأسكانهم في مناطق مختلفة تابعة للأمبراطورية الآشورية مستبدلا بهم أقواما آشوريين ليتح له دمج الشعوب وصهرها في بودقة سياسية؛أجتماعية واحدة فالإ أن تلك الشعوب المنقولة رفضت الإ أن تحيا حياتها الخاصة مما أضطر خلفاءه الذين تولوا الحكم من بعده الى الكفاح والنظال المستمر من أجل تلاحم تلك الشعوب وأندماجها ووحدة البلاد.

لقد سعى الآشوريين جاهدين الى أحكام سيطرتهم على المنطقة بأحداث تغيرات ديمغرافية جذرية في مناطق نفوذهم للحيلولة دون حدوث مشاكل مستقبلا فعمدوا الى سياسة التهجير شعوب بأكملها وزرعها في مواطن غريبة عنهم وحملوا أهل هذه الأماكن فمنحوهم مناطق المهجرين[1] فالذين سكنوا في موقع مدينة السامرة كانوا من الشعوب المرحلين الذين لم يسمح لهم بالتوطن في المكان المدمر بل تواجدوا في أسفل التل لأن الموقع بقيّ خالياً من من آثار الأستيطان البشري لمدة طويلة جداً[2] ولم تطبق سياسة التهجير على دويلة السامرة فحسب بل شملت سكاننا آخرين في دويلة حماة وكركميش[3] ولكن كان نصيب الآخرين محدود بالنسبة اللأ خرتين أما بالنسبة الى أسرائيل فكان على نطاق واسع.[4]

فالمرحلون تحت الحكم الآشوري كانوا يستقرون في الأماكن التي خصص لهم الآشوريون وعلى ما يبدو فأنهم قد أظهروا أندماجا حقيقا مع السكان طالما لم نسمع عنهم ويختلف وضع هؤلاء المرحلون عن وضعية اليهود المرحلون في مدينة بابل وهذا الأختلاف يرتبط في أن الآشوريون أختاروا عن قصد ترحيل اليهود الى بيئات مشابهة للبيئة التي جاؤا منها وقد أشارالرابشاقة الآشوري الى ذلك المبدأ في حديثةالذي ألّح على سكان أورشليم المحاصرين على التسليم قائلا بأنه سيأخذهم بعيدا الى بلاد شبيهة ببلادهم"سفر الملوك الثاني ٣٢: ١٨"[5]

هناك عشرة أسباط من أصل أثني عشرة سبط كانوا موالين لحكام السامرة كان مصيرهم الترحيل عام ٧٢١ق. م ومع ذلك فأن

---

(١) السواح: الحدث التوراتي المصدر السابق،ص١١١.

(٢) السواح: الحدث التوراتي المصدر السابق،ص١٦٤.

(٣) السواح: الحدث التوراتي المصدر السابق،ص١١١.

(٤) السواح: آرام دمشق أسرائيل المصدر السابق، ص٢٤٩.

(٥) ساكز: قوة آشور المصدر السابق ،ص٣٧٣.

العهد القديم بكل أسفاره لم يأتي على ذكرهم أثناء وجودهم في الترحيل[١]. حددالعهد القديم المناطق التي رحل اليها يهود السامرة على عهدي تيجلاتبليزر الثالث وسرجون الآشوري فمن خلال ذلك عرفنا اين رحل سرجون اليهود فان النصوص التاريخية التي تعود لحملته لا تشير إلى ذلك فقد تم توطينهم في المقاطعات الاشوريةبالشكل التالي:

مدينة حلح:

أسم مقاطعة آشورية قرب تل حلف في حوض الخابور شمال سوريا[٢].

النمرود "كلخُ"[٣] :

ويطلق على بقايا المدينة في الوقت الحاضر أسم النمرود ولم يكن هناك أي ملك يحمل هذا الأسم في تأريخ العراق القديم كما يظن خطأ أعتمادا على ما ورد في العهد القديم ولكن يبدو أن الأسم هو تصحيف لأسم ننورتا وهو أسم اله الحرب الذي كان

(١) ديلابورت: المصدر السابق ،ص٢٧٣.

(٢) السعد: المصدر السابق ،ص١٠١.

(٣) لا يعرف معنى الأسم القديم لمدينةالنمرود هو كلخ Kalhu باللغة الأكدية ويظن البعض أنها مشتقة من الكلمة السومرية بمعنى باب الله أو الباب المقدس وكانت إحدى المدن الأربع الآشورية الكبرى وقد وردت في العهد القديم بأسم كالح وأن الذي بناها آشور أو نمرود لتكون عاصمة له "تكوين ا: الدائرة معارف كتابية ،ج٦،ص٢٩٣.

يعبد في كلخُ حيث أن هناك عدد من الملوك الآشوريين يدخل في تركيبة أسمائهم أسم الآله ننورتا كتوكلتي -ننورتا [٤] وبعد سيطرته على دويلة السامرة جاء بالكثير من الغنائم الى كلخ فقد ترك قائمة بأسماء يهودية وآرامية مما يدعو الى الظن بأن الأسرى من الدويلة الشمالية نقلوا اليها. [٥]

خابور نهر كوزانا: واسكن المرحلين اليهود في مناطق الخابور"خابور نهر كوزانا" شمال بلاد الرافدين "كوزان في العهد القديم "والتي أصبحت فيما بعد عاصمة إمارة بيت بحياني الآرامية وتعرف بقايا ها أسم تل حلف[٦] وأما خابور فهو أسم أكدي وهو أحد روافد نهر الفرات الذي تتجمع فيه مياه عدة نهيرات صغيرة تنبع من جبال "كراج داغ"جبال باسيوس ثم يجري الى الجنوب الغربي حتى يصل بعد أتصاله بأهم فروعه في نهر الفرات عند قرقيسيا شمال مدينة ماري "البوكمال حاليا"وعلى شواطىء هذا النهر أسكن شلمنصر الخامس اليهود المرحلين من مدينة السامرة[٧] ويجب عدم الخلط بين هذا النهر ونهر الخابور أو قناة الخابور في منطقة بابل

(٤) ساكز: قوة آشورالمصدر السابق ،ص١٨.

(٥) دائرة معارف كتابية ج٦،ص٢٩٥.

(٦) ساكز: عظمة بابل المصدر السابق ،ص١٠٩؛السعد: المصدر السابق ،ص١٠١.

(٧) ٢مل ٦: ١١:١٧؛ ١٨؛أأخ٢٦: ٥.

التــي عنــدها رأى حزقيــال النبــي رؤيــاه[١].
والأمــاكن الثلاثــة الأولــى تقــع فــي منطقــة حوض الخابور والبليخ عندما بعهما[٢]

مدن بلاد مادي:

وهي منطقة ميديا التي تقع الى الجنوب الشرقي من بحيرة أورميا "وان" وشمال غرب أيران أي مناطق الميديين "سفر الملوك الثاني ٢٤: ١٧" كانوا كما يبدو من مجريات الأحداث قدأنـدمجواتماماًمع السـكان طالمـا أننـا لـم نسـمع عـنهم.[٣] ويـرى الـبعض أن المـدن المادية التي رحل اليها اليهود وهي منطقة همدان وما جاورها من القرى بينما يرى البعض أنها منطقة نهاوند وما جاورهامن[٤]

وهارا "حران: وما جاورها من قرى فيما يرى البعض أنها نهاوند وما جاورها[٥].

وهنـاك أسـم مدينـة حسـب مـا تـذكره النصـوص المسـمارية "رسـالة"تعرف بأسـم Halahحلح قـد كتبهـا تـاب -سـيل-اشارا-Tab sil-eshara للملـك سـرجون قـد أسـكن فيهـا أعداداً من يهود السامرة الذين جاء بهم عند فتحه للمدينة ليكونوا ضمن الأسرى والعبيد الذين يعملون في مزرعة الآله نابو٦. ووضع عليهـا حاكمـا اشـوريا لادارة مدينـة السـامرة وفـرض الأتـاوة عليها بالقـدر الـذي كـان يؤخـذ منهـا سـابقا وأن بقايـا مدينـة السـامرة الـذين أسكنهم سرجون في بلاد آشور ينتشرون في بعض القرى في شمال العراق كقرية صندور العليا الواقعة شمال غـرب دهوك وفـي زاخو وعقرة[٧].

تعمير مدينة السامرة بعناصر جديدة:

ثـم أعـاد تعميـر المدينـة بعناصـر جديـدة جاءبهم من شمال سوريا وعـززهم بأقوام جاء بهم مـن بـلاد عيلام؛بابل؛حماة؛سـفروايم"هي مدينـة سـبار أبـو حبـة جنـوب بغـداد " ومـن القبائل العربية العرب[٨].

ترحيل القبائل العربية الى السامرة عام ٧١٥ق. م:

وفـي عـام ٧١٥ ق. م وهـو العـام السـابع مـن حكـم سـرجون الثـاني وجـه نشـاطه نحـو القبـائـل العربيـة القاطنـة فـي الباديـة ممـن

(١) دائرة معارف كتابية ،ج٣،ص٢٢٢؛السعد: المصدر السابق ،ص١٠١.

(٢) السعد: المصدر السابق ،ص١٠١.

(٣) ساكز: قوة آشور المصدر السابق ،ص٣٧٣؛دائرة معرف كتابية ،ج٤،ص٣٧٠؛ Ghirshman,R. , Iran .,Pelican Book,1954,p. 88

(٤)

(٥) السعد: المصدر السابق ،ص١٠١.

(٦) نبيل نور الدين حسين: "أثر الأعتقاد الديني على شخصية الملك شرو-كين الثاني" سرجون الآشوري" مجلة جامعة الأنبار للعلوم الأنسانية ،العدد٢،الرمادي-٢٠١٠،ص٢٤٥-٢٤٦؛ Olmsted,A. T,History of Assyria ,London-1952,p. 277

(٧)

(٨) ديلابورت: المصدر السابق ،ص٢٩٧.

رفضوا دفع الأتاوة له[١] وهم كل من:

قبائل ثمود:

وقد ذكر بعض هذه القبائل مثل ثمود Ta-mu-di وموطنها شمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية يعني أعالي بلاد الحجاز بالحجر ووادي القرى في المنطقة التي تخترقها الطرق التجارية المؤدية الى بلاد الرافدين والقريبة من مناطق التحضر في بلاد الشام وقد نسب اليهم خط عرف بالخط الثمودي وماتزال شواهده منتشرة في أعالي الحجاز الى أقاصي اليمن[٢] ثم هاجروا نحو الشمال في مراحل متباعدة[٣]؛وقد ورد ذكرهم في النصوص التأريخية الآشورية العائدة الى حكم الملك سرجون الآشوري فأقدم المصادر التأريخية التي ذكرتهم هي الكتابات التأريخية الآشورية وتحديدا على عهد الملك سرجون الآشوري ضمن مجموعة القبائل التي أخضعها لنفوذه وفرض عليها دفع الأتاوات والتي لم تعهد دفع الأتاوات لأحد قبله وكانوا من بين القبائل الذين رحلوا الى مدينة السامرة[٤] وثمود هم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم[٥].

وقبيلة عباديدي الأبادي Ibadidi الساكنة في البادية

مرسيماني Mar-si-mani

حيابة أو هيابا Hayabba: من بين القبائل العربية التي واجهت الآشوريين وخضعوا لهم

---

(١) ديلابورت: المصدر السابق ،ص٢٧٣.

(٢) محمد عبد القادر بافقيه: في العربية السعيدة ،صنعاء-١٩٨٧،ص٢٠؛أثبتت المسوحات الآثرية وجود العديد من النقوش الثمودية في نجران؛بئرحما؛وادي الدواسر وعلى أطراف الربع الخالي ثم العلا؛مدائن صالح؛الجوف؛حايل؛الجبه؛العقبة وباير الى جانب بعض النقوش المتفرقة والتي عثر عليها في الحرة الأردنية والسورية ويعود تأريخ أقدمها الى القرن الخامس قبل الميلاد الى القرن الخامس الميلادي وفي القرن الثالث الميلادي أنتشرت في معظم أنحاء شمال الجزيرة العربية ينظر: فواز الخريشة: نقوش صفوية من بيار العضمين نشرة معهد الآثار والأنثروبولوجيا ،العدد١٩؛عمان-١٩٩٦،ص٤١.

(٣) لقد سكنوا اليمن أول أمرهم في جنوب الجزيرة العربية وطردوا منهامن قبل الحميريون فهجروها بأتجاه الشمال الى بلاد الحجاز وأنتشروا الى شمال شبه الجزيرة العربية وكانت معظم سواحل البحر الأحمر =

= تحت سيطرتهم ولقد تحكموا بالطرق التجارية القادمة من الجنوب الى الشمال وقد قرنوا في القرآن الكريم مع قوم نوح؛عاد ولوط وهي الأقوام التي كانت ذات شهرة في تلك المرحلة "سورة أبراهيم ١٤:٤٠؛الحج ٢٢والعنكبوت ٢٩" عن هذا الموضوع ينظر: الروسان، محمود محمد: نقوش ثمودية جديدة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة اليرموك، الاردن- ١٩٩٤؛نفس المؤلف: القبائل الثمودية والصفوية دراسة مقارنة ،جامعة الملك سعود ،الطبعة الثانية ،الرياض-١٩٩٢،ص٦-٧.

(٤) كيلاني، لمياء؛ اللوسي، سالم: اوائل العرب، لندن - ١٩٩٩،ص٧٢.

(٥) ابراهيم: ٤٠، الحج: ٢٢، العنكبوت: ٢٩.

وأضطروا الى دفع الأتاوات الى الملك سرجون الاشوري وكان من ضمن المجاميع السكانية الذين رحلهم الأخير الى مدينة السامرة[١].

كما ان شمسي Sa-am-si ملكة العرب في البادية قد قدمت له لأتاوة[٢] والذين كانوا يعيشون بعيدا في الصحراء ولا يعترفون برؤساءولا موظفين أو مراقبين ولم يكونوا يدفعوا الأتاوة لأي ملك سبيت الأحياء منهم ونقلتهم الى السامرة الى حد تعبير النص المسماري الذي اشار إلى وقوع معركة بين سرجون الثاني والقبائل العربية المشار اليها آنفا، وتمكن سرجون الثاني من الحاق الهزيمة بتلك القبائل وترحليهم إلى مدينة السامرة في فلسطين[٣].

وكان لترحيل القبائل العربية الى السامرة سبب اخر غير السبب المتعلق بمحاولة تفريقهم للحيلولة من قيامهم باي نشاط عدائي ضد المملكة الاشورية، وهو محاولة سرجون الثاني تحويل تجارة البخور والتوابل٤ وغيرها من السلع التي كانت تنتجها أراضي جنوب شبه الجزيرة العربية أو تلك التي كانت تصل اليها من الهند وشرق إفريقيا نحو مدن فلسطين وسوريا بدل مرورها عبر الطريق الصحراوي، والصعوبات التي يلاقونها في السيطرة على القبائل العربية هناك.

وقد قام سرجون الثاني كذلك بترحيل قبائل اخرى واسكانها في مكان يقع بالقرب من العريش، وعين موظفاعربيا عليهم اسمه

(١) الكيلاني والآلوسي: المصدر السابق ،ص٧٤.

(٢) وللمزيد من التفاصيل عن تلك القبائل العربية الشمالية ينظر: موسل: ألويس: شمال الحجاز ،ترجمة عبد المحسن الحسيني ،الأسكندرية -١٩٥٢؛مهران: محمد بيومي: دراسات تأريخية من القرآن الكريم ،الرياض-١٩٨٠.

Epha'l, I. , The Ancient Arabs-Nomads on the Border of the Fertile Crescent AL 9th – 5th Centuries B. C, Jerusalem – 1984, p. 36.

(٣) المرحلين إلى السامرة عرفوا فيما بعد بالسامريين وهم خليط من البابليين والاشوريين وسواهم وبعض السكان من أهل السامرة وكونوا فيما بعد المعارضة ضد العائدين من بابل ينظر رافد كاظم كريدي الصالحي: حقيقة الوقائع التاريخية بين عرض التوراة =

= ومعالجة النصوص العراقية القديمة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة القادسية- ١٩٩٩، ص٥٧؛

Tadmor: "The Camaigns of Sargon II opcit", p. 39

(٤) أسامة محمود عبد المولى: تجارة البخور في جنوب شبه الجزيرة العربية الى الفترة من القرن العاشر حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد ص١٠٤-١٠٥. كانت الأسباب وراء ترحيل الملك الآشوري سرجون للقبائل العربية هي محاولته لتحويل تجارة البخور والتوابل نحو مدن فلسطين وسوريا بدلا من مرورها عبر الطريق الصحراوي والصعوبات التي يلاقونها في السيطرة على القبائل العربية هناك ينظر الكيلاني والألوسي: المصدرالسابق ،ص٣٠.

لبان La-ba-an، كما ورد في نصوص الملك سرجون الثاني أخبار عن تلقيه الأتاوات والهدايا من شمسي ملكة العرب كما تلقى من اتعمار "يثع آمر الحاكم السبيء عام ٧١٥ق. م وذكر من بين تلك الهدايا والأتاوات التي أخذها البخور والأعشاب العطرية والجمال هذه الاعمال والفعاليات التي قام بها الملك سرجون الثاني لم تكن سوى دلائل على عزمه على السيطرة على المنطقة بوسائل سلمية من اجل توطيد سياسته في التبادل التجاري.

"السنة السابعة: وبوحي من الاله اشور، فقد سحقت قبائل ثمود، عبايدي، مرسيماني وحيابه، العرب الذين يعيشون في بلاد نائية بعيدا في الصحراء،(و) الذين لا يعرفون غريبا ولا يعترفون باي ناظرا ومسؤول، انهم(لم) يقدموا الأتاوة حتى الان لاي ملك وقد اقدمت على ترحيل(بقاياهم) ممن نجا من الموت واسكنتهم في السامرة (KurSa-mir-i-na-a-a) ومن فرعون مصر وشمسي ملكة العرب ومن(اتامر) السبأي، من(هؤلاء) الملوك من الساحل والصحراء تسلمت الهدايا من تراب الذهب والاحجار الكريمة والعاج وبذور خشب الابنوس وانواع من العطور ومن الخيل(و) الجمال"[١].

(1) ANET: p. 256; ARAB: Vol. 2, No. 17-18, p. 78

=

يتضح من هذا النص قيام الملك سرجون الثاني في سنة حكمه السابعة بحملة عسكرية على البادية(الصحراء) ، وقد ورد في النص اسماء بعض القبائل العربية الساكنة هناك والتي يصعب على الجيوش دخولها والقتال فيها، والتي لم يسبق لها ان خضعت لاحد أو قدمت الجزية لملك قبل سرجون الثاني، ووفقا لما ورد في نص هذا الملك الذي على ما يبدو يفتخر بانه حقق اخضاع هذه القبائل ما لم يستطيع ملك اشوري قبله تحقيقه، واتبع سرجون سياسة الترحيل مع من نجا من هذه القبائل لاجبارهم على الخروج من مناطقهم المنيعة والمثيرة دائما للعصيان، واسكن عددا من افراد هذه القبائل في السامرة وقد مارسوا الزراعة والنشاط التجاري[٢].

سكان بابل

كما نقرأفي احداث عام ٧٠٩ق. م على عهد الملك سرجون الثاني والتمرد الذي حدث في المدن البابلية من قبل الآراميين بزعامة مردوخ -بلادن وكيف استعد لمواجهة الملك وتقوية عاصمته دور-ياكين وكيف استطاع

=

ترجمة لوكنبيل يذكر اسكنتهم في بيت عمري.

(٢) Ephal,I. , The Ancient Arabs Nomads On The Borders Of The Fertile Cresent 9th-5th Centuries B. C,Jerusalem-1982,P. 105

الاشـوريون مـن اجتيـاز كـل العقبـات وعبـور الخنـدق والوصـول الـى اسـوار المدينـة والـذي يهمنا مـن هـذا الموضـوع الاشـارة الـى أطلاق سراح السجناء المعتقلين في دور-ياكين وكيف تمت اعادة الآراضي المصادرة لهم وبعد ذلك قام بترحيل اعداد كبيرة من بيت -ياكين الى "مومَاكين "كـومخ" وأسـكن فـي مناطقهم جماعات من كومَاكين "[١]

ويشــير العهــد القــديم الــى أن الملــك الآشـوري سـرجون قـد جـاء بسـكان مـن بـلاد بابل"عوا"مدينة في بلاد بابل "[٢].

كوثا:

أحدى المدن المعروفـة فـي مدينـة بابـل قـديما وموقعهـا حاليـاً فـي تـل أبـراهيم علـى بعدنحو٢٤ كـم الـى الشـمال الشـرقي منهـا[٣] وكانـت أحـدى المـدن التـي جـاء منهـا سـرجون الثاني بـأقوام ليسـكنهم فـي مدينـة السـامرة عام ٧٠٩ق. م ويبدو أن أهل كوثا كانوا من أبرز الأقـوام التـي سـكنت السـامرة حتـى ظـل السامريون يدعون لفترة طويلة بأسم الكوثيين زمناً طويلاً[٤].

وحماة وسفروايم:

"بلـدتين علـى ضـفتي نهـر الفـرات" كـان معظـم السـكانيين فيهـا مـن القبائـل الآراميـة والآراميين هناك في عام ٧١٥ق. م[٥].

وسـفروايم: هـي سبار "أبـو حبـة حاليـاً"في اليوسفية جنوب بغداد علـى بعد ٤٥كـم الـى الجنـوب الغربـي مـن مدينـة بابـل وتمتـد بقاياه مـن الجنـوب الغربـي الـى الشـمال الشـرقي مسـافة ١٢٠٠م لقـد وردت أشـارات غيـر واضـحة تماماًعن موقـع المدينـة فـي كتابـات المـؤرخ اليونـاني هيرودتس كما ورد ذكرها بشكل غير صريح في نصوص العهد القديم.[٦].

ومن سوسة عاصمة مملكة عيلام " الجزء

---

(١) ماجد عبد الله الشمس: "من تاريخ الفترة الآشورية في القسم الجنوبي من العراق "،مجلة سومر ،بغداد- ١٩٧٣م،م٢٩،ج١-٢،ص٢٩٣-٢٩٤؛ ARAB: Vol. 2,p. 14-15.

(٢) الكيلاني والآلوسي: المصدر السابق، ص٣٠، ٥١.

(٣) وقد أستكشفها هرمز رسام عام ١٨٨١- ١٨٨٢ الذى أجـرى فيهـا تنقيبـات أستشـكافية بسـيطة غيـر علميـة وقـد وجـد فيهـا أقـداح مكتوبـة بالآراميـة و نصوصـا مسمارية مدون عليها أسم جودا أو كوثا وفـي عـام ١٩٤٠ تـم التحـري والتنقيـب فيهـا فوجـد أن أسـوارها وزقورتهـا كانـت مدفونـة تحـت منـازل تعـود للعصـور الفرثية وأبنية إسلامية تعود الى أدوار متعاقبة.

(٤) ديلابـورت: المصـدر السـابق،ص٣٠٩؛بـاقر: مقدمـة المصدر السابق ،ج٢،ص٢٩٣؛سامي سعيدالأحمد: تاريخ فلسطين القديم، بغداد – ١٩٧٩ ، ص٢٢٤؛ Mitchell: opcit, p. 53

(٥) ديلابورت: المصدر السابق ،ص٣٠٩.

(٦) بـدأت أعمـال الحفـر غيـر المنظـم مـن قبـل هرمـز رسـام فـي المـدة المحصـورة بـين ١٨٨١-١٨٨٢كمـا قـام الراهـب الفرنسـي فانسـان شـايل بـالحفر فـي الفتـرة الزمنيـة المحصـورة بـين ١٨٩٢-١٨٩٣ وتـم الكشـف عـن الكثير من معالمها.

الجنوبي الغربي من أيران[1]

ميديا:

والتي ظلت مسرحا لعمليات الملك سرجون الآشوري العسكرية فقد أستطاع الملك سرجون أخماد ثورة قام بها المانيون تحت قيادة زعيم أيراني بتحريض من روسسا ملك الأرمن كما هاجم مناطق التي أستوطنت بها القبائل الفارسية وأجبر الزعماء الميديين على الأعتراف بسيطرته وما أن سمع سرجون بتحالف داياكو الميدي مع ملك أورارتو وقيامه بأرسال والده الى بلاط الأخير كرهينة حتى هاجم داياكو وأخذه أسيرا ورحله الى مدينة حماة وكان ذلك عام ٧١٥ق. م[2].

ترحيل المعارضين له من بلاد آشور:

جدير بالذكر أن عند توليه الحكم قام بعملية تصفية كبيرة لخصومه والمناوئيين له مايؤكد ذلك نص يعود للملك سرجون فبعد تحقيقه النصر على مدينة حماة رحل أعداد كبيرة من الأسرى ووطن بدلهم آشورين في المدينة[3] إذا أجلى أكثر من ستة آلآف آشوري ٦٣٠٠ وصفهم بالمجرمين الأشرار الى مدينة حماة السورية وأقام عليهم حاكما آشوريا[4] ومن هذه المجاميع الجديدة التي عاشت في مدينة السامرة ظهرت الى الوجود جماعة السامريين فكانت تلك المرحلة خاتمة لدويلة السامرةالشمالية ولم تقم لهم قائمة بعد أن رحل أهلوها في مختلف أنحاء الأرض وأندمجوا في بودقة الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها[5].

وربما أراد الآشوريون من وراء ذلك الى كسرالتحالفات القديمة بأدخال عناصر أجنبية "غريبة"عن المنطقة من أجل كسر الروابط الأجتماعية؛السياسية والدينية لتحقيق نتائج أكثر فاعلية من الأجراءات العسكرية وليس هناك شك أن الحملات العسكرية الآشورية قد عجلت بنهاية الدويلات المتمردة والتي شكلت دويلات حاجزة في الصراع مع دويلتي السامرة وارشليم وعجل سقوط وفتح السامرة للمواجهة العسكرية مع الدويلة الجنوبية.

---

(١) ملوك ثاني١٧/١٤؛عزرا٢٤/٩ديلابورت: المصدر السابق ،ص٢٩٧

(٢) باقر: مقدمة ،ج٢،ص٣٩١-٣٩٢.

(٣) ARAB: VOL.. 2,P. 183

(٤) عن هذا الموضوع ينظر كيرشباوم: المصدر السابق ، ص٦٩.

(٥) أبراهيم ،: المصدر السابق،ج٦،ص٢٦٨.

المحور الثالث: النصوص التأريخية حول فتح مدينة السامرة

فقد ورد في كتابات سرجون الثاني أخبار السنة الأولى والتي تتضمن حصار السامرة فأخذ الى الأسر والعبودية سبعاً وعشرين ومائتين وتسعين نفساً من خيرة أبناء السامرة ووطنوا كما يخبرنا سفر الملوك في المقاطعات الآشورية جوزان وفي بلاد ماذي البعيدة ووطن مكانهم في السامرة أناساً من بابل وكوثي ومن عّوا وحماة وسيفاريم كما قام بترحيل قسم من القبائل العربية الساكنة في مناطق البادية في حملته عام ٧١٥قبل الميلاد وهو العام السابع من حكمه وأسكنهم في السامرة ومنهم قبائل ثمودي والهيابا والعباديدي ومرسيماني وتكون من هذا الخليط من الأسرى السوريين والبابليين الشعب السامري. امع العلم أن هذه السياسة لم تكن جديدة حيث كانت متبعة من قبل الآشوريين لتسهيل سيطرتهم على الأقاليم البعيدة والأقاليم التي تثير أضطرابات ومشاكل للآشوريين. ٢"ملك العالم، ملك اشور، ملك سومر واكد الملك سرجون الملك العظيم، الملك القوي، فاتح السامرة (Sa-mir-i-na-a-a) وكل البلاد بيت عمري (Bit-Hu-um-ri-a) والذي ضرب اشدود (و) شينوختي والذي امسك الاغريق الذين (يسكنون الجزر) في البحر، مثل السمك، والذي قضى على كسكو وجميع بلاد تبال وكيليكيا وخيلاكو، والذي طارد ميداس ملك مشكو، الذي قهر مصر في رفح، الذي اخذ هنانو ملك غزة اسيرا، الذي اخضع الملوك السبعة في بلاد يدنانا في البحر على مسافة مسيرة سبعة ايام"[٣].

حيث جاء في أحد النصوص الحولية:

"في بد [اية حكمي الملكي أنا ...... بلد السامـــــــــ]ريين (KurSa-mir-i-na-a-a) [حاصرتها، وفتحتها](٢ سطر محطمة) [لاجل اللاه ...... الذي جعـ] لني أحرز(هذا) الانتصار ...... وقد سقت كسجناء [٢٧. ٢٩٠ من سكانها(و) [جهزت] من بينهم [(جنودا ليقودوا)] ٥٠ عربة لاجل حرسي الملكي ...... [المدينة أنا] أعدت [بنائها] باحسن مما(كانت

---

(١) الكيلاني والآلوسي: المصدرالسابق،ص٣٠. وللمزيد من التفاصيل عن اليهود في الجزيرة العربية ينظر العقيلي: المصدر السابق ، ص٧٠.

(٣) جدير بالذكر ان سرجون قد كرر فتح السامرة في عدة نصوص ولعل ما يلفت النظر فعلا ان معلومات محرري التوراة بخصوص المملكة الاشورية ودورها في احداث النصف الأول من الالف الأول قبل الميلاد قد بقيت غامضة ومشوشة، فسرجون الثاني بقي مجهولا لديهم تماما ومحرر سفر الملوك الثاني لم يخصه بخبر واحد رغم حملاته الشهيرة، السواح: ارام، دمشق، اسرائيل المصدر السابق، ص ٢٤٥؛ ANET: p. 284.

عليه) من قبل و [أسكنت] فيها أناسا من بلاد ان التي [أنا] بنفسي [قد سيـ]طرت عليها. ونصبت عليها موظفا من موظفي كحاكم عليهم وفرضت عليهم ضرائب كما(هي العادة) كمواطنين أو رعايا آشوريين"

ورغم الخلاف بين المؤرخين حول تاريخ سقوط السامرة يمكن القول أن الملك سرجون قد أكمل مهمة أخيه الملك شلمنصر الخامس قبل أعتلائه العرش في السامرة وأجلاء بقية سكانها وتتوفر لدينا شواهد من العهد القديم على ذلك"وصعد ملك آشور على كل الأرض وصعد الى السامرة وحاصرها ثلاث سنين وأخذوها(أي أخذوا مدينة السامرة) "[١]. وربما تشير صيغة الجمع هنا الى أشتراك كل من الملك شلمناصر الخامس وأخيه سرجون الثاني في نهاية حصارهم للمدينة كما أن رواية العهد القديم من وجهة أخرى قد تشير الى الجيش الآشوري بصيغة الجمع[٢] وتتفق نتائج التنقيبات الآثرية مع رواية العهد القديم أذا تم العثور على طبقة سميكة من الأنقاض وآثار الحرائق بادية عليها تعود الى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد والتي حجبت مدينة آخاب التي لم يتبقى منها جدار واحد فوق الأرض[٣].

ويمكن التأكيد هنا أيضاً استنادا إلى ما ورد في النصوص البابلية ان شيلمنصر هو الذي فتح السامرة وان التغير الذي حدث في السلطة الاشورية وصعود سرجون ملكا عليها من المحتمل عدم معرفة الجيش الاشوري الذي دمر المدينة بعد طول حصار وحتى ان سكان السامرة المحاصرين كانوا لا يعرفون أي تغير في نظام الحكم والعهد القديم لا يشير بصراحة من اسقاط السامرة. على اية حالة ادعى سرجون في نصوصه انه فتح السامرة واخذ ٢٧٢٩٠ اسيرمن نبائهم وأغنيائهم والف وحدة عسكرية من ٥٠ من راكبي العربات وضمها إلى قوات حرسه الملكي، وسمح لبقية الناس العمل والعيش بحرية واعاد بناء المدينة باحسن ما كانت عليه سابقا وتمكن من تحويل السامرة إلى اقليم اشوري ورحل سكانها وحل محلهم سكان من المناطق التي سيطر عليها ونصب حاكما اشوريا لادارتها وفرض الأتاوة عليها.

---

(١) مل٢: ١٠: ١٨.

(٢) مجموعة باحثين: دائرة معارف كتابية،ج٤،ص٣٧٠.

(٣) عثر على نص حولي في الغرفة XIV من قصر سرجون نشرها Winckler ثم ترجمها وهمش عليها في

Weissbach, F. H. , ZDMG, LXXII, No. 79-80, p. 176ff.

ثم ظهرت لها ترجمة في

ARAB: Vol. 2, No. 99, P. 51; ANET: p. 284-285.

تجددت الاحلاف مرة أخرى ضد الآشوريين عـام ٧٢٢ق. م وحمل ملك حماة معه في العصيان والتمرد ضد المملكة الاشورية كل من، ملك ارفاد، سيميرا، السامرة واخيرا دمشق ولا نعرف كيف شاركت دمشق في هذا الحلف بعد زوالها بوصفها مملكة مستقلة وضمها إلى المملكة الاشورية والاغلب انها قد ثارت على الحاكم المعين عليها من اشور ولجأت إلى ملك حماة الجديد، الذي وعدها بالحماية وتأمين الاستغلال. ومثلها في ذلك مدينة سيميرا التي كانت قد الحقت باشور قبل دمشق. اما هوشع ممثل السامرة فقد كان يتلقى تحريضا مستمرا من مصر على التمرد، ووعودا بالدعم العكسري والمادي، وقد وجد في دعوة حماة مناسبة لبدء عصيانه[١]. فاسرع سرجون الثاني وجهز حملة عسكرية وسلك طريق سلفه شيلمنصر الثالث عام ٨٥٣ ق. م ولاقى الثائرين في قرقر وكان ذلك في السنة الثانية من حكمه عام ٧٢٠ ق. م وما تعرض له هذا الحلف من هزيمة قاسية لعدم تكافؤ القدرات العسكرية[٢] واخذ ايلو-بعدي اسيرا. اما مدينة قرقر فقد احرقت حتى الأرض وهدمت تحصينات حماة وقد اجبرت المدينة لان تجهز قوة تتألف من ٢٠٠ سائق عربة و ٦٠٠ فارس واضيفوا إلى قوات سرجون الملكية. اما مدينة ارفاد وسيميرا والسامرة ودمشق فقد استسلمت جميعا بدون معارضة جدية وان السكان الذين شاركوا في التمرد قد دفعوا حياتهم ثمنا لذلك. وبعد هذا النصر زحف سرجون بجيشه لملاقاة جيش هنانو ملك غزة الذي كان جيشه قد تأخر لسبب ما عن الاشتراك في الموقعة التي هزم فيها ملك حماة ومن المحتمل ان هذا التأخير كان سببه انتظار مدد عسكري من مصر، وقد قاومت غزة ولم تستسلم وسببت اضطرابا كبيرا للاشوريين، ولقد ظهر الاشوريون عند اسوار غزة وان هنانو الذي لاقى نكسة في اشتباك اولي تراجع إلى رافيا(رفح) وان القائد المصري لم يصل في الوقت، فوقعت المعركة الحاسمة امام هذه المدينة، وكان الاشتباك حاميا وكان الاشوريون مستعدين تمام الاستعداد لها وبفضل قيادة سرجون البارعة ربحوا المعركة وهرب(سبأ) المصري "مثل الراعي الذي سرقت اغنامه"، والتجأ ايامانى

(١) السواح: آرام، دمشق، اسرائيل المصدر السابق، ص٢٤٨؛
Williams, S. , “Preliminary Report on the Excavation at Tell Rifa’at”, Iraq, Vol. 33, 1961, p. 74.

(٢) ديلابورت: المصدر السابق، ص٢٧٤؛ ساكز: عظمة بابل المصدر السابق، ص١٤٤؛
ANET: p. 285; ARAB: Vol. 2, p. 55.

إلى مصر لكن ما لبث ان جرى تسليمه من قبل الملك النوبي الذي اصبح سيدا على مصر فجلب إلى اشور مكبلا بالاغلال[١] وسقطت رافيا(رفح) بايدي سرجون واحرقت بالنار، وبذلك اقر الفرعون بالوضع الجديد وحاول اقامة علاقات سلمية وتجارية مع الاشوريين وقد اشار سرجون إلى ذلك "لقد فتحت ميناء مصر المسدود وجمعت(خلطت) الاشوريين والمصريين سوية وجعلتهم يتاجرون فيما بينهم "[٢].

إقامة مركز عسكري آشوري على الحدود المصرية:

اما المدن السورية والفلسطينية فلم تكن لتتأخر عن اية محاولة للحد من السيطرة والنفوذ الاشوري[٣]. فحاولت حماة ثانية اقامة حلف اخر مناوئ للاشوريين بالاتفاق مع ارفاد والسامرة KurSa-mir-i-na-a-a وكان ذلك في عام ٧١٦ ق. م وقد امكن القضاء على ذلك الحلف بسهولة ووضعت حماة تحت الحكم المباشر. ويلمح العهد القديم ايضا إلى عمليات اخرى قام بها سرجون في المنطقة الساحلية في جنوب فلسطين فأستطاع الوصول الى العريش وأقام للمرة الأولى مركزاًعسكرياً آشورياًمتقدماًعلى حدود مصر ولم يكن فرعون مصر بأمكانه مواجهة الملك سرجون بل أقرب الوضع الجديد وسعى الى أقامة علاقات رسمية تجارية مع الآشوريين[٤] ومما يؤكد ذلك أقامة الملك سرجون نقطة تجارية في منطقة العريش فنقرأ في النص المسماري: "وخلط الآشوريون والمصريون معا للتبادل التجاري "[٥]

ونتيجة للهزيمة التي الحقها سرجون الثاني بالسامرة اخذ يظهر مصطلح السامريين بوصفها تعبيرا سياسيا فقد أعاد الآشوريين ترتيب المدين على أنها من الأقاليم الآشورية تخضع للحكم الآشوري وتدفع الأتاوات المفروضة عليها وتم تعزيز الوحدات العسكرية والحامسات بأعداد كبيرة من الجنود الآشوريين ومن المرحلين والمستوطنيين وأخيرا فأن هؤلاء الجدد سرعان ما تزاوجوا مع السكان

---

(١) رو: المصدر السابق، ص٤١٧؛ Williams: opcit, p. 74-75.

(٢) علي: المصدر السابق، ص٧٩؛ Tadmor, H. , "The Compaians of Sargon II of Assur", JCS, Vol. 12 , No. 1, 1958, p. 34; Gadd, S. G. , "The Inscribed Prisms of Sargon II from Nimrud", Iraq, Vol. 16, 1954, p. 179

(٣) علي: المصدر السابق، ص٧٨.

(٥) Tadmor,H. , "The Compigns of SargonIIof Assur"JCS,vol. xI,No,3 1958,p. 78 وليد محمد صالح فرحان: العلاقات السياسية للدولة الاشورية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد – ١٩٧٦، ص٣٦.

الأصليين وظهر لنا جيل جديد عرفوا بالسامريين[١] والذين لا يعترفون بغير الأسفار الخمسة وهي بقايا الأسفار الصحيحة التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام وأختلطت عبادة هؤلاء الأقوام بعبادة اليهود ونجد أثر عبادة بعض الآلهة البابلية واضحة ولا سيما عبادة الآله نرجال اله مدينة كوثى وكان ذلك مما زاد من شقة الخلاف بين أهل السامرة ويهوذا بحيث حرم التزاوج ما بين الطرفين حتى أنه لما عاد عزرا ونحميا من الترحيل البابلي في حدود ٤٢٣ق. م بدأ بتطهير اليهود في أورشليم فطرد منها حفيد الكاهن الأعلى لزواجه بإبنة الحاكم السامري "نحميا ١٣: ٢٨"وظلت طائفة السامريين بهيئة مذهب متحجر الى الوقت الحاضر[٢]

فكانت هذه المرحلة خاتمة لنهاية دويلة الشمالية وعاصمتها أسرائيل وبهذا تمكن من القضاء على الأسباط العشرة الذين كانت تتكون منهم دويلة أسرائيل فأزيلت من الوجود ولم تقم لهم قائمة بعدها بل شرد أهلها وأنصهروا "أندمجوا"مع السكان الذين عاشوا بين ظهرانيهم[٣]. كما أختفى مسمى أسرائيل وبطل أستعماله وحل محله إسم السامرة للدلالة على المقاطعة التي قامت على أرض أسرائيل من العصر الآشوري والى العصر الروماني[٤] واما الاستخدام الوحيد لكلمة السامرة في العهد القديم للدلالة على اقليم السامرة، فقد ورد في(٢ مل ٢٤: ١٧ و ٢٩) وقد اطلق عليها سرجون اسم "سامرينا" في نصوصه التاريخية[٥]. وبقيت دويلة يهوذا الصغيرة تتأرجح بين رحمة مصر والمملكة الآشورية من الشرق فأذا أنحازت للأولى غضبت عليها الثانية وأذا أنضمت الى الثانية أغاضت الأولى[٦]

أنتهى عهد سرجون الثاني بأغتيله غيلة على أن الأمبراطورية كانت على عهده تنعم بأستقرا ر نسبي ورخاء أقتصادي نتيجة للجهود العسكرية الكبيرة التي بذلها بقضائه على الدويلات المناوئة للحكم الآشوري فقد أصبح سيد الموقف بعد الأنتصارات التي حققها ويأتي في مقدمة الأنجازات خضوع بلاد الشام بأكملها له وأزالته لدويلةالسامرة الشمالية "عاصمة أسرائيل" والتي أنعكست بشكل أيجابي على عهد خليفته الملك سنحاريب الذي سوف تتركز جهوده العسكرية على دويلة يهوذا الجنوبية "وعاصمتها.

---

(١) مهران: المصدر السابق،ص٣٩٧.

(٢) باقر: مقدمة المصدر السابق، ج٢، ص٢٩٣؛ الأحمد: تأريخ فلسطين المصدر السابق ،ص٢٢٤.

(٣) السعد: المصدر السابق،ص١٠٠.

(٤) السواح: آرام دمشق أسرائيل لمصدر السابق، ص٢٥٠.

(٥) دائرة معارف كتابية، ط١، القاهرة، ١٩٩١، ٣٢١/٤.

(٦) ديلابورت: المصدر السابق،ص٣٠٩.

تقديم كتاب: القدس في التاريخ

للمرحوم الأستاذ الدكتور سهيل زكار

د /مها البيطار

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

لا يخفى على أحد المواجهات العنيفة التي تشهدها القدس هذه الأيام، والتهديد الصارخ العنيف الذي يعانيه أهلنا بفلسطين عامة، وفي القدس خاصة، التهديد بالطرد وتهديم كل معالم المدينة بحجج واهية، تعتمد على ادعاءات كاذبة وملفقة بأحقية وقدم وجود اليهود في هذه الأرض الطيبة، وبما أن هذا العدد من المجلة الكريمة قد خصص لتاريخ القدس، فقد وجدت من الملائم والمفيد الحديث عن مؤلّف طبع حديثاً عن تاريخ القدس، بعنوان (القدس في التاريخ للمرحوم الأستاذ الدكتور سهيل زكار) جاء في عشرة أجزاء تعامل فيها المؤلف كما وضع مع تاريخ القدس في إطارها الفلسطيني - الشامي المحلي، والعربي - الإسلامي، بطرائق علمية موضوعية حيادية موثّقة، اعتمد فيها على المكتشفات الأثرية والمصادر المعتمدة علمياً. تخلى عن حكايات الإسرائيليات، وأعاد النظر بتفسير الآيات القرآنية الكريمة، إذ لا يجوز تفسير أقوال الله جلّت قدرته بأقوال الحاخامات، وهكذا كانت النتائج باهرة، تخرج للنور للمرة الأولى بأية لغة من اللغات.

صدر من هذه الأجزاء العشرة أول جزأين، خصا الحديث عن العصور القديمة، التي هي الفترة التي يدعي فيها اليهود اليوم بوجودهم في هذه المدينة ومعاناتهم التي تعرضوا لها بسبب السبي البابلي، وقد استطاعوا أن يضعوا ويزيفوا في هذه المراحل التاريخية القديمة الكثير من الأكاذيب والروايات الملفّقة التي نسبوها إلى التوراة، وأصبحت لاحقاً من المسلمات التي يرتكز عليها أي باحث تاريخي أو أثري.

جعل المؤلف آيات القرآن الكريم مرجعيته ومعيار صحة أية رواية قد ترد، فالقرآن الكريم هو الوثيقة الإلهية المعيارية الصحة، فالقرآن الكريم وحده الذي لم يتعرض نصه إلى أي

تحريف أو تغيير، ولاشك أنه لا يمكن مقارنة بين ما توهمته العقول المريضة للحاخامات، وبين قول الله عز وجل الذي أحاط علماً بكل شيء .

وفي مقدمة الكتاب يبدأ المؤلف الحديث عن القدس بأنّ ما من مدينة من مدن العالم تمتعت بالشهرة والاهتمام مثل القدس، واقتاد الاهتمام بها إلى الصراع حولها، لا سيما بين أتباع الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام، فقد بادرت اليهودية إلى نسج حكايات حولها أودعتها في أسفار العهد القديم، القانونية وغير القانونية وفي التلمود، وتبنّت المسيحية هذه الحكايات وأخذت بها، وفي الإسلام جاء في القرآن الكريم العديد من الإشارات إلى تاريخ بني إسرائيل وتاريخ اليهود القديم، لكن المفسرون والقصاصون غلّفوها بالمرويات التوراتية والتلمودية، وبعض أساطير الشرق الأوسط، فانحرفت معاني هذه الآيات عن مقاصدها الصحيحة، وباتت هذه المرويات تُعرف باسم الإسرائيليات، ولقد وصل تصديق الإسرائيليات عند جمهور المسلمين من علماء وسواهم إلى حدّ القداسة والإيمان المطلق، مما استدعى إعادة النظر، والعمل على إرجاع الأمور إلى نصابها. وهنا يشير المؤلف، بأن ليس هذا بالأمر السهل، وفيه تحديات خطيرة، ويضاف إلى هذا السيطرة الصهيونية في عصرنا على مؤسسات الاستشراق، والنشر، والإعلام، والفكر وممارستها وسائل طغيان متنوعة رهيبة، من الصعب تحديها أو حتى مجرد معارضتها.

يتألف الجزء الأول من مطلبين، **المطلب الأول** يتضمن ثماني مقالات، تضمنت المقالة الأولى مقدمة الكتاب التي تم الاستقاء منها ما تقدم، والمقالة الثانية فيها دراسة تحليلية لأهم المصادر وخصّ فيها المؤلف الحديث عن ضرورة العودة إلى المكتشفات الأثرية، وتتبع نتائج الحفريات بشكل متواصل، حفريات القدس نفسها مع جميع فلسطين والبلدان المحيطة، فلهذه المكتشفات مكانة عالية، لكن المعضلة تتعلق بالقراءة الصحيحة لكلّ نص مكتشف مع التفسير الصحيح، وبما أن هذا كله تقريباً يصنع بالغرب الأوروبي - في المقام الأول - فالتفاسير الأولى جاءت لصالح الإسرائيليات، والقضية صعبة ومعقدة في ظل غياب مؤسسات بحثية كافية مع اختصاصيين متفرغين باللغات القديمة من هيروغليفية، وهيروطيقية، وأكادية، وسومرية، وآرامية، وآشورية، وحيثية وإغريقية ولاتينية على مستوى الوطن العربي. ثم يعطي المؤلف مثالاً عن ذلك ما وجد في مصر، من آثار وهو كثير جداً، بالوقوف على الأهم وهو نصوص اللعن ، ونقش مرنبتاح، ورسائل تل العمارنة، وسيكون الاهتمام بالإشارة إلى القراءة غير الصحيحة مع محاولة التصحيح.

يبدأ المؤلف بعد ذلك **بالتفصيل والتعريف بالقــدس مــن خــلال الموقــع - الاســم - والــري فــي المقالــة الثالثــة** فيحــدد الموقــع بدقة وفق خطوط الطول والعرض، ثم يبين أهمية موقع المدينة، الذي جمع ما بين مزية الانغلاق وما يعطيه من حماية للمدينة، ومزية الانفتــاح ومــا يعطيــه مــن إمكانيــة الاتصــال بالمناطق المجاورة وصولاً حتى البحر، وكذلك بأقــاليم بــلاد الشــام وســواها، وترجــع هــذه الأهميــة أيضــاً إلــى مركزيــة موقــع القــدس بالنسبة إلى فلسطين والعالم الخارجي، ولاحقاً صار التأريخ للقدس هو تأريخ لفلسطين.

يتحـدث عـن نشـأة النـواة الأولـى لمدينـة القـدس حسـب المرويات، والحاجة إلى المياه، والأوديـة التـي أحاطـت بهـا، ومـن منـاخ هـذا الموقــع وكميــة الأمطــار الهاطلــة، والحاجــة المستمرة إلى تخزين مياه الأمطار فـي برك أو صـهاريج، مـع محـاولات لجـر الميـاه إليهـا مـن بعض المناطق القريبة، ومن برك التخزين المياه جاء اسم القدس.

يصل بعد ذلك إلى **الاسم**، فيورد ما ورد مـن أسـماء فـي العهـد القـديم، لكنـه يعتمـد تسمية القدس ثم إيلياء، و يمر على أورشليم، بـأن هـذه هـي الأسـماء التـي يمكـن تتبعهـا ومعرفـة أصلها. فالقاعـدة التـي اعتُمـدت فـي بـلاد الشـام حتـى قـدوم الإسـكندر المقـدوني في إطلاق الأسماء على الأماكن قـد ارتبطـت بطبيعـة المكـان جغرافيـاً أو طبيعيـاً، أو بوجـود مكان مقدس (بيت)، أو بمعركة من المعارك، ولم يستخدم الشاميون السابقة «أور» في أي مكـان مـن بلادهـم، واقتصـر اسـتخدام هـذه السابقة على بلاد الرافدين، ومن هذا المنطلق لربمـا أطلـق اسـم أورشـاليم علـى المدينـة المقدسة منذ العصر الآشوري، ثم ثبت وقتياً أيام الحكم الإخميني في المائة الخامسة قبل الميلاد، وذلك مع ظهور مقاطعة يهود واسم أورشـليم اسـم رافـدي بـابلي، ظـل رائجاً حتـى مطلع العصر العباسـي، حيث إنـه عندما بنـى أبـو جعفـر المنصـور كدينتـه المـدورة (بغـداد) أطلق عليها اسم دار السلام أي أورشليم.

والاسـم **القـدس** هـو الـذي يمكـن توثيقـه لغويـاً وجغرافيـاً تاريخيـاً، وهـذا الاسـم مـرتبط بالماء من حيث الجر، ومن حيث التخزين - يشير المؤلـف إلـى تعـدد اسـتخدام تسـمية ***قـدس*** بأشــكال مختلفــة بأمــاكن مختلفــة بالشــام وبلادالرافدين، واليمن والمغرب الأقصى، ، ثم يقتبس مـن لسـان العـرب لابـن منظـور تفسير الكلمـة.... «وعلـى هـذا القـدس بركـة المـاء، الماء الذي يستخدم للطهارة»، ولقد كانت أهم مـا اتسـمت بـه مدينـة القـدس القديمـة فـي العصـور القديمة والوسيطة البرك التي كانت تُجمـع فيهـا ميـاه الأمطـار، حتـى سـاد اعتقـاد لـدى المسـيحيين أن ميـاه بركـة الضـأن وكانـت من أكبر برك المدينة، كان ملاك يحرك مياهها،

وعند تحركها أول من يغطس بها يشفى من كل داء.

وعن سبب تأسيس المدينة يقول: إن تأسيس القدس كمدينة ارتبط بعوامل داخلية وخارجية كان منها:

- الصراع البابلي- المصري لا سيما على مناجم النحاس، الذي منه كانت تصنع الأسلحة البرونزية.
- وداخلية كتهديم بعض المدن،
- ثم اكتشاف نبع سلوان. وحملت عين سلوان عدة أسماء كان منها عين جيحون وعين العذراء، وعين أم الدرج، وكشف عن نقش داخل نفق هذه العين عام ١٨٨٠م، كان إسرائيل ولفنسون قد نشره في كتابه «تاريخ اللغات السامية» وذهب إلى أن النقش كتب بأحرف عبرية، وأنه يعود إلى الملك اليهودي حزقيال، أي إلى حوالي ٧٠٠ ق.م. لكن تحقق أنه لم يكن هناك ملكاً يهودياً اسمه حزقيال، لأن اصطلاح يهود ظهر للمرة الأولى في حوالي ٤٠٠ ق.م أيام الاحتلال الإخميني الفارسي، كما أنه لم تكن هناك لغة عبرية، بل كتب النقش بالحرف الكنعاني. هذا وقد ربط المسلمون بين مياه سلوان ومياه نبع زمزم. (وفي سلوان التي في قدسها طعم يوهم أنه من زمزم)

وذكر هيرودوت في تاريخه القدس تحت اسم كاديتيس ، وأوضح أنها كانت بلدة سورية كبيرة على مقربة من ماجدولوس أي مرج ابن عامر، أو بالحري تل المتسلم، وأنها مدينة فلسطينية، ذلك أن الجزء الجنوبي من سورية الممتد جنوباً إلى مصر كله يعرف باسم فلسطين". وكان هيرودوت نفسه حين تحدث عن التقسيمات الإدارية للإمبراطورية الإخمينية ذكر كميات الضرائب التي كانت تدفعها كل مقاطعة لهذا الإمبراطورية، وقد بيّن أن المنطقة العربية التي ضمت سورية الداخلية مع سيناء كانت معفاة من الجزية، وأن المنطقة الساحلية التي امتدت من السويدية حتى مصر، شكلت مقاطعة إدارية: ضمت كل فينيقية وذلك الجزء من سورية الذي يعرف باسم فلسطين وقبرص" ، وفي هذا ما يؤكد أنه في المائة الخامسة قبل الميلاد لم تكن مقاطعة اليهودية قد جاءت إلى الوجود بعد.

يبدأ المؤلف حديثه بعد ذلك في المقالات اللاحقة عن تاريخ القدس القديم، ومقارنة الروايات التوراتية بآيات القرآن الكريم، وتحليل الأحداث وخاصة المرتبطة بالأنبياء الذين ذكرتهم هذه المرويات التوراتية، كالنبي نوح و إبراهيم عليهما السلام، والنبي لوط، يوسف، موسى وهارون. فيوضح مدى التضليل والكذب الذي أُدخل على سيرة هؤلاء الأنبياء ومدى التلاعب بأسماء الأماكن والمناطق الحاصل، وكذلك عدم مراعاة الفوارق الزمنية

أيضاً، رغم وجود إشارات صريحة في القرآن الكريم تشير إلى حقائق مثبتة وموجودة علمياً تعطي دلالات واضحة على هذا الزيف والتضليل.

يبدأ المقالة الرابعة بالتعريف بالتوراة، وأسفاره القانونية وغير القانونية، والتعريف ب عزرا الكاتب الذي دوّن أسفار العهد القديم بأمر إلهي كما تقول الرواية. وأن ذلك حصل باللغة الآرامية اللغة الرسمية للدولة الإخمينية آنذاك.

يستعرض بشكل موجز الروايات التاريخية في هذا الكتاب، والبدء بسفر التكوين (بدءاً من آدم وحواء، مروراً بإبراهيم وزوجته سارة، مع ذكر هاجر، ولوط وصولاً لإسحق ويعقوب وأخيراً يوسف وقصته المعروفة مع أخوته ومجيئه بأهله حتى وفاته حيث ينتهي بذلك سفر الخليقة)

يتابع المؤلف الحديث بأن القرآن الكريم أتى على ذكر خلق الله تعالى لآدم عليه السلام، كما وتحدّث عن النبي نوح عليه السلام، وعن الطوفان، وكذلك عن أبينا إبراهيم ثم عن الذبيح، وبناء البيت العتيق، أو إعادة بناء- بالتعاون مع ابنه إسماعيل، وعن الحج، وذكر القرآن الكريم: إسحق، ويعقوب، والأسباط، وبني إسرائيل، وكذلك النبي موسى مع أخيه هارون، وفرعون والتيه، وغير ذلك، ونقرأ هذا كله في سور: البقرة، آل عمران، يوسف، الأنبياء، الأعراف، يونس، الإسراء، المائدة، طه، النساء، الأنعام، هود ن إبراهيم، مريم، العنكبوت، الصافات، ص، والقصص.

يوجد تشابه بين ما ورد في سفر التكوين، ثم بعد ذلك في سفر الخروج، لكن الرواية القرآنية أكثر دقة، مع التزام واضح بوحدانية الله جلت قدرته، وتنزيهه، ومن حيث المبدأ: الذي ورد في القرآن الكريم هو كلام الله، الذي لا إله سواه، هو معيار الصحة، وورده مرتبط بحكمة إلهية، فيه ربط لنبوة المصطفى بالنبوات الماضية، لأنه خاتم الأنبياء، ورسالة الإسلام أكملت رسائل الأنبياء، وألغت ما لحقها من تبديل أو تزييف، وينطبق هذا على جميع الجوانب، لا سيما هنا على الروايات التاريخية. إن رواية الأسفار مربكة من جميع الجوانب، فيها إقرار بأن الإسرائيليين كانوا على درجة من الفساد والشرور وأميل إلى الشرك والوثنية، وهناك أيضاً مسألة عدم وجود بحر بين سيناء ومصر، وأن سيناء لا تحتمل عملية تجوال لمدة أربعين عاماً، ثم من أين جاءت الكميات الهائلة من الذهب والفضة، والأخشاب الثمينة والبخور والأقمشة الحريرية، والصناع البارعون في جميع المجالات، ويرجح أن الذي - أو بالحري الذين - دوّن مواد هذه الأسفار عكس من الجانب الأول صورة مجتمع المرتزقة، أو أقلية مبغوضة، ومن الجانب الآخر صورة الثروات الهائلة التي توفرت للإمبراطورية الإخمينية مع

طقـوس معابـدها الزرادشـتية والبابليـة، مـع النظرة اليهودية إلى الكهنة اللاويين، وإلى أن هـارون كـان كاهنـاً ولـم يكـن نبيـاً. وقبـل الاستطراد فـي هـذا الميدان يتوقـف المؤلف على آيات القرآن الكريم حول هذا الموضوع نفسه: [القصص ١ - ٤٨] و سورة [طه ٩- ٨٩]. ومحتوى هاتين السورتين واضح تمام الوضوح وهـو يتسـاوق بشـكل عـام مـع مـا ورد فـي الأسـفار المتقدمـة ولكـن مع فـوارق خطيرة ، أولها وصف فرعـون بأنه طاغية، كان يستبيح الأعـراض، إنمـا لـيس ملكـاً كبيـراً، ووزيـر هـذا الفرعـون، اسـمه هامـان، أمره فرعـون بشـي الطـوب لبنـاء بـرج يصـعد بواسـطته إلـى إلـه موسـى، واسـم هامـان مـا يـزال حتـى الآن يسـتخدم فـي بعـض منـاطق العـراق وإيـران، والعـراق هـو بلـد أبـراج الزقـورات، وجـاء إلقـاء موسى من قبل أمه الي كانت مرافقة من قبل أختـه، ولا ذكـر لوجـود نباتات علـى طـرف النهر، الذي لابد أن كان فرعاً لنهر كبير، أو كان مجـرد نهـر صـغير، والـذي التقطـه كانـت زوجـة فرعون ولم تكن ابنته، وموسى قتل رجلاً من أعدائه، مـن دون تحديـد هويـة هـؤلاء الأعـداء، وقد هرب إلى مدين، وجلس عند بئرها، ويـرجح أن مـدين كانـت مجـرد معسـكر للبـداة مقـام حـول بئـر مـاء، وفـي مـدين كـان هنـاك شـيخ مسن هو كاهن مدين اسمه عند المسلمين النبي شعيب، لـه ابنتين فقط تقومان بمهام رعي ما كان لديه من أغنام وسقيها، وكانت لغـة الحـديث هنـاك واحـدة لـدى موسـى ولديهم، أي أن موسى كان من أبناء الإقليم نفسه الذي فيه الفرعون ومدين.

القضـايا هنـا شـائكة كثيـراً، ويجـد الباحـث نفسه في متاهة، فيها الكثير من كثبان الرمال المتحركـة، التـي هـي بأحجـام متفاوتـة، أقلها يغمـر ويهلـك، ولكـن قـدرة اللـه تعـالى فـوق جميع القدرات، وهو جلّ وعلا المستعان.

وكان علـم الآثار والأخذ بالتفسير العلمـي الحيادي، قـد دخـل مرحلـة جديـدة منذ العقـد الأخير من القرن العشرين، وتحرر إلـى حـد كبير مـن مقـولات روايـات أسـفار العهـد القـديم والتلمود، فبات من الممكن إعادة النظر بكل شـيء، ومـع ذلـك لـم تلـقِ المؤسسـات الصـهيونية السـلاح وأخـذت بـالتزييف والأكثـر بصنع أبحـاث التفافيـة هـدفها تأويل المرويات التوراتية، وفـي الوقت نفسه خدمـة المطامع الصـهيونية فـي المشـرق العربـي، ولا سـيما للأراضـي السعودية المشاطئة لخليج العقبة، ولكـل مـن مكـة والمدينـة، علـى أسـاس بنـاء الكعبة المشرفة من قبل إبراهيم عليه السلام، وأن الصهاينة هم الأبناء الشرعيون لهذا النبـي العظـيم، أمـا بالنسـبة للمدينـة لمنـورة علـى أساس أنها وما تعلق بها من مناطق كان فيها يهـود، طـردهم منهـا النبـي ﷺ، ومـن بعـده الخليفـة عمر بن الخطاب، وقد رصد الصهاينة

مبالغ ضخمة جداً، وأعدوا الأسلحة اللازمة واشتروا الجواسيس والعملاء والعديد من رجال الفكر، فبدأت تظهر دراسات حديثة مشككة بأصالة القرآن، ومن ثم بالعقيدة الإسلامية، يجب الحذر من هذا الأمر. كما ظهرت دعوة جديدة فحواها "إذا كان إبراهيم هو الأب الأصيل للعرب واليهود، وهو صاحب الديانة لأولى الأصيلة، فتعالوا إلى االتقاء حول إبراهيم، وهذا بالطبع سوف يوفر الحل للصراع في الشرق الأوسط وسوف يزيل الإسلام من الوجود، ناسين أن الإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام. وتطورت الحركة في الولايات المتحدة، إلى طرح فكرة المسار الإبراهيمي، أو قوافل الحج الإبراهيمي وجوهر الفكرة تشكيل قوافل الحج الإبراهيمي وجوهر الفكرة تشكيل قوافل شعبية محلية وغربية للحج، للانطلاق من أور في العراق فحران (تل أبيض) فحلب فدمشق، فالقدس فسيناء فالإسكندرية في مصر، على أن يكون حجم كل قافلة ما لا يقل عن خمسة آلاف. ومعنى هذه الحملة إقرار بالرواية التوراتية والإيمان بها، وتحويل السوريين وسواهم إلى " خدم" أو أدنى من ذلك لهؤلاء الحجاج.

وفي المقالة الخامسة يأتي التفصيل عن حادثة الطوفان التي جاء ذكرها في الكتابات العراقية القديمة سواء الملحمية منها أو الميثولوجية، كما أن الحفريات الأثرية أثبتت من خلال كميات غير معتادة من الطمي على طبقات عميقة ترقى إلى *الألف الخامسة قبل الميلاد* أو قبل ذلك، حدوث طوفان شمال العراق، ونقرأ في النصوص الملحمية السومرية وصفاً لواقعة الطوفان وكذلك في ملحمة بابلية من الألف الثاني قبل الميلاد. وفي نصوص الملاحم أن رجل الطوفان بكى وناح عندما شاهد ما أحدثه الطوفان، فهل يا ترى من النواح جاء اسمه بالعربية " نوح" ؟ المهم أن واقعة الطوفان صحيحة، وبالطبع عمر النبي نوح عليه السلام طويلاً، وفي ثبت الملوك العراقيين هو ابن أوبار - توتو، أو ابن شروباك، وأنه حكم مدة قدرها "٣٦٠٠٠" سنة. لكن هناك إشارات إلى أن النبي إبراهيم عليه السلام كان موجوداً في أواخر أيام نوح عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام في الجداول لتوراتية عاش حوالي السنة ٢٠٠٠ ق.م، يبين المؤلف بطلان هذا الأمر لأنه من المستبعد وجود النبي إبراهيم أيام النبي نوح، لأن العراق احتاج لربما أكثر من ألف سنة حتى بات معموراً بالناس، فيه ملك ووثنية وعبادة أصنام. ينتقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن إبراهيم عليه السلام، وبعده النبي لوط وقضية اللواطة: ومن المروي أن النبي إبراهيم ولد في مدينة أور، على الفرات، ليس بعيداً عن الخليج العربي ومدينة البصرة الإسلامية، أي على مقربة من شبه جزيرة العرب، والمنطقة التي

ولـد فيهـا هــي منطقــة الحضـارة الســومرية، ويستدل عما ورد في القرآن الكريم أن أباه آزر كانت لـه مكانتـه الدينيـة والاجتماعيـة فـي أور، وارتبطـت مكانتـه الدينيـة بسدانة الأوثان فـي معبـد المدينـة، وأن إبـراهيم رفـض فـي بدايـة وعيه عبادة الأوثان، وبحث فـي السموات عن إله يعبده، فتردد بين الشمس والقمر وكواكب السـماء إلـى أن هـداه الله جلـت قدرتـه إليـه، وإلى عبادته وتوحيده، ونجد في القرآن الكريم وصف للتجربة التي مرّ بها إبراهيم عليه السلام (ســورة الأنعــام الآيــات ٧٤- ٨١). يشــكك فــي صحة الرواية التي يرد فيها توجه إبراهيم عليه السلام إلى حـرّان للحصول على زوجة وقصة ادعائه أنها أخته أمام فرعـون، فيؤكـد أنّ أبانا إبراهيم كـان منزهـاً، وأن الحكايـة اختـراع عقـل مـريض. ومما لا شك فيه أن الذي حاك الحكاية أراد أن يجعلـــه (إبـــراهيم) يتوجـــه مــن حــران إلــى فلسطين، لتحقيق وعد إلهي بمنحه فلسطين له ولأبنائه من بعده، ونحن لا نعرف شيئاً عن رحلة إبراهيم عليه السلام عبر بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب حتى موقع مدينة القدس حيث التقى بكاهن اسمه "ملشيسداك ملك ساليم" الذي يصبح اسمه لاحقاً ملكي- صادق.

يرى المؤلف أنـه من المحتمل أن إبراهيم عليه السلام لجأ إلى حياة التنقل، وتخلى عن أور، أو أن الحيـاة فـي أور كانـت شـبه مسـتقرة، وهنا الاحتمـال الأكبـر المتوافـق مـع بنـاء الكعبــة أو إعـادة بنائها، وذهابه إلى الحجاز وزواجـه هناك من هاجر أم إسماعيل، وأنـه لسبب ما أسكن أم إسـماعيل فــي موقــع مكــة التــي كانــت مسـكونة مــن قبــل قبيلــة (جــرهم) اليمانيــة الأصل، وهو سكن مع زوجته سارة التي سوف تنجـب لـه ابنـه إسـحق لـيس بعيـداً عـن مكـة. وبناءاً على الاستدلال المنطقي يكون الحديث عــن *ملكــي صــادق* وإبــراهيم عليه السلام أســطورياً بشــكل كامــل، اخترعــه كتــاب العهــد القــديم للقول بأن *ملكي صادق* قد عهد إلى إبراهيم، وأن إبــراهيم قــد أورث شــرعيته لابنــه إســحق وهكــذا إلــى يعقــوب فالأســباط، وهــذا أمــر لا يمكـن إثباتـه عـن طريـق الآثار، إضافة إلـى أن القرآن الكريم لم يذكر *ملكـي صادق* ولم يذكر أن إبراهيم الخليل قـد قام بأيـة حروب، ثـم إن الاتصالات بين العراق والحجاز لم تكن تتم عبر فلسطين بل مباشرة، وأن إسماعيل كـان هـو الابــن الأول لإبــراهيم، وبــإبراهيم وإســماعيل الذبيح ارتبط حدث إعادة بناء الكعبة فـي مكة المكرمة، ومع إعادة البناء هذه الإيذان بالحج، وترافق ذلك بالأضاحي....

وللمؤلف وقفة مع النبي لوط عليه السلام وقضية الشذوذ الجنسي الذي بات يسمى اللواطة أو اللوطية اشتقاقاً من اسمه مع أنه نبي كريم ناضل ضد هذا الانحراف البغيض خلقياً وإنسانياً، وقد شهر القوم الذين أقام لوط بينهم باقتراف جريمة الشذوذ الجنسي

علناً، وليس بالخفاء والتفاخر بذلك، فغضب الله عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ [سورة هود: ٨٢].

ولم يسم القرآن الكريم اسم المدينة أو الموقع المدمّر، بل أورد بأن الله جلّت قدرته بعث بعضاً من رسله، فمرّ هؤلاء أولاً بإبراهيم .... وفي الرواية التوراتية أن قوم لوط كانوا يسكنون بجوار البحر الميت، وقيل في مدينتي سدوم وعمورة، ولقد قيل لبعض الوقت أن باب دراع والنميرة بجوار البحر الميت هما سدوم وعمورة، وفي الحقيقة شمل المسح الأثري قرب سواحل البحر الميت أكثر من ثلاثين موقعاً، تبين عدم وجود أي دليل على تعرض أي موقع منها إلى الدمار حسب الرواية التوراتية التي وردت في سفر التكوين. وليس هناك من شيء في الموقعين يمكن بشكل محدد ربطهما بالتقاليد التوراتية.

ومع هذا البرهان الصادر عن التوثيق الأثري، من المعروف أن بلاد الشام ومصر وشبه جزيرة العرب لم تشتهر في أية مرحلة من مراحل التاريخ بالإصابة بوباء الانحراف والشذوذ الجنسي بل الذي اشتهر وما زال مشتهراً بشكل مؤسف بلاد الرافدين والهضبة الإيرانية، ولحسن حظ البحث العلمي أن الآثاريين عثروا على صور كثيرة تمثل الشذوذ الجنسي منذ العصر السومري ، ورسمت هذه الصور إما على رقم فخارية أو على أختام، علاوة على ذلك في الأدب السومري قصائد من الشعر، منها يستكشف شكوى النساء من عدم العناية الجنسية بهنّ. / يورد أبياتا من الشعر/ وكذلك صور متعددة عن هذه المناظر.

وفي المقالة السادسة يتابع المؤلف سرد الأحداث مع النبي موسى، ثم داود وسليمان.

يأتي بطرح نظرية أن بني إسرائيل قد يكونون من العرب البائدة، وكذلك يرفض أن تكون أرض الكنانة هي المسرح الجغرافي لحياة النبي موسى عليه السلام ويوضح هذا على النحو التالي: كان من عادة البداة الاسترفاد في مواسم القحط من البلدان المجاورة، وعرفت هذه العادة عند بداة شبه الجزيرة العربية، حيث كانوا يسترفدون من العراق في أيام القحط قبل الإسلام... كما أن شط العرب شكّل مجمعاً للبحرين وعلى مقربة منه ما تزال هناك بقايا أقدم أتباع ديانة قديمة جداً وهم الصابئة الذين يمتلكون تراثاً دينياً غنياً، إضافة إلى هذا أن الخليج العربي هو البحر الأحمر قديماً ، وتتحدث كتب الأخبار العربية وكتب الأنساب عن عرب بائدة وقد يكون بنو إسرائيل من العرب البائدة لأنه جاء في القرآن الكريم (سورة البقرة الآيتان ١٣٣، ١٣٤) تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم....... هذا ومقرر علمياً أنه لا علاقة نسبية بين بني إسرائيل - أي أولاد يعقوب - والذين سيعرفون باسم اليهود فيما بعد.

أما ما يتعلق بالنبي موسى: فقد روّج اليهود منذ القديم إلى القول بأن المسرح الجغرافي لحياة النبي موسى عليه السلام كان أرض الكنانة، وأن ملوك هذه البلاد كانوا يلقبون فراعنة، *وفي هذا مغالطة كبيرة*، فما من واحد ممن حكم أرض الكنانة ولا سيما في عصر الهكسوس حمل لقب فرعون، التي قيل أنها كلمة مركبة معناها صاحب البيت الكبير. وفي القرآن الكريم كانت بابل هي مدينة السحر والسحرة، فهي المدينة الوحيدة التي ورد ذكر اسمها صراحة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ (سورة البقرة، الآية ١٠٢) وبلاد بابل هي بلاد الزقورات واستخدام "الطوب المجفف" بالشوي أو المشوي بالنار في حين أن آثار أرض الكنانة شاهدة على أنها بلد الحجارة والبناء بها. /استشهاد بآيات قرآنية ص١١٤/ والفرعون بالعربية هو الطاغية، وكان أبو جهل طاغية هذه الأمة، واشتهرت بلاد الرافدين بطغاتها عبر التاريخ، كما أن هذه البلاد هي بلاد الملاحم وأشهرها ملحمة جلجامش، ونحن حين نتمعن في بعض أبيات هذه الملحمة نجد أن جلجامش تحوّل مع السلطة إلى طاغية مستبد.

يرجح أن موسى حقق نجاحات كبيرة، ولعله مثّل أولى الصراعات ما بين السومريين والأكاديين، الذين وفدوا إلى العراق الجنوبي إما من منطقة الخليج العربي أو من شبه جزيرة العرب، فنحن نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ٨٨﴾ [طه: ٨٥، ٨٨]. وحين واجه المفسرون المسلمون الأوائل هذه الآية الكريمة لم يحالفهم التوفيق في تفسيرها لعدم توفر المعطيات التاريخية، ذلك أن الحضارة السومرية بقيت مجهولة أكثر من أربعة آلاف عام إلى أن جرى الكشف عنها في القرن التاسع عشر.

وواضح أن كلمة " سامري" نسبة إلى سومر أو إلى سامراء، وجرى الكشف عن آثار سومرية كثيرة كلها ثمين، وبعضها تحف مصاغة من الذهب، كان الحجر شبه الأبرز في تحليتها هو اللازورد، ومقرر حتى الآن أن المصدر الرئيسي لهذا الحجر هو جبال أفغانستان الحالية، ويدلل هذا على أن نفوذ الحضارة السومرية امتد إلى أطراف الهند، ومع النفوذ الحضاري كانت هنالك علاقات تجارية وغير ذلك، وبالمناسبة هناك من يرى بأن أصل

ومنشأ الشذوذ الجنسي كان في هذه البلاد، ومنها انتشر عبر العصور.

ومن بين الآثار التي اكتشفت بأور رأس عجل ذهبي مزين بحجارة االلازورد الزرقاء الداكنة، وهذا الرأس محفوظ الآن في المتحف البريطاني في لندن وكان قد تم العثور عليه في حفريات أور، وتاريخه هو ٢٦٠٠ق.م. أي أنه يرقى بتاريخه إلى عصر موسى، إن لم نقل بأنه هو الذي صنعه السامريّ. لقد كان العجل مقدساً في حضارات وعقائد بلاد الرافدين والهضبة الإيرانية. وغالباً ما مثّل المصريون القدماء أربابهم على شكل بشر رؤوسهم تمثّل رأس حورس (طائر الحر) في حين بالمقابل مثّل العراقيون أربابهم على شكل ثيران، رؤوسهم بشرية.

ولاشك أن السومريين والأكاديين كانوا على العموم أثرياء، عاشوا عيشة رخاء وبذخ، وواضح من الآثار التي جرى الكشف عنها حتى الآن، ثم إنه في الغالب ما يترافق الثراء مع الظلم والطغيان، وعلى هذا كانت رسالة النبي موسى عليه السلام ضد الشرك بالله تعالى وضد الطغيان، فنحن نقرأ في القرآن الكريم عن شخص اسمه قارون كان على درجة هائلة من الثراء ... [القصص: ٧٦- ٨١]. وهكذا تكرر الخسف بالإقليم نفسه بقارون الواسع الثراء بعد الخسف بقوم لوط، وتكرر ذكر قارون في القرآن الكريم مقروناً مع اسم فرعون وهامان في قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [سورة العنكبوت، الآية ٣٩].

وفيما يتعلق بواقعة فرار موسى عليه السلام بقومه، وقطعه البحر، الذي لم يكن البحر الأحمر المصري، بل ربما شط العرب لقربه من أور، فهل عبر إلى الجانب الذي هو الآن في الأراضي الإيرانية، وتابع السير شمالاً باتجاه إقليم ميديا، فهذا الإقليم واسع جداً، عرف نشاطات الزرادشتية المبكرة، ويرى بعضهم أنه الإقليم الذي منه قامت الهجرات التي عُرفت بالهجرات الهندو - أوربية.

وفي المقالة السابعة يتناول المؤلف أهم الوثائق المصرية التي ورد فيها ذكر للقدس أو لبني إسرائيل وهي نصوص اللعن، ونقش مرنبتاح، ورسائل تل العمارنة، وإنّ الذي عثر عليه في مصر كثير جداً.

ويوضح المؤلف كيف لحق الزيف بالأسماء الواردة في نصوص اللعن، أسماء بضع الأماكن مثل (أُشام م – قالوا أنها أورشليم، وفي الحقيقة هي بلاد الشام أو بلاد الشمال، وخاصة أن تاريخ قيام القدس وتأسيسها كمدينة يعود إلى المائة السابعة قبل الميلاد، أي بعد ما لا يقل ممن ألف ومائتي سنة عن تاريخ نصوص اللعن)، ولنتذكر أيضاً أن نصوص اللعن متزامنة مع مقدمات ظهور الهكسوس في مصر.

وفـي نقـش الملـك المصري مرنبتاح أيضاً تزييف فـي القـراءة، فالادعاء أنـه النص الوحيد الـذي ورد فيـه اسـم إسـرائيل، ويتكـون النقش مـن ثمانيـة وعشـرين سـطراً، تحـدث فيـه الملك عـن انتصـاراته وإنجازاتـه ضـد الليبيـين، ثـم عـن بعـض مـدن فلسـطين، وهنـا الخلـط والزيـف، ويوضح المؤلف هذا الأمر.

أمـا رسـائل تـل العمارنـة، عاصـمة الملـك أمنحوتب الرابع، أخناتون، ٣٧٧ لوح كتبت باللغة الأكاديـة - الكنعانيـة - فيهـا رسـائل مـن بـلاد الشـام، نصـفها تقريبـاً مـن فلسـطين، وجلهـا أرسل إلى أخناتون، وتحتوي الرسائل تقارير عن فلسـطين، وعـن صـراعات بـين ملـوك محليـين، واسـماء هـؤلاء الملـوك كلهـا عربيـة ... ويبـين المؤلف الالتفاف الحاصل فـي قـراءة الاسـماء أيضاً والخلط بين الأسماء للوصول إلى دخول العبرانيين أرض مصر، من خلال تحليل الاسماء يوضـح المؤلف بطلان هـذا الادعـاء، وأن مصـر كان اسمها في العصور القديمة كمة- كميت، أي الأرض السـمراء، ومـا مـن أحـد مـن ملوكهـا حمل لقب فرعون، وظلت تحمل اسمها حتى ما بعد عصر الإسكندر المقدوني فـي القرن الرابـع ق.م. ويـرجح المؤلـف أن أرض الكنانـة كسـبت اسـم مصـر علـى أيـدي القـوى المشرقية منذ العصر الآشوري أو قبيل العصر الإخمينـي الـذي كانـت لغتـه الرسـمية هـي الآراميــة، فبالأكاديــة مصــر تعنــي الــتخم، وبالآرامية تعني المجرى.

وبما أنه تم التوصل إلى أن موسى عليه السلام عـاش أواخـر العصـر السـومري، أو عصـر الصراع الأكـادي - السـومري، لعـل الأرجح أن إقليم " موصري" قصد به شط العرب، أو بعض وادي مجرى الفرات.

يتوقف المؤلف مع مسألة كل من النبي داود وابنـه سـليمان عليهمـا السـلام، فيوضـح مكانتهمـا عنـد المسـلمين، وأنهمـا يتمتعـان بالعصـمة، وبالتـالي فـإن صـورة نبـي الله داود مختلفـة عـن الصـورة التـي وضـعت لـه فـي التوراة، وعن أصله ينفي المؤلف أن يكون من شعوب البحر، لأن اسمه عربي والله استخلفه، وأنـزل عليـه الزبـور، وتـلازم اسـمه مـع صـناعة الحديد، والسوابغ التي عُرف بصناعتها وبراعته بهـا، وهـذا اسـتخدم علـى نطـاق واسـع فـي الدولـة الآشـورية مـن بعـد القـرن الثـامن قبـل المـيلاد، أي أن داود كـان ملكـاً آشـورياً رافـدياً، يـدعم هـذا أن اسـم ابنـه سـليمان هـو اسـم آشــوري، والدولــة العظمــى التــي حكمهــا سـليمان لا تتطـابق ملامحهـا إلا مـع الدولـة الآشورية، تبقى مسألة سبأ وملكتها بلقيس، فيوضح هنا أن سبأ سليمان مختلفة عن سبأ اليمن، وأنّ هناك فارق زمني قد يصل إلى ألف وثلاثمائـة عـام، ومسـألة تشـابه الأسـماء فـي الوطن العربي معروفة عبر التاريخ.

هـذا يعنـي أن مسـرح أحـداث قصـة النبي

يوسف كان على أرض العراق وتحديداً شط العرب، وأن مدينة مصر وقعت على شط العرب، ليتوصل إلى أن مدين كانت قرب سوق تجاري، ويرجح أن هذا السوق هو سوق دومة الجندل. وبعد هذا الشرح والتحليل يتوصل المؤلف لنظرية أن الأرض المقدسة ما هي إلا أرض الحرم المكي، وهي أرض الوادي المقدّس، وما يُقال بأنها فلسطين غير صحيح، فأتباع موسى بعد اجتيازهم البحر تمردوا عليه، ولم يدخلوا الأرض المقدسة وكتب عليهم التيه لمدة أربعين سنة، والشتات لمن انتمى إليهم إلى أبد الآبدين، والمرجح أن التيه كان في الصحراء الشامية - العراقية امتداداً إلى النفوذ التي لعلها سميت بهذا الاسم للنفوذ منها إلى مكة.

وعن السياسة الآشورية فإنها قامت بإخلاء المناطق المستعصية والمتمردة من سكانها بتهجيرهم، في حين كان أول ما تعهد به ملوك الدولة البابلية الثانية هو تعهدهم للمهجرين بالعودة.

يتابع في المقالة الثامنة الحديث عن الدولة البابلية الثانية التي وصلت إلى ذروة قوتها أيام ملكها نبوخذ نصر الثاني [٦٠٥- ٥٦٢ ق.م] وما ذكر عن احتلاله مدينة القدس، والسبي البابلي، فيدل على التلفيق الحاصل في ترجمة ما وصل من أخبار هذا الملك على رقيم فخاري، ضم أخباراً حوليات العرش البابلي أيام حكم نابولاسر وابنه نبوخذ نصر الثاني، فيوضح التلاعب بترجمة الكلمات من قبل الباحثين. ومشيراً إلى سياسة الدولة البابلية الثانية برد المهجرين من العصر الآشوري إلى أراضيهم، وبناء على هذا لم يقم الملوك الكلدانيون بعمليات تهجير، أي أن حكاية السبي البابلي مجرد اختراع لا أصل له، فلو حصل ووصل نبوخذ نصر إلى الشام الجنوبي، وانتصر على لحدثنا عن أعمل انتقامية من الجيش المصري، لكنه بعد أن أخفق أما المصريين لم يخاطر مجدداً.

ثم يتابع الحديث عن السيطرة الإخمينية على الدولة البالية الحديثة، وتشجيع قورش على نشر الديانة الزرادشتية التي غدت الديانة الرسمية للدولة. فالمرويات التوراتية تزعم أن قورش سمح للمسبيين من اليهود العودة إلى فلسطين وأن داريوس سمح لهم بإعادة بناء هيكل سليمان، هذا الكلام يتعارض مع المعطيات الأثرية ومع حقيقة أنه لم يكن هناك لا سبي بابلي ولا مسبيين، وهذا الأمر لم يذكره هيرودت في تاريخه، وأي من المدونات الإدارية في عصر داريوس ولا سيما واجهة معبد النار المقام على ضريحه، لم يذكر ما يمثل أي كيان يهودي، لأن هذا الكيان لم يكن موجوداً، وكان الأنبياء الذين ذكرتهم مرويات الأسفار يعيشون في قصور هذه الحاضرة. ومما لاشك فيه أن قرني الاحتلال

الإخمينـي كانا الأهـم فـي تـاريخ القـدس فـي العصور القديمة، لكن المعلومات عنهما قليلة، هناك بعض المكتشفات الأثريـة بالغـة الأهميـة، منهـا البرديـات فـي جزيـرة الفيلـة كتبـت باللغـة الآراميـة، عكسـت هـذه البرديـات صـورة جماعـة أمميـة - كانـت حامية لصالح الدولـة الإخمينية- وجدت إلى جانب سكان الجزيرة من المصريين، داخل هذه الجماعة الأممية التي لم تكن كثيرة العدد فئة عبدت الإله يهوا YHW، ومن هذه الرسائل يمكن الاستدلال أنه كان في القدس حـاكم فارسـي لـه مكانتـه، لـذلك هـذه الفئـة طلبـت وسـاطته لإعـادة بنـاء معبـد يهـوا فـي جزيرة الفيلة، هذا يفيد بوجود إدارة بالمنطقـة، وبعـد انهيـار الدولـة الإخمينيـة ورثـت فئـة يهـوا هـذه الإدارة، وبـات لـدينا منطقـة حملـت اسـم يهوا، هذه الفئة آمنت في البداية بديانة ثنوية نبعـت مـن الزرادشـتية وامتزجـت مـع تقاليـد تسربت إليها وعرفت باسم الموسوية وسكنت هـذه الطائفـة فـي فلسـطين، وصـبغت بثـوب دينــي - آشــوري، فكانــت وراء مــا ورد فــي سفري عزرا ونحميا .....

انتهـى حكـم الدولـة الإخمينيـة مـع انتصـار الإسـكندر المقـدوني، ويـرجح أن انهيـار الإمبراطوريـة أدى إلـى انسـحاب القـوات الإخمينيـة وبعـض أفـراد الحاميـات العسـكرية وعودتها إلى المشرق، وبعد وفاة الإسكندر تم اقتسـام إمبراطوريتـه بـين أبـرز قادتـه، فكانـت أرض فلسطين والشام الجنوبي ميدان للصراع بين السلوقين والبطالمة، وهذا أدى لاحقاً إلى تزايد هجرة بعـض بقايا الدولـة الإخمينيـة، حيث أخـذنا نسـمع عـن ظهـور يهـود فـي العـراق، الذي ظل محكوماً من قبل الفرس حتى أيام الفتوحـات، فمـن الممكـن القـول بـأن انهيـار الإمبراطوريـة الإخمينيـة كـان وراء الشتات الأول لليهود، أو بالحرى الانتشار العالمي.

ويخـص الحـديث فـي المطلب الثـاني عـن العصور الكلاسيكية في مقالتين، الأولى عن الإسـكندر المقـدوني وقيـام العصـور الكلاسـيكية، فيبـدأ بقـدوم الإسـكندر وإنهائـه الدولـة الإخمينيـة، حياتـه، حروبـه، موتـه المبكـر وانقسـام إمبراطوريتـه وانقسـامها. ثـم الحـروب المسـتمرة بـين البطالمـة والسـلوقيين التـي اسـتنزفت الطاقـات بـين مصـر والشـام، وحالـت دون إقامـة إدارة مسـتقرة أو حيـاة اجتماعيـة طبيعية في الشام الجنوبي، وكيف استفادت منها عناصر عبّاد يهوا الذين وصلت أخبارهم بسبب تطور تكتلهم الديني، ولتدوين أخبارهم في أسفار العهد القديم، لا سيما في سفري المكابيين، وقد تعرضت جماعة يهود للهلنسة وكـان لـذلك ردات فعـل. ويخـص الحـديث عـن الشـام الجنـوبي التـي عرفـت باسـم (العربيـة) وظهور كيان جغرافـي جديد إلى الجنوب من اليهوديـة، اسـمه أدوم، نسـبة إلـى العـرب الأدوميين الذين دخلوها منذ القرن السابع قبل

الميلاد، مع وجود جماعة السامرة إلى الشمال من اليهودية، ولم تكن العلاقة جيدة بين هذه الكيانات بل قامت حروب حيث وجهت قوى اليهودية نشاطاتها نحو منطقة أدوم، وانشغلوا في صراع مع غير اليهود، والمجتمع شهد انقسامات بشأن الموقف من الهلنسة، وفي خضم هذا الصراع السلوقي- البطلمي أخذ نجم روما قد بدأ يسطع ويشع. ويخصص بعد ذلك الحديث عن العصر الروماني ومرحلة عدم الاستقرار في المنطقة، والاتصال مع الرومان في العام ١٦٤ق.م ثم في ١٤٦ ق.م وأخيراً أيام يوحنا هركانوس أيام الثورة على والتمرد على السلوقيين، حتى دخول بومبي إلى القدس ، وبعد ذلك انتقال التبعية إلى قيصر، وهي مرحلة كلها اضطرابات.

يجعل المؤلف الخاتمة على لسان سترابون في وصفه للمنطقة التي تعرف باسم اليهودية، التي كانت القدس حاضرتها، فيبين حال المنطقة في تلك المرحلة، ويؤكد في النهاية على بطلان جميع الحكايات والروايات الموجودة في أسفار العهد القديم، ولو تأخر قبول هذا الأمر فإنه سيحصل لأنه لا بد وسيحصل التغيير بالمعطيات وفقاً للتقنيات الحديثة التي تساعد على ذلك.

وجعل المؤلف للكتاب ثلاثة عشر ملحقاً وضع فيها مواداً مهمة تبين وتوضح كثير من الأحداث التي ورد ذكرها، مثال على ذلك: الإصحاح الثالث عشر من سفر دانيال، ملحق من رسائل تل العمارنة، وصحف إبراهيم وموسى، نقش رستم (نقش قبر داريوس الأول)، المكابيون (السفر الأول بأصحاحه الست عشر) والسفر الثاني بإصحاحه الخمسة عشر، ثم مخطوطات البحر الميت مع تقديم دراسة عن أحوال ودراسات مخطوطات البحر الميت، ومواد عند المؤرخين العرب المسلمين، وإيراد آيات من القرآن الركيم لهن علاقة بأصل الكتب.

وجعل للكتاب فهارس عامة للآيات والأعلام والجماعات والأماكن

صورة القدس في كتاب سفر نامه للرحالة ناصر خسرو

سمات المكان والزمان وإشكالات المتخيل الشعبي

د.مصطفى عطية جمعة

أستاذ مشارك الأدب العربي والنقد

الكويت

مقدمة

تعالج هذه الدراسة قضية صورة القدس في القرن الخامس الهجري، كما تبدت في كتاب واحد من أشهر الرحّالة المسلمين في هذا القرن، وهو نص رحلة ناصر خسرو قباديانى المتوفي في ٤٨١هـ، وقد عاش في الفترة (١٠٠٤ - ١٠٨٨ م) وهو رحالة وشاعر وفيلسوف فارسي، وقد سجّل زيارته للقدس في كتابه "زاد الأسفار أو سفر نامه"، وامتاز بدقة الوصف، وعمق المعرفة، وتمتاز هذه الرحلة بأننا نتعرف على صورة القدس في أعين أديب جمع الثقافتين العربية والفارسية، وصاغ نص رحلته بالفارسية، وكأنه يقدم مدن العروبة والإسلام في المشرق إلى القارئ الفارسي. ونستطيع من قراءة نص رحلته الوقوف على أبرز معالم مدينة القدس، كما وصفها بدقة خسرو في رحلته، ونتعرف من خلال هذا وصفه على ما دأب عليه المسلمون في عصره في زياراتهم للمسجد الأقصى، وأيضا مكانة القدس الشريف في نفوسهم، وأبرز ما تميزت به عمارتها وأروقتها وأبنيتها، وانعكاس البيئة على حياة السكان وتقاليدهم.

ومن هنا يكون يأتي الهدف من هذه الدراسة بالسعي إلى رصد وصف معالم القدس في أحد مدونات أدب الرحلة، وهو مدونة ناصر خسرو، والسرديات المتصلة بها. ويمكن ترجمة هذا الهدف إلى أسئلته مفادها: كيف بدت معالم مدينة القدس في القرن الخامس الهجري؟ وكيف كانت مكانتها في نفوس المسلمين؟ وكيف وجدت العناية الكاملة من الإمارات والممالك والخلافات التي حكمت المسلمين عامة، وبلاد الشام خاصة؟ حيث حرص حكام المسلمين -وإن تعددت دولهم وأيضا مذاهبهم- على صيانة مدينة القدس والاهتمام بعمارتها، مثلما حرص المسلمون على زيارتها بشكل مستمر، سواء

كانوا قافلين من رحلة الحج، أو طوال السنة، كما سنتعرف على أبرز سمات العمارة في المدينة المقدسة، وعادات أهلها، وزائريها. مع مناقشة أبرز المرويات الشعبية الدينية ومتخيلاتهم عن معالمها، والتي ترسخت في الوجدان الشعبي، وعلاقتها بالسرد العجائبي، والتي تعبر عن تاريخ المدينة الديني منذ داوود وطيلة حكم المسلمين لها.

في ضوء ما سبق، سنقدم -بدايةً-تأصيلا نظريا عن مفهومي المكان والزمان في أدب الرحلة، وأهمية دراستهما، بوصفهما بعدين من المهم إضافتهما في دراسة أدب الرحلة، فلا يمكن فهم النص الرحلي إلا في ضوء السياقين الزماني والمكاني، ومن خلالهما سنتعرف أيضا على الأبعاد الاجتماعية والثقافية، كما سنشير إلى علاقة النص المسرود بشخصية الرحالة السارد.

ومن أجل ذلك، سيستخدم الباحث منهج القراءة التحليلية، بجانب المنهج الوصفي في رصد معالم القدس وأبرز تغيراتها، وكذلك المنهج التاريخي لتوثيق المعلومات، وتعميق المعرفة، عن المدينة، وعن الرحالة، وأيضا عن الأحداث التاريخية ذات الصلة، ولن تغيب مفاهيم السرد العجائبي مع تفعيل النقد الثقافي للمرويات الدينية الشعبية، للوقوف على مصداقيتها.

المكان والزمان في أدب الرحلات:

ما الرحلة إلا حركة زمنية مكانية، فالرحّالة يتحرك مكانيا عبر ترحاله الطويل إلى مدن وبلدان، ساعيا إلى التعرف على شعوب ومعالم، راصدا بعين دقيقة الجديد الذي يمكن أن يضيفه إلى ذاته من معرفة، وإلى قرائه عندما يقرؤون نصوصه، ويتمعنون في غرائبها، من عادات وتقاليد وأساليب معيشية. فالمكان في الرحلة يعني وجهة السفر، والمسافات الطويلة أو القصيرة التي يقطعها الرحّالة، عبر الفيافي أو السهول أو البحار. فالمكان موضع، والجمع أمكنة، وجمع الجمع أماكن[١]، فهو اسم مشتق، دال على ذاته، من خلال وجوده المادي، وما يحويه من موجودات مادية.

أما الزمان فهو ملازم للمكان المادي، بل إنه يتجلى من خلال الموجودات المادية في الأمكنة، وكما يشير مالك المطلبي فإن الزمن -إذا سعينا إلى فهمه فلسفيا- ليس في جوهره زمنا، بل يجب النظر في الزمن داخل الوجود المادي أو خارجه، والمقصود الوجود المتصوَّر، فيمكن أن يكون مثالا ذهنيا تجريديا، ويمكن أن يكون حقيقة تقترب من

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، د ت، مج٦، ص٤٢٥١.

التشخيص[١]. فالسفر قديما كان يقاس باليوم والليلة، فيقال مسيرة يوم أو شهر أو نهار.. إلخ، وهي مقولة تحمل حركة في المكان، وتمددا في الزمان، حتى إننا لا يمكننا فهم الزمن لغويا إلا على أساس أنه قيمة محسوسة مقطعة إلى خانات[٢]، والحسية تقاس بالحركة أو بحركة عقارب الساعات. وإذا نظرنا إلى الرحلة بوصفها حدثا، فإنها لا يمكن أن تقع إلا في مكان وزمان، ومن هنا يتعين النظر إلى المكان والزمان ودلالتيهما في أدب الرحلة؛ بمعنى طرح أسئلة حول البلدان التي زارها الرحّالة، من حيث رمزيتها إذا كانت تحتضن مقدسات، مثل مكة والمدينة المنورة والقدس الشريف، أو من حيث موقعها الحضاري، بوصفها مكانا للمدارس ومعاهد العلم مثل بغداد والقاهرة والقيروان وفاس، أو من حيث تميز معالمها مثل الإسكندرية ودلهي ومدن الشام والأناضول. وفي الوقت نفسه، ننظر إلى السياق التاريخي/ الزمني الذي زار فيه الرحالة هذه البلدة أو تلك، فالزيارة إبان السلم غير الزيارة في أوقات الحروب أو بعدها، أو إذا سادت اضطرابات وثورات.

إذن، فقراءة أدب الرحلات في ضوء مفهومي المكان والزمان تتيح الكثير من المعطيات، التي تضاف إلى البعد الذاتي في مفهوم أدب الرحلات، والذي يقصره على شخصية الرحّالة، ودوافعه، واجتهاداته في الترحال والسفر، والوصف والتسجيل، والتعبير والإبانة عن سفرياته المختلفة. وكما يشير صلاح الدين الشامي في تعريفه لأدب الرحلة بأن الرحلة سواء كانت برية أو بحرية تمثل إنجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا، من أجل تحقيق هدف ما، يعود لإرادة الإنسان الرحّالة، من أجل معرفة حركة الحياة على الأرض، بشكل مباشر أو غير مباشر، فقد تكون الرحلة هواية، وقد تكون احترافا، وفي الحالتين تكون استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة، تدعو بإلحاح للحركة والتنقل من مكان إلى مكان آخر[٣].

وبالطبع ليس كل مرتحل ينتمي لفئة الرحّالة المعني بهم أدب الرحلات، لأن المسافرين والرحّالة يختلفون في نياتهم وأغراضهم في السفر، طال أم قصر، بَعُدَ أم قَرُب، فلكل غايته، منها ما هو ذاتي، ومنها ما هو عام، على نحو ما يفصّل ناصر الموافي في شأن دوافع الرحلة وأسبابها، مؤكد أن الرحلة غاية، فهناك من يرتحل من أملا في العزلة والتأمل، أو الوحي والإلهام الإبداعي، أو باحثا عن

(١) الزمن واللغة، د.مالك يوسف المطلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٣.

(٣) الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية، د. صلاح الدين الشامي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ١٣، مج ٤، يناير ١٩٨٣، ص١٣.

الجمال والسلام النفسي والفوضى الفطرية، أو من أجل حب الاستطلاع، وزيادة الخبرات، أو طلبا للعلم، أو من أجل القيام بأعمال رسمية أو للتجارة أو للجهاد، أو تأدية فريضة الحج..إلخ، وقد تكون الرحلة ضرورة أحيانا[١]، عندما تكون هناك أسباب قهرية تدفع الفرد إلى الرحيل، عندما يخاف المرء على نفسه أو ماله أو عرضه. وكلها أغراض تتصل بنشاط الإنسان على الأرض، في مواجهة ظروف الحياة، وتقلبات العيش، وتحقيق الذات وآمالها.

ومهما تعددت الرغبات، وتنوّعت الأهداف، وكثرت الارتحالات، فإن هناك جامعا مشتركا بين كل هذا، ألا وهو المكان، فالرحلة في النهاية ارتحال من مكان إلى مكان، وما ينتج عنها من مدونات أدبية، لمن امتلك الموهبة في الكتابة، وسعى إلى تسجيل مشاهداته، وإعلام الناس بها، خاصة في العصور الإسلامية المبكرة، عندما كان السفر مرهقا، ووسائله شاقة، ولا يقدر عليه إلا ذوو الهمة والقوة. ولذا، فإن الشخص كثير الترحال يسمى الرَّحّيل، فلديه القوة على الارتحال والسير[٢].

فالمكان ملازم للارتحال، مثلما هو ملازم للاستقرار، فالقرار/ الاستقرار يعني المكث في المكان، بدافع الإقامة[٣]، ومن هنا، يتعين علينا دراسة تجليات المكان في منظور الرحّالة، وكيف تفاعل معه، على مستوى الوعي به، والإحساس بمكوناته المادية، من معالم وطبيعة، وعادات السكان وأنشطتهم الاقتصادية، وعلاقات وتقاليد مجتمعية. وهذا يقودنا إلى النظر إلى المكان في أدب الرحلة نظرة تتجاوز الموجودات المادية، والتي ستكون أقرب في وصفها إلى التفسير الفيزيائي الذي يلامس علم الجغرافية؛ لننظر إلى المكان كما يعرّفه جاستون باشلار بأن المكان الممسوك بالخيال لن يظل مكانا محايدا خاضعا لقياسات وتقييم مساحات الأراضي، تلك التي يدركها علماء الهندسة، فيكون المكان في نفسية الرحالة الأديب وعينيه ورؤاه مختلفا عن المكان في نظر الجغرافي أو المهندس، حيث سيكون الوجود المكاني حميميا بالنسبة إليه[٤]، عندما يعيش بين جنباته، ويعايش سكانه، ويمتزج بحياتهم اليومية، بجانب نظرته إلى معالم المكان بعين جديدة، تقارن بينه

(١) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. ناصر عبد الرازق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية- مكتبة الوفاء، القاهرة، ١٩٩٥، ص٢٧- ٢٩.

(٢) لسان العرب، مج٣، ص١٦١١.

(٣) المرجع السابق، مج٥، ص٥٣٧٩.

(٤) جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص١٧٩.

وبين ما زاره من بلدان من قبل، والجديد والمختلف الذي وجده في هذا المكان.

ولذا، فكلما كان أديب الرحلة دقيقا في لغته، ووصفه، فإن مدوناته تكون عظيمة الفائدة، للقارئ والباحث على السواء، وبالطبع فهو يكتب بوصفه أديبا، لتكون كتابته أكثر جاذبية، وأعمق تشويقا، ولا يكتب كتابة وصفية باردة، وهو ما يشدد عليه ناصر الموافي بأن أدب الرحلات لابد أن "يُكتَبَ بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة، والرغبة الشديدة التي تتملكه للقيام بها"[١]، بما يؤكد على أدبية النص الرحلي المدون من ناحية، والذي سيعكس من ناحية أخرى ذاتية المؤلف المتمثلة في إيضاح رغبته في القيام بالرحلة، وما يتبعها من تسجيل خواطره ومشاعره وأفكاره عن محطات رحلاته ومشاهداته فيها. وفي هذا الصدد يحصر الموافي طرفي أدب الرحلة في بعدين: موضوع الرحلة، وشخصية الرحّال، فهناك الرحلة الجافة التي لا تحمل أثرا لشخصية صاحبها، حيث تصبح المدونة مجموعة من الحقائق الإنسانية التي تميزها بوصفها عملا أدبيا[٢]. ذلك لأن أدب الرحلات بقدر ما هو كاشف عن شخصية الرحّالة ومستوى ثقافته، وتمكنه الأسلوبي في صياغة مشاهداته وتفاعلاته وانطباعاته ومواقفه؛ بقدر ما يجب أن يوضحه ويصف بجلاء البلاد التي يتنقل بينها الرحّالة، والشعوب التي يلتقي بهم بأناسها، ويتعرّف على ثقافاتهم وطباعهم.

فالرحّالة الأديب النابهة هو الذي ينظر إلى الأمكنة التي يزورها بوصفها مؤثرا عاطفيا، بما يجعل المكان أليفا في نفسه[٣]، وبالطبع هذا لا يتحقق في كل البلدان ولا الأمكنة، لأنه يتعلق بشخصية كل رحّالة، ومدى فهمه للمكان المزار، وقدرته على العيش بألفة وروح اجتماعية، بما يتيح له وصفا معمقًا، يتجاوز الموجودات الظاهرة.

القدس المكانة والتاريخ والرحلة:

لقد كان العامل الديني هو الغاية الأولى في القيام بالرحلات قديما، خاصة لدى أهل المغرب العربي، وساكني البلدان النائية عن المدن المقدسة في المشرق العربي، في الحجاز وبلاد الشام، لأداء الحج، والذي يُعَدُّ من أهم الوشائج التي حفزت المسلمين على التواصل مع بعضهم، وعلى بذل الغالي والرخيص للفوز بثوابه[٤].

(١) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨، ٣٩.

(٣) جماليات المكان، ص١٨٣.

(٤) أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، د. نوال عبد الرحمن الشوابكة، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨، =

ولذا، كانت المدن الثلاث المقدسة مقصدا ثابتا لهم، وهي مكة المكرمة وفيها المسجد الحرام قبلة المسلمين، والصلاة فيه بمئة ألف صلاة، وشعائر الحج والعمرة، ويتنسم زائرها عبير السنوات الأولى من بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم المدينة المنورة، حيث الحرم المدني، وثواب الصلاة فيه بألف صلاة، وكل الشواهد على هجرة وإقامة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيها، بجانب قبره الشريف، ومقبرة البقيع، حيث دُفِن كبار الصحابة وأمهات المؤمنين، وفيها مواضع الغزوات الأولى.

ثم تأتي مدينة القدس الشريف، حيث المسجد الأقصى وثواب الصلاة فيه بخمسمائة صلاة. ويعدد ابن الجوزي الكثير من فضائل القدس، فيذكر أنها سميت بالأرض المقدسة في القول الراجح من العلماء، والتي تعني أنها مطهرة، حيث يُتَطهرُ فيها من الذنوب، وهي مسكن الأنبياء والمؤمنين، وجاء بناؤها فوق جبل، يسمى جبل الزيتون[١]، وبه أقسم الله تعالى {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ، وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ}(سورة التين، ١-٣)، وأن شرف المدينة يتأتى من وجود المسجد الأقصى فيها، وقد جاءت تسميته بالأقصى نظرا لبعد المسافة، وفيها مسرى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو المقصود من قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الإسراء،١)، فالأقصى مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة، وقد عرف الخلفاء المسلمون فضلها، ولذا، قدم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من المدينة المنورة، ليتسلم مفاتيحها، بناء على طلب البطريرك، فلما انتهى إليها، دخل المسجد، ومضى إلى محراب داوود فقرأ سجدة داوود وسجد، ثم كتب العهدة العمرية وفيها: إني قد أمنتكم على دمائكم وأموالكم وذراريكم وصلاتكم وبيعكم ولا تُكَلَّفوا فوق طاقتكم، ومن أراد منكم أن يلحق لأمنه فله الأمان، وأن عليكم الخراج كما على مدائن فلسطين[٢]. وذلك لعظم المدينة، ففيها قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وورد في الأثر: من أتى بيت المقدس فليأت محراب داوود، فليصلّ فيه، وليسبح في عين سلوان، فإنها من الجنة[٣]، وهناك سرديات ومرويات كثيرة

=

ص٢٦، ٢٧. ومن أبرز الرحالة الذين كان الحج هدفهم الأساسي: ابن جبير وابن بطوطة، وأبو عصيدة البجائي، وعبد الله بن الصباح الأندلسي. ص٢٧- ٢٩.

(١) فضائل القدس، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: د. جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠، ص٦٧، ٧١.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٤

(٣) المرجع السابق، ص٩٧، ٩٨.

عن فضائل الصخرة المباركة، وعن بركة هذه الأرض، مما جعلها مقصدا للزيارة والصلاة. بل إن هذه السرديات تتواتر في ذاكرة أهل المدينة ذاتها، وعلى نحو ما يذكر ابن الجوزي بأن أرطبون قائد الروم، الذي انهزم في موقعة أجنادين أمام عمرو بن العاص (رضي الله عنه)، رفض السماح لعمرو بتسلم المدينة، وكتب إليه: ".. لا تتعب فإنما صاحب الفتح رجل اسمه على ثلاثة أحرف"، فأدرك أنه عمر (رضي الله عنه)(١).

وما تسلُّم عمر لمفاتيح القدس إلا برهان ساطع على عظم مكانة المدينة، وأن هناك حقيقة مهمة دالة على استقرار المدينة في نهاية الأمر بأيدي المسلمين، لتحظى بالعناية والاهتمام والتقديس التي يليق بها، فالمسلمون يؤمنون بكل الأنبياء، ويعدّون تراث الأنبياء تراثهم، وأن رسالة الإسلام امتداد وخاتمة للرسالات السابقة، فلبّ دعوة الأنبياء هي التوحيد لله سبحانه، وهو عقيدة الإسلام. وهو ينفي مختلف الادعاءات اليهودية التي تنظر إلى تراث الأنبياء على أنه خاص بهم وحدهم، كما يسيئون إلى بعض الأنبياء، ويروون نصوصا من التوراة المحرفة. ولكن التاريخ يدلنا على أن اليهود هم الشعب الأقل

(١) المرجع السابق، ص١٢٣.

في الفترة الزمنية من حيث استيطانهم بفلسطين(٢).

وهذا ما يفسر الصراعات المتتالية من أجل القدس خاصة، وأرض فلسطين عامة، التي تحوي مقدسات مسيحية ويهودية أيضا. وهو المفهوم الذي يؤكد عليه بول ريكور بأن التفسير في التاريخ يعني الإفهام عن طريق الاستعادة. تلك العملية الاستقرائية التي يملأ بها المؤرخون ثغرات في سردهم، من أجل فهم أعمق، ويتم تفعيله، عندما تعجز الوثائق التاريخية عن ملء الفراغات التاريخية(٣).

فقد سعى اليهود إلى استعادة العقود القليلة التي قضوها على أرض فلسطين، ولكنهم صُدِموا عندما وجدوا أن التاريخ ضدهم، فالعقود السبعة التي قضوها في فلسطين، لا تنهض دليلا أمام آلاف السنين التي قضاها العرب فيها، كما أن الشواهد الأثرية تصب كلها في صالح المسلمين، فلم يجدوا أمامهم -كما يقول كيث وايتلام- إلا التفسير السياسي المستند إلى دعاوى يروّج

(٢) الطريق إلى القدس: دراسة تاريخية في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين، د.محسن محمد صالح، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ط٥، ٢٠١٢، ص١٣، ١٤.

(٣) الزمان والسرد: الحبكة والسرد التاريخي، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ٢٠٠٦، ج١، ص٢٧٠.

لها اليهود في محافلهم وأدبياتهم، ولا أساس لها، فلا يمكن أن يكون التراث التوراتي ممثلا لرؤية الماضي، التي تطابق الواقع، وسعوا في المقابل إلى إماتة التاريخ الفلسطيني، بأن فلسطين أرض بلا شعب، يجب أن تعطى لشعب بلا أرض، هو شعب الله المختار. وبالتالي، فإنه من الناحية العلمية، لا قيمة للادعاءات اليهودية، لأنها لم تجد أثرا واحدا دالا على هيكل سليمان في القدس وتحت الأقصى، ولأنها أيضا، بمثابة دسّ للأماني والأحلام الصهيونية في قلب البحوث الأكاديمية الموضوعية، ولا ينبغي بأي حال أن تكون الأمنية شاهدا ودليلا على تاريخ ماض، يمكن بناء حاضر عليه[١].

وعندما نطبق مفهوم ريكور عن ملء فراغات التاريخ عبر الاستعادة، فإن هذا يسقط بالضرورة، في حالة القدس وفلسطين، فكم من الشعوب مرت عليهما، وسكنت في فلسطين، وكان بنو إسرائيل أقلهم، فلم تعد هناك ثغرات في التاريخ المتسلسل المتتابع للقدس، وإنما هي فجوات ضخمة، قد يغطيها ضباب الضجيج السياسي، ولكنه حتما سينقشع عندما تتبين الحقائق التي هي قائمة بالفعل وتحتاج لقوة تظهرها.

إذن، فإن قراءة القدس في منظور أدب الرحلات، لا يمكن أن تنفك عن البعدين: المكاني والزماني، فالأول يعني الشواهد والمعالم والوجود المادي، التي تعبر عن البعد الثاني وهو الزمان، فتراكم الآثار، ووجود شعب يحيط بالمسجد الأقصى، وتمتزج عقيدته وثقافته وعاداته وتقاليده بالأرض المقدسة، لا يمكن أن يمحى تحت أي دعوات. وكما يشير بول ريكور بأن التفسير السببي والفهم عبر الحبكة التاريخية يتطابقان تماما، وهذه النقطة لا تناقش على نحو جدي عندما يبدي الفعل نتائج غير مقصودة، وهي الحالة المعتادة التي يواجهها المؤرخ، فقد يهزم التفسير الحبكة[٢].

وبعبارة أخرى، فإن المؤرخ يسعى لإقامة سردية تاريخية عن القدس، ولكن لا يجد أمامه إلا التاريخ الإسلامي العربي، ومن قبله تواريخ أخرى، تمتد لأكثر من أربعة آلاف سنة، يبحث في ثناياها عن بني إسرائيل فلا يجد إلا نتفات ونثيرات، لا يمكنها تقديم تأريخ متسق ومتتابع. وفي المقابل فإننا -نحن المسلمين- نمتلك الآثار والشواهد والنصوص الدينية، والنصوص التاريخية، ومنها مدونات الرحلات، التي هي بمثابة "الثقاف" وهو القالب المادي والنظري الذي يتقوم به الطبع والرؤية والسلوك، وهو أيضا المخزون التراثي والعقل المدوّن، والذي

(١) اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني، كيث وايتلام، ترجمة: د. سحر الهنيدي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٩، ص٤١- ٤٤.

(٢) الزمان والسرد، ج١، ص٢٧١.

سينتج ثقافا نظريا من خلال مجموعة من التصورات أو التمثلات التي تشكل منظومة فكرية في المجتمع، ثم إنه يتحد مع الثقافة المجتمعية، ويعتمل في ثناياها، فيغذي النبات الثقافي الذي يستمر في النمو والارتقاء، أي يتحد الثقاف المادي مع الثقافة اللامادية لتشكيل روح المجتمع[١].

وإذا نظرنا إلى القدس سنجد أنها تتمتع بالثقاف المادي الضخم، من خلال احتضانها عددا من مقدسات المسلمين: الأقصى، والصخرة المشرفة، ومسجد قبة الصخرة، وكلها معبرة عن سرديات ومعتقدات استقرت في الوجدان الجمعي للمسلمين، وامتزجت بحياة سكان بيت المقدس، وعاداتهم، وتقاليدهم.

وهو ما نجده بجلاء عندما نستعرض ما جاء في رحلة ناصر خسرو، ونقرأ فيها كيف نظر هذا الرحّالة إلى القدس المدينة والمجتمع والمقدسات، لتنهض بوصفها وثائق معبرة عن تاريخ حي فاعل، كان ولا يزال، وسيظل، لا يمكن إسكاته بدخان ينفثه أصحاب مشروع استعماري، يريدون أن يفرضوا بالقوة القهرية، ما ينفيه علم الآثار، والتاريخ المسرود، والواقع المشهود.

---

(١) الثقافة والزمن: مدخل إلى أشكال انجلاء العنصر الثقافي، د. محمد شوقي الزين، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع١٧٥، ٢٠١٨، ص٨-١٠.

ناصر خسرو؛ الشخصية والرحلة:

تُعدّ رحلة ناصر خسرو قبادياني (ت٤٨١هـ) من أبرز الرحلات التي سجلت مشاهدات دقيقة لمدينة القدس، فقد عاش في القرن الرابع الهجري، عندما كانت القدس في قمة عمارتها، ومقصدا للزيارة والسياحة. وتقع حوادث رحلته بين سنة ٤٣٧ وسنة ٤٤٤هـ، حيث جال فيها غالبية بلاد المشرق العربي، بدءا من بلاد إيران، من مرو في خراسان، مارا بأذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر، والحجاز ونجد وجنوبي العراق، ثم قفل راجعا إلى إيران، منتهيا إلى مدينة بلخ في خراسان.

وُلِدَ ناصر خسرو لأسرة متوسطة الحال والثروة في العام ٣٩٤هـ، حيث تثقف ثقافة واسعة جمعت الأدب والفلسفة؛ أهّلته ليكون في خدمة الملوك والأمراء.

جمع خسرو في شخصيته روح الأديب والمفكر والفيلسوف، بما جعله متعاطيا مع الأفكار والمذاهب السائدة في عصره، خاصة أنه عاش في إقليم خراسان بفارس، وهو إقليم شهد صراعات مذهبية، ودينية وشعوبية، وكما يصفها شمس الدين المقدسي بأنه " أكثر الأقاليم علما وفقها وبه يهود كثيرة، ونصارى قليلة، وأصناف المجوس، وأولاد علي فيه على غاية الرفعة، ولا ترى فيه هاشميا إلا غريبا، ومذاهبهم مستقيمة، غير أن الخوارج بسجستان ونواحي هراة كروخ

واستربيان كثيرة، وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة، وللشيعة والكرامية بها جلبة، والغلبة في الإقليم أصحاب أبي حنيفة... ونيسابور أيضا شفعاوية (نسبة لمذهب الإمام الشافعي)، وبرساتيق هيطل أقوام يقال لهم بيض الثياب، مذاهبهم تقارب الزندقة، وأقوام على مذهب عبد الله السرخسي لهم زهد وتقرب، وأكثر أهل ترمذ جهمية، وأهل الرقة شيعة، وأهل قندر قدرية"[١]، وكأن خراسان أرض جامعة لمختلف الأديان الكتابية والوضعية، والعديد من المذاهب السنية والشيعية، بما يعني صراعات في الأفكار، في ضوء انتشار دعاة كل مذهب ودين، مع وجود ملوك وسلاطين تحمي المذاهب الكبرى، وتدعم دعاتها وعلماءها، في الوقت الذي تحارب المذاهب الأخرى المعارضة لها.

لقد عايش خسرو الصراع الفكري والروحي والمذهبي في عصره، حيث أقيمت دول على أسس مذهبية، مثل دول البويهيين الشيعية، والخلافة الفاطمية في مصر المؤسسة على المذهب الإسماعيلي، بجانب الخلافة العباسية السنية الضعيفة في بغداد، وتناصرها السلطنة الغزنوية السنية في فارس والهند، ودولة السلاجقة السنية في العراق. وكانت أزمة خسرو هي الحيرة وسط تصارع المذاهب: السنية والشيعية، فإذا اختار أحدهما، فإلى أي فرقة من فرقهما يتبع؟ في الوقت الذي ارتفع شأن المذهب الفاطمي، وانتشر دعاته في كل مكان، على نحو دقيق ومنظم، وعادَتْهم بقوة الدولة السلجوقية والغزنوية، وضربوا بكل قوة على أيدي كل دعاتهم المنتشرين في البلدان[٢].

كما كان للصراع بُعدُه الشعوبي (القومي) أيضا، فلا يمكن فصل عامل القومية في تطور المشرق الإسلامي وقيام العديد من الدول به، فقد نقلت الخلافة العباسية السلطان من يد العرب إلى الشعوب المغلوبة المتحضرة، وتركت للقوميات التركية والفارسية وغيرها حرياتها، مما أدى إلى اشتداد العامل القومي، حيث أقيمت دول عديدة مثل الدولة الصفارية والدولة الطاهرية والدولة السامانية في بلخ، ثم أقيمت دولة السلاجقة

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة بريل، مدينة ليدن، لندن، ١٩٠٩، ص٣٢٣.

(٢) الحياة السياسية في الشرق الإسلامي أيام ناصر خسرو، د. يحيي الخشاب، في مقدمة ترجمته لكتاب: سفر نامة، ناصر خسرو علوي، ترجمة: د. يحيي الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣، ص١٥، ١٦. وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب المترجم، في العام ١٩٤٣.

والغزنويين[1] وكلها دول غلب عليها المذهب السني، وكانت تدين بالولاء للخلافة العباسية (الضعيفة) في بغداد، وحرص ملوكها على

---

(١) العالم الإسلامي في العصر العباسي، د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، دال الفكر العربي، القاهرة، ط٥، د ت، ص٢٩٦، ٢٩٧. وإن كنا نتحفظ على نعت المؤلفيَن لهذه الشعوب بأنها بربرية، وأنها تمثل غارات بربرية أعجمية على الخلافة الإسلامية (العربية)، بعضها له حضارة قديمة، مثل الفرس، وبعضها لا حضارة عنده مثل الترك وهذا النعت يشمل الشعوب غير العربية في المشرق وأيضا في المغرب. وهما يطرحان فرضية بأن العالم الإسلامي تحت الشعوب غير العربية تأخر حضاريا كثيرا، لأنها ورثت الخلافة الإسلامية عن العرب. (ص٢٩٨). والحقيقة أن هذه الدول كان لها أدوار مهمة في حماية الثغور الإسلامية، وهو ما أشار إليه المؤلفان بعدئذ، حيث ذكرا أن الدولة الغزنوية كانت سببا في نشر الإسلام في الهند، وأن السلاجقة حموا الخلافة العباسية في بغداد وواجهوا المد الشيعي، كما دافعوا عن ثغور الإسلام في جبال طوروس، كما أن المماليك وكانوا غير عرب واجهوا المغول، وأيضا الصليبيين. (ص٢٩٩-٣٠١)، وهو ما يمثل تناقضا في الرؤية وإصدار الحكم، وانحياز واضح إلى الجنس العربي، الذي أصيب بالتأخر الحضاري والسياسي، في مقابل صعود جنسيات وقوميات أخرى. ونرى أن معيار الحكم يتمثل في أن هذه الشعوب غير العربية خدمت الإسلام وحمت الثغور، وواجهت هجمات المغول والصليبيين والروم، أما الإضافة الحضارية فهي كانت قائمة وحادثة، كما نرى في فنون الحضارة في عهد السلاجقة والأيوبيين والمماليك ثم العثمانيين، وهناك كتب كثيرة فصّلت في ذلك.

نيل اعتراف الخلافة العباسية بها، وبشرعيتها، فالخلافة كانت علامة على وحدة المسلمين، ومصدرا لشرعية الحكام وحكمهم، وقد استفادت الخلافة العباسية من هذه الدول في مدّ وجودها إلى القرن السابع الهجري، وفي حماية تغور العالم الإسلامي، وحماية الإسلام نفسه، والمذهب السني بعكس الدول التي أقيمت في المغرب الإسلامي[2].

فالنصوص السردية الكلاسيكية في تراثنا العربي - كما يقول شعيب حليفي- تتمتع بخاصية قدرتها على تمثل عصرها بشكل من الأشكال، وأيضا تكشف عن شخصية مؤلفها ورؤاه، كما تعرفنا باهتماماته وغاياته[3]، وهو ما نجده بوضوح في كتاب سفر نامة لناصر خسرو، فالسرد فيه جاء بضمير المتكلم، على مستوى الوصف والحدث والمفارقات، على ما درجت عليه كتب الرحلات، في أسلوبها السردي الذاتي، وكأن مدونات أدب الرحلة في تراثنا العربي بمثابة المرآة الكاشفة عن شخصية المؤلف وتوجهاته، فهو يصف ما يراه

---

(٢) تاريخ الدولة المستقلة في المشرق عن الخلافة العباسية، د. عطية القوصي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣، ص٨، ٩.

(٣) الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، د. شعيب حليفي، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١١٩.

من معالم المكان، وطباع الشعوب، في ضوء ثقافته الخاصة، وهو ما يدفعنا إلى إعمال منهجية التحيز Bias، حيث يمكن قراءة مدونات الرحلات قديما وحديثا في ضوئها، فالتحيزات تَعرَّف بأنها اتجاهات الشخص الباحث أو المؤلف نحو القضايا والشخصيات والجماعات الإنسانية، وهي أمر موجود في جميع البحوث، إما أن تكون بتعبيرات وألفاظ جلية، أو تكون مستترة، وربما تكون هناك صعوبة ما في التوصل إليها، ولكنها حتما موجودة، ولابد من وضعها في الحسبان، بل يجب أن تكون ضمن التقييم النقدي للنص موضع الدراسة [١]، فلا نسلّم بالآراء ولا المعلومات التي يبثها المؤلف في نصه، وهذا نلمسه في ما سطّره خسرو في كتابه، وأشار إليه يحيي الخشاب في دراسته عنه، حيث نبّه الخشاب إلى إشادة خسرو كثيرا بالمعالم الدينية في مصر الفاطمية، وبنظام الحكم، وأحوال الناس، وبالغ في الوصف والمدح بعبارات عديدة، صحيح أنه لم يشر في ثنايا متن رحلته إلى اقتناعه بالمذهب الفاطمي، ولكن هذا ذكره في كتبه الأخرى وفي ديوانه الشعري، ومنها تفتّح أبواب الحكمة له، وعرف الظاهر والباطن، واهتدى إلى إمام أهل الزمان وهو الخليفة الفاطمي المستنصر، ويصفه بأنه جوهرة تاج الرسالة، ومفخرة الإنس والجن، ويشبّه الإمام بالنهار الذي يضيء الضمائر المظلمة مثل الليل، وأنه ولج المذهب عن اقتناع وإيمان[٢].

وقد جاءت رحلة خسرو في مستهل تغير روحي وفكري مرّ به، وربما يكون هذا دافعا لخسرو من أجل رحلته، وكما يصنّف شعيب حليفي الرحلات إلى أنواع، فإن رحلة خسرو تنطبق عليها ما أشار إليه حليفي بأنها "نصوص رحلية في الوجود الفيزيقي تستند إلى مرجعية ملموسة في الزمان والمكان وأحداث في الواقع مصبوغة بخصوصيات تشترك فيها، بالإضافة إلى أنها تفرز أنواعا تتحدد انطلاقا من الحافز الذي وجّه أحداث النص قبل تدوينها"[٣]، وبالفعل هذا ينطبق على رحلة خسرو، فهي واقعية في أحداثها، ولكن دافعها كان روحيا على نحو ما يقول في مطلع كتابه "سفر نامه" بأنه ترك حياة الدعة والترف، والانكباب على اللذات، بعدما جاءه حكيم في المنام، وكان خسرو يعيش في مدينة جزجانان، منكبا على الخمور، فسأله الحكيم: إلى متى تشرب هذا الشراب الذي يسلب لب الرجال؟ خير لك أن تصحو". فأجاب

---

(1) Bias in research, Joanna Smith, Helen Noble, Evid Based Nurs October 2014, volume 17. number 4, p100.

(٢) الحياة السياسية في الشرق الإسلامي أيام ناصر خسرو، د. يحيي الخشاب، ص٣٠- ٣٣.

(٣) الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ص١٢٠.

خسرو: إن الحكماء لا يستطيعون شيئا غير هذا يقلل هموم الدنيا". فأجاب الحكيم: "إن التسرية عن النفس لا تتأتى بفقد الشعور والعقل، والحكم لا يستطيع أن يقول إن الرجل المسلوب الفؤاد يصلح هاديا للناس، بل ينبغي عليه أن يبحث عما يزيد العقل والحكمة". فتساءل خسرو: وأنى لي هذا؟" . قال الحكيم: من جدّ وجد. فلما كان اليوم التالي، إلا وقد استيقظ، واغتسل، وذهب إلى الجامع وصلى ركعتين لله، وعزم على تغيير حياته، سائلا الله أن يعينه على ترك المنهيات والسيئات، وعلى أداء الواجب، ثم عزم السفر مرتحلا في الأرض، زائرا المدن والبلدان[١].

فكأن هذه الرحلة بمثابة رحلة روحية، أراد بها أن يتطهر، ويسعى باحثا عن الحكمة، تاركا في ذلك شهرة ومنصبا، وكما أشار في مستهل كتابه بأن صناعته كانت الإنشاء، وكان من المتصرفين في أموال السلطان وأعماله، كما اشتغل بالديوان مدة من الزمن، وذاع صيته بين أقرانه[٢].

لندرك أنه حاز من الدنيا المكانة والمال، فضلا على امتلاكه الموهبة الأدبية، فصار كاتبا في الديوان، بجانب عمله المالي بوصفه أحد مسؤولي بيت المال، فقد كان ملتحقا بخدمة الدولة الغزنوية وهي دولة سنية كبيرة، ولها فتوحات عظيمة في الهند، وتحديدا لدى السلطانيين الغزنويين محمود، ثم ابنه مسعود. فسافر إلى الهند معهم، ثم عاد إلى بلاد فارس، ليلتحق ببلاط دولة السلاجقة السنية في العراق وفارس، فخدم جيفري بيك السلجوقي حاكم خراسان، وتولى أمر خزانته في مرو مدة طويلة، حتى نُسِب إليها[٣]. فهو يقف على رصيد كبير من العلوم والمعارف، والخبرات بالحياة، وهو ما انعكس على طريقة صياغته لكتابه في أدب الرحلة، فهو يشير إلى فنون العمارة والعمران، ولديه إلمام بالهندسة والحساب، مع معرفة عميقة بالمذاهب والأفكار والجماعات الصوفية، وهو ما ظهر في شذرات وإضافات في نصه، وإن لم يتعمد الإشارة إليها بشكل صريح، فقد كان واعيا أن كتابه يقع ضمن أدب الرحلات، وقد ينفر القارئ من العبارات المباشرة عن المذهبية والآراء الفكرية.

نهج الكتاب وأسلوبه:

يبدو كتاب سفر نامة الذي بين أيدينا الآن نصا واحدا؛ إلا أنه في الواقع نتاج لثلاث مراحل في رحلة خسرو خلال ست سنوات، أي أن النص وإن كان ظاهره دالا على أنها رحلة واحدة في مرحلة متصلة، ولكن الواقع

(١) سفر نامة، ناصر خسرو علوي، ص٤٣، ٤٤، ٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص٤٣.

(٣) الرحالة والرحالة المسلمون، د. أحمد رمضان أحمد، دار البيان العربي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص٢٣٩.

الفعلي أنه حصيلة رحلة طويلة زمنيا وجغرافيا، جاءت في ثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى كانت من مرو في ربيع الآخر سنة ٤٣٧هـ، وانتهت ببلوغه القاهرة في ٧ من صفر سنة ٤٣٩ هـ. والمرحلة الثانية هي إقامته الطويلة في مصر لمدة ثلاث سنوات، من صفر سنة ٤٣٩هـ، إلى أواخر جمادى الثاني سنة ٤٤٢هـ. والمرحلة الثالثة تبدأ من رحيله عن مصر متوجها إلى مدينة بلخ(أقصى شرق إقليم خراسان)، عبر الحجاز وفلج والحسا والبصرة، وتنتهي في جمادى الآخر سنة ٤٤٤هـ(١)، والظاهر من مسارات رحلاته المكانية والزمانية أنه زار القدس في المرحلة الأولى، وهو في طريقه من العراق إلى الشام كي يستقر في مصر. وكما يذكر يحيي الخشاب فإن ناصر خسرو اقتنع بالمذهب الفاطمي، وذلك بعد انقضاء رحلته، وإقامته الطويلة في مصر في عصر الخلافة الفاطمية، حيث أصبح واحدا من أبرز رجالاتها ودعاتها، ولذا فقد آثر في رحلة العودة الذهاب إلى مكة المكرمة، ليقيم فيها ستة أشهر، دون أن يدفع المكس (الضريبة) المطلوبة لأمير مدينة جدة، نظرا لأن الحجاز كان تابعا للخلافة الفاطمية في مصر، بما يدل على سمو مكانة خسرو، وأنه قد حظي بصفة خاصة جعلته يتنقل بحراسة مصاحبة له، ظهرت بوضوح وهو يغادر مكة إلى الحسا (الإحساء) وسلك طريقا فيه كثير من الأعراب سفاكي الدماء، حيث مرّ بالطائف ومطار والثريا وجزع وسربا وفلج واليمامة، حتى وصل إلى الحسا، واستغرقت رحلته تسعة أشهر(٢)، وتنقّل آمنا محاطا بالرعاية والحماية والنفوذ الفاطمي في هذه المناطق.

على صعيد آخر، لا يمكن أن نفصل أصله الفارسي في رؤية ناصر خسرو وكتاباته، فهو على قدر اعتزازه بالإسلام -بغض النظر عن مذهبه- فإنه كان متشبعا بالثقافة الفارسية وفنونها، فقد كان من أعظم الشعراء باللغة الفارسية وأغزرهم مادة وإنتاجا، وصنّف بالفارسية الكثير من المؤلفات، المنظوم والمنثور، منها الديوان، وسعادت نامة، وروشنائي نامة، بجانب مؤلفه في الرحلات الذي خطه بالفارسية وهو زاد المسافرين، وخوان الإخوان، والرسالة، ووجه ودين، أما كتابه سفر نامة، فقد ترجمه عن الفارسية المستشرق شارل شيفر، ثم ترجمه عن الفرنسية يحيي خشاب (٣)، وهي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث.

---

(١) الحياة السياسية في الشرق الإسلامية أيام خسرو، د. يحيي الخشاب، في مقدمة كتاب سفر نامة، مرجع سابق، ص٢٦.

(٢) مقدمة د. الخشاب، المرجع السابق، ص٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤٢، ٢٤٣. ونتيجة إتباعه المذهب الفاطمي الإسماعيلي، فإنه كتب كتابا عنوانه: كشايش ورهايش، ومعه كتاب وجه ودين، =

ويتضح في أسلوب خسرو الكتابي بما عرف عن الفرس من حب العمارة والزخارف وتذوقها؛ وظهر ذلك في مواضع عديدة في نص رحلته، حتى أصبحت ملاحظاته وآراؤه عن الآثار والفنون في رحلته مرجعًا أساسيّا للمشتغلين بالفنون الإسلامية. فنراه يتحدث بدقة وتفصيل عن مراكز الصناعات والفنون المختلفة، ويصف المساجد، والقصور والخانات وغير ذلك من مفاخر العمارة الإسلامية[١]،

كما يظهر ذلك في حرصه على الإشارة إلى التاريخ الفارسي في مواضع عديدة من كتابه، بعد ذكر التاريخ الهجري. فهو في مستهل رحلته يذكر: " في يوم الخميس السادس من سنة ٤٣٧هـ، منتصف شهر دي (يناير- ديسمبر) من السنة الفارسية ٤١٠ من التقويم اليزدجردي"[٢]، بل ويصرّح في موضع آخر:" وفي الخامس من المحرم سنة ٤٣٨هـ، الموافق العاشر من شهر مرداد من تاريخ الفرس، توجهت ناحية قزوين، فبلغت قرية

=

وقد أراد فيهما تقليد غياث صاحب كتاب البيان، وهو عن فقه الدعوة الباطنية الإسماعيلية وموقفها من الجهاد والإمامة وأركان الإسلام. وقد ظل إلى نهاية حياته داعيا مخلصا للمذهب الإسماعيلي، ودُفِن في مدينة يمكان، ويؤم قبره الإسماعيليون النزاريون من آسيا الوسطى وفارس.

(١) الرحلة والرحالة المسلمون، ص٤٧.

(٢) سفر نامة، نص الرحلة، ص٤٤.

قوهة، وكان بها قحط، حتى بيع المن من خبز الشعير بردرهمين"[٣]

وربما يعود هذا إلى كون النص موجها إلى القارئ الفارسي، فأراد المؤلف ربط القارئ بالتقويم الزمني الذي يعرفه، بجانب التقويم الهجري المعتمد في العالم الإسلامي، وهو ما يدفعنا إلى ضرورة أن نراعي بعد التلقي في قراءة مثل هذا الكتاب، وأنه ليس موجها إلى القارئ العربي في الأساس.

وإذا نظرنا إلى أسلوب خسرو في نص رحلته نلاحظ أنه متسق تماما مع طبيعة تنقلاته، بمعنى أنه لم يذكر إلا ما رأى أو ما سمع، وحسب فترة مكوثه -طال أم قصر- في المدينة أو البلدة، حيث عمد خلال أسفاره إلى تسجيل مشاهداته عن المدن والبلدان التي زارها، واجتهد في تقديم معلومات عن أبرز معالمها، وإن جاءت في كثير من المدن بصورة مجملة، ولكنه كان أمينا في تدوينه، فما رآه رأي العين نصّ على ذلك في كتابه، وما سمع عنه يذكر أن العهدة على الراوي.

فهو يتنقل بين البلدان: القرى والمدن، الوديان والهضاب والسهول، غير مستقر ولا مقيم في أي منها، وكأن غايته الوصول إلى القدس والإقامة فيها فترة طويلة، بما يؤكد على أن غايته كانت دينية وحسب، ولم يكن

(٣) السابق، ص٤٧.

في حسبانه التقرب إلى الدولة الفاطمية، وكما يشير يحيي خشاب فإنه بدا في المرحلة الأولى من الرحلة رجلا محبا للعلم والتفقه في الدين، ويتواصل مع العلماء فيتعلم منهم ويناظرهم، سواء كانوا من الشيعة أو السنة[١]. ولذا جاء وصفه لما مرّ به موجزا قصيرا، بعكس ما سنرى من وصفه لمدينة القدس الذي جاء عميقا مفصلا، يقدّم معلومات وفيرة بوصف بصري.

فلم يسجل خسرو خلال رحلته إلا ما رآه أو سمع عنه من المدن والبلدان، وبالطبع لم يعتمد على ذاكرته، وإنما كانت أوراقه وأقلامه وأحباره معه، لأنه يسجل بالتاريخ واليوم كل ما يشاهده، بما يدل على أنه كان مستهدفا لكتابة نص رحلته، مجتهدا قدر استطاعته في تدوين المعلومات بشكل دقيق، وهو ما يعطي مصداقية عالية لنصه الرحلي، لأنه لم يعتمد على الذكرى والذاكرة، بكل ما يمكن أن يصيبها من نسيان أو فقدان المعلومة، أو ضياع المَعْلم من الذاكرة البصرية، وإنما كتب وهو سائر، وأيضا وهو مقيم، واحتفظ بأوراقه، حتى صاغه في كتاب مكتمل هو الذي بين أيدينا.

فينطبق على أسلوبه في تسجيل رحلته ومروره العابر في البلدان ما أسماه شعيب حليفي بـ "سردية العبور" والتي يمثّلها الانطلاق والمسير في رحلة فعلية.. ذهابا وإيابا، متضمنة المتواليات والتمهيد، والعامدة إلى التقديم والتعريف، وإلى الأحداث العارضة، بحيث يحتوي كل نص في العموم سردية العبور إلى الحكاية والفعل والأحداث، أفقيا وعموديا. أما العبور المادي فيرسم وتيرة متوسطة السرعة للسرد في النص الرحلي؛ تشرئب نحو الحركة المدورة محور الرحلة، وهو ما يعكس نفسية الرحّالة- الراوي المتطلعة للوصول إلى الهدف[٢]. فنص الرحلة متميز في بنيته النصية بذكر طرق السفر في تتابع زمني ومكاني، بحيث يكون القارئ مدركا مسار الرحلة بشكل عام، وذلك خلال مساري ذهابه وعودته، فتلك هي بنية نص الرحلة بأن يكون شاملا للذهاب والإياب، وأيضا تفاصيل التنقلات والبلدان، فيما تختلف طبيعة الوصف في النص ما بين وصف سريع، يشير إجمالا، بما يعني أن الرحالة لم يتوقف كثيرا في هذا الموضع، أو أن هذا الموضع ليس بالأهمية التي تستدعي أن يسهب القول فيها، وإنما يدخر التفصيل، والقول العميق في المدن الكبرى، حيث المعالم المميزة، وتقاليد الشعوب المدهشة.

---

(١) مقدمة د. يحيي خشاب في الكتاب، ص٢٦، ٢٧.

(٢) الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ص٢١٤، ٢١٥.

وهو ما نجده واضحا في سفر نامة، فقد توافر في النص بيان عن مسارات الارتحال، فتراوح النص ما بين الإجمال والتفصيل. فالإجمال يبدو في الإشارات السريعة التي يذكرها عن أحداث ووقائع سفره، وأيضا أبرز المعلومات عن سير الرحلة، فمثلا يقول واصفا بدء رحلته: " في الثالث والعشرين من شعبان عزمت على السفر من نيشابور، فسرت من مرو إلى سرخس، وهي على ثلاثين فرسخا منها، ومن سرخس إلى نيشابور أربعين فرسخا، وقد بلغتها يوم السبت الحادي عشر من شوال. ويوم الأربعاء آخر هذا الشهر كُسِفتْ الشمس، وكان الحاكم يومئذ طغرك بيك محمد، أخا جغري بيك(أحد حكام السلاجقة)، وكانوا يشيدون مدرسة بقرب سوق السراجين، أمر ببنائها، وقد ذهب أثناء ولايته لأول مرة للاستيلاء على أصفهان"[١].

الاستشهاد السابق هو نموذج على ما دأب عليه خسرو في تدوينه لرحلته، حيث يحرص على استيفاء الزمان بذكر التاريخ الهجري بصفة دائمة، لأنه التاريخ المعتمد في التعاملات بين كافة الأقاليم المسلمة، فبدأ مسيرته من مدينة نيشابور (نيسابور) وهي واقعة في إقليم خراسان شمالي شرق إيران؛ قرب العاصمة الإقليمية مشهد. وكانت تُعَدّ من أبرز المدن في التجارة والثقافة والعلم في بلاد فارس قديما، وبالطبع هي نائية عن وسط العالم الإسلامي، حيث البقاع المقدسة في بلاد الشام والحجاز، وأيضا عن العواصم السياسية ومراكز العلم، مثل بغداد والقاهرة وحلب ودمشق، مما يصعب على قاطني هذه المدن النائية السفر إلى قلب العالم الإسلامي، ومن هنا ندرك سبب حرص خسرو على تدوين رحلته، والتوجه بها إلى قرائه باللغة الفارسية، هؤلاء الذين يسمعون حكايات عديدة عن الحرمين الشريفين في الحجاز، والمسجد الأقصى في القدس، ناهيك عن معالم بقية البلدان وسمات أهلها.

كذلك يحدد خسرو أزمنة وصوله إلى البلدان المختلفة في طريقه، كما يحدد مسافات السير، وفق القياس المعتمد وقتئذ وهو الفرسخ (حوالي خمسة كيلو مترات تقريبا)، كما يشير إلى أبرز الظواهر الفلكية التي استرعت انتباهه وهو كسوف الشمس في أحد أيام الأربعاء، وهي ظاهرة تكسب نصه مصداقية، لأن القارئ في عصره وموطنه سيتذكر مثل هذا اليوم الذي مرّ به، فيربطه مع رحلة خسرو.

وأيضا يتعمد خسرو الإشارة المجملة إلى الحكام السلاجقة، وما قاموا به من فتح وقتئذ لمدينة أصفهان، وأيضا عملهم على بناء إحدى المدارس في المدينة.

(١) سفر نامة، نص الرحلة، ص٤٥.

فالأزمنة والمسافات والبلدان كلها تقع ضمن نطاق الثقافة الحضارية الإسلامية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي وقتئذ، كما أن الإشارات التاريخية تعطينا معرفة بالظروف السياسية السائدة في إقليم فارس، وقد دأب خسرو في نص رحلته على مثل هذه الإشارات إمعانا في التوثيق التاريخي، وتعميقا لمعرفة القارئ عن طبيعة رحلته. ذلك هو أسلوب خسرو في سرد رحلته، حيث يتعمد ذكر الزمن، والمسافة التي قطعها، أو التي تفصل مدينة عن أخرى، بجانب أبرز ما لاحظه في المواضع التي مر بها، وما استرعى انتباهه من غرائب، كما أنه يتعمد ما يمكن أن نسميه " مناسبة الزمن في السرد الرحلي" والذي يعني أن وصفه لِما يمرّ به، يتسارع عندما يكون مروره سريعا بالمكان فيكون إشارة سريعة، ثم يتباطأ عندما يكون مروره بالموضع بطيئا، بأن يتوقف لحاجة، أو تنوخ القافلة للحصول على الماء أو الراحة، فيكون وصفه أكثر دقة، لما رآه في المكان، وما سمعه من الناس أو من رفاقه في الرحلة، ولعل خير مثال على ذلك وصف خسرو لمدن الشام وساحله وقراه، وما جذب انتباهه[١].

أيضا، فإن خسرو يلتقي مع غيره من الرحّالة المسلمين، الذين دأبوا على تسجيل مختلف المعلومات عن المدن والأمصار والقرى، من خلال إعطاء نظرة موجزة عن تاريخها، أو وصف مظهرها، أو ما امتازت به وانفردت عن باقي المناطق، وتسجيل ما يراه من ظواهر تنفرد بها عن غيرها من البلدان[٢]، بما يعني أن الشق المعرفي لا ينفصل عن رغبة الرحّالة، الذي لا يكتفي بالاطلاع بنفسه على ما يراه، وإنما يعمد إلى تسجيله في كتابه؛ إفادةً للقارئ من ناحية، ومزيدا من المصداقية من ناحية أخرى.

وكما يذكر أحمد رمضان فإن كثيرا من نصوص الرحلات صيغت بأسلوب جذاب، حاوية موادا وعلوما ووصفا، وساهمت في معرفة المسالك والممالك الموصلة بين أقطار الدولة الإسلامية مترامية الأطراف، بجانب الأغراض الشخصية للرحالة أنفسهم، والمتمثلة في السياحة واكتساب المعارف، والتعرف على العلماء والشيوخ، وتأدية فريضة الحج[٣]، حيت تظل مدونات الرحّالة بوصفهم شهود رؤية أصدق قيلاً، وأقوى تأثيراً؛ ممن سمع أو قرأ أو

(١) المثال على ذلك ما ذكره خسرو عن بلاد الشام خلال تنقله بين مدنه وقراه، الصفحات ٥٧ - ٦٧.

(٢) فوائد علمية وحقائق تاريخية من خلال الرحلة الناصرية لأحمد بن ناصر الدرعي، د. محمد كنون، بحث منشور ضمن أعمال ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المملكة المغربية، ١٩٩٣، ص٣٦٠.

(٣) الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٣٥، ٢٣٦.

استنبط[1]، وبذلك يمكن قراءة نصوص الرحلات عامة، ونص رحلة خسرو خاصة في ضوء الإشارات المعرفية العديدة التي تزخر بها، فلا شك أن التدوين الناتج عن الوصف بالعين المجردة، يعطي مصداقية عالية للقارئ، طالما كان الرحّالة حريصا على دقة التفاصيل، وأمانة القول، وعدم المبالغة في النعوت، وهي القراءة التي تعطينا الواقع التاريخي على الأرض، وما تميزت به القدس في الحقبة الزمنية التي زارها سكانيا وعمرانيا واجتماعيا.

خسرو ووصف القدس:

كانت مدينة القدس غاية لخسرو، وقد مكث فيها حقبة طويلة من الزمن، كما هو واضح في النص، حيث زار معالمها، وتعرّف على بعض عادات أهلها، وقد أفاض وصفا وإسهابا في الحديث عن عمرانها، ومن خلال وصفه ندرك الكثير عن عمارة المدينة بأسلوب تتجلى فيه ما يطلق عليه شعيب حليفي بـ "سردية الوصول" وفيها يتكثف السردي مشبعا بآفاق أخرى، وبحرصه على التشخيص الدقيق، سواء تعلق الأمر بما هو روحي - ديني، أو تقريري وتبليغي وسفاري، أو علمي وأدبي، وغيره. ففي هذا المستوى يصبح السرد متوازنا ومتضمنا أشكال الوصف والتعليق والتأمل والمقارنة والتمثل. فالسرد بهذا المعنى هو خطاب بنى أساسية ومستويات ويشكل نسقا متماسكا يختزن بداخله طبقات قولية دلالية متلونة ومتدرجة في سرعتها وبطئها وفي حركتها وسكونها[2]. فمفهوم سردية الوصول هو المقابل لسردية العبور، فالأول يعني البقاء والعيش فترة من الزمن، خاصة إذا كان في مدينة مثل القدس، تتمتع بمكانة دينية سامية عند المسلمين، أما الثاني فهو مجرد عبور في المكان، وفترة قصيرة في الزمان، لا يسمح للرحالة بتفصيل القول وتعميقه، وهو ما يجعل سرده الرحلي موجزا، بعكس سردية الوصول التي تجعل شخص الرحالة في حالة تواصل نفسي واجتماعي ومعرفي مع أهل المدينة، فضلا عن زيارته المتأنية والمتابعة لمعالمها، ورصده لحركة العمران والتجارة والمنتجات فيها، وكل هذا ينعكس إثراء على مدونته في الرحلة، حيث لا يكتفي بالسرد وإيراد المعلومات، وإنما يعمد إلى المقارنة بين المدينة وغيرها من المدن، على مستوى العمران، وطبائع السكان، وما تتميز به من معالم، وطرقات، وبيوت، وأطعمة، وأزياء.

أما عن رحلة خسرو إلى مدينة القدس، فكما يذكر في رحلته، بأنه قد وصل إلى المدينة في شهر رمضان سنة ٤٣٨هـ، بعد

(١) السابق، ص١٣.

(٢) الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ص٢١٧، ٢١٨.

سنة شمسية من خروجه من بلده، حيث واصل سفره دون إقامة دائمة في أي بلد، واضعا رحاله في مدينة القدس. يقول: "وطوال رحلتنا لم نقرّ في مكان قط، ولا وجدنا راحة كاملة. وأهل الشام يسمون بيت المقدس "القدس"[١]. فمكانة القدس سامية في نفوس المسلمين قاطبة، حيث تحظى بالزيارة المستمرة، ويعتز أهل الشام بتلك المدينة المقدسة التي تحتضنها بلادهم، وكلتا التسميتين: بيت المقدس والقدس دالتان على القداسة في نفوس أهل الشام، وربما اتخاذهم تسمية القدس بديلة عن بيت المقدس تسهيلا في النطق والدلالة.

وفي إشارة خسرو إلى أنه ظل مواصلا سفره دون توقف أو إقامة متنقلا بين بلدان الشام، حتى استقر في القدس لتكون مقصده وموطن إقامته في ارتحاله.

كما يشير إلى أن القدس مقصد أيضا للنصارى، حيث يأتي " من بلاد الروم كثيرٌ من النصارى واليهود، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش هناك" [٢]، بما يعني أن القدس هي مدينة مفتوحة للأديان الثلاثة، ولم يحدث طيلة تاريخ القدس تحت حكم المسلمين أن مُنِعَ اليهود أو النصارى من زيارة مقدساتهم، فالمسلمون، ووفق العهدة العمرية، حافظوا على مقدسات النصارى واليهود، ولم يمنعوا الحج إليها في أية فترة من الفترات، وهو ما يناقض تاريخيا الأساطير الكاذبة التي روجتها كنائس أوروبا، وعلى رأسها الفاتيكان، حيث أشعل البابا أوربان الثاني شعوب أوروبا وأمراءها ضد حكم المسلمين، بحجة أنهم يمنعون المسيحيين من زيارتها، وكانت المحصلة قرنين من الحملات الصليبية المتتابعة على بلاد الشام، تحت شعارات دينية زائفة، وأسفرت عن جرائم إبادة مروّعة ضد المسلمين الذين احتموا بمسجد قبة الصخرة وغيره، وكانت الأهداف الحقيقية استعمارية طامعة في ثروات الشرق التي ستدر سمنا وعسلا على الغرب، وستكون كفيلة بتوحّد أمراء الإقطاع الأوروبي المتقاتلين في الغرب ضد هدف مشترك في الشرق، مع تمزيق وحدة أراضي المسلمين بالسيطرة على الشام[٣].

والشاهد هنا أن الدعاية الصليبية بُنيت على أسس زائفة، ولعبت على وتر الصراع الديني بين المسيحية والإسلام، وما أسهل إشعال العاطفة الدينية لدى العامة، دون النظر إلى عواقبها، وكما يذكر محمد عمارة، فإن نفس هذه الدعايات هي التي ارتكزت

(١) كتاب سفر نامة، نص الرحلة، ص٦٧.

(٢) السابق، ص٦٧.

(٣) القدس أمانة عمر.. في انتظار صلاح الدين، د.محمد عمارة، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩، ص٨ - ١٦، وأيضا ص٤٢ وما بعدها.

عليها الحركة الصهيونية الحديثة في تأجيج مشاعر الغرب ورصيد الكراهية والتعصب الممقوت المتوارث منذ الحملات الصليبية، مع مزجها بالأساطير اليهودية، فإذا كانت القدس قبلة للمسيحيين، فإن هذا لا يوجب عليهم أن يحتلوها[١]، وتمثل رحلة خسرو شهادة صادقة على واقع الحال في مدينة القدس، وأنها مفتوحة للديانات الثلاثة، بعكس الدعايات السوداء التي أفنت مئات الآلاف في حروب امتدت قرونا.

وللأسف فإن الرحالة المسيحيين انساقوا وراء التعصب الديني، وروّجوا في كتاباتهم أكاذيب تتهم المسلمين بأنهم أتلفوا بعضا من مقدسات النصارى، والمثال على ذلك رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب خلال العامين ١١٠٦، ١١٠٧، حيث يتهم المسلمون بإتلاف أجزاء من ضريح العذراء المقدسة، في إحدى مغارات الجبال بالقدس الشريف، وينعتهم بالكفار، ويرد عليه مترجما الكتاب بأن الثابت طوال التاريخ أن المسلمين حافظوا على الأماكن المقدسة للمسيحيين واليهود، بينما قام الفرنجة الصليبيين خلال الحملات الصليبية بالاعتداء على مقدسات المسلمين، ومنها مسجد قبة الصخرة، الذي تحوّل على أيديهم إلى دير معبد السيد المسيح، وأضافوا فيه مذبحا وأماكن للتعميد، بما يدل على أن هدف الصليبيين جعل القدس أرضا لاتينية تدين بالكاثوليكية على مذهب روما، وهو نفسه ما يفعله الصهاينة الآن[٢].

عمارة القدس والمتخيل الشعبي:

إن القارئ لنص خسرو عن القدس يكاد يتمثل التاريخ وسردياته أمام عينيه، فقد حرص على ذكر الحكايات المتوارثة عن الأديان الثلاثة، وهو يطوف بجنبات القدس ومعالمها وأبنيتها، وهنا يمتزج المتخيل الشعبي، مع العمران المقام.

يظهر هذا في سعي خسرو إلى تقديم وصف دقيق لبيت المقدس بكل ما فيها من معالم، وكان تركيزه الأشد على المعالم الدينية التي تزخر بها المدينة، ويبدو أنه أراد أن يقدّم صورة بصرية كاملة مسجلة بالكلمات للقدس، تلك المدينة التي لها مكانة عظمى في قلوب المسلمين، ذاكرا مختلف التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالمكان، وأيضا بالمقولات

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥، ٢٦.

(٢) وصف الأرض المقدسة للحاج الروسي دانيال الراهب (١١٠٦-١١٠٧)، ترجمة وتعليق: د. سعيد البيشاوي، داوود أبو هدية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٣، ص٥٩، ٦٠. ويؤكد المترجمان أن مختلف كتابات المؤرخين والرحالة الغربيين درجوا على إطلاق لقب الكفار أو الوثنيين أو السراسنة (السراقنة) على المسلمين خلال الغزو الصليبي. ص٥٩. وهو ما يفسر الصبغة الدينية للصراع الصليبي الإسلامي، ونظرة الغرب إلى المسلمين.

التي يرددها المقدسيون حول المعالم والآثار الدينية. وواضح أن خسرو استهدف تعريف قرائه بالفارسية بهذه المدينة المقدسة، فهؤلاء لا يتاح لهم السفر إليها، فيما تعيش في وجدانهم كثير من القصص والمرويات، عن مكانة الأقصى وقبة الصخرة، وكيف أن القدس تجمع معالم دينية للأديان الثلاثة. فلا عجب أن تكون السمة الأساسية في أسلوب خسرو الوصف البصري، الذي ينظر إلى المعلم من الخارج، ويسعى إلى الإسهاب في كل ما يحويه المعْلَم من الداخل، مع تقديم مختلف المعلومات التي يتداولها العامة أو الخاصة حول مكانة هذا المعْلَم، وسبب المكانة الدينية التي حظي بها، وكأن خسرو في كتابته ساع إلى إعلام القارئ بالقدس وكأنه يراها رؤية العين، وهو ما يفسر جفاف أسلوبه، حيث طغت المعلومات الوصفية، على حساب العاطفة الدينية، فلم نجد مواقف وأحداث ذاتية خاصة بخسرو وهو في رحاب المقدسات؛ يصلي ويزور ويدعو ويبتهل، وإنما وجدنا وصفا بصريا خارجيا، ثم ينتقل بنا إلى التفصيلات الداخلية، وبعض الإشارات الدينية عنه.

فهو يستهل وصفه بعرض إطلالة عامة على القدس، في محاولة لأخذ لب القارئ إلى تخّيل المدينة من الخارج، لحظة وصوله إليها، فالقدس مدينة مشيدة فوق جبل، وليس بها أنهار، وإنما تعتمد على الأمطار، وما تختزنه في رساتيقها، أي المواضع التي فيها زرع وقرى أو بيوت مجتمعة في جنبات القدس. وكلمة (رساتيق) كلمة فارسية معرّبة، وتعني السواد[١] وقد استخدمها خسرو لأنها الأقرب في الفهم لدى قارئه الفارسي. ويقرر أنها مدينة كبيرة، بها زهاء عشرين ألف رجل[٢]، وربما يقصد الرجال القادرين على العمل، ولم يحصِ بالطبع النساء ولا الأطفال، بما يجعلنا نستنتج أن عدد سكان القدس الأصليين ما يقارب مئة ألف إلى مئة وعشرين ألفا، إذا افترضنا وجود أسرة من خمسة أفراد في المتوسط لكل رجل من أهلها.

ويواصل خسرو الوصف الخارجي للمدينة، فيُنعِت أسواقها بأنها جميلة، وأبنيتها بأنها عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة، وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات وجعلوها مسطحة، بحيث تُغسَل الأرض كلها وتُنَظَفُ حين تنزل الأمطار[٣].

لقد أحسن خسرو صنعا وهو يصف القدس بهذا الوصف الخارجي، ولم يتعجل بالذهاب إلى الأماكن المقدسة، بما يدل على أنه تعمّد أن يقدم منظورا كليا عن المدينة، وأن أهلها تعايشوا مع طبيعتها الجبلية، فحوّلوا المرتفعات حولها إلى مدرجات

(١) لسان العرب، باب الراء، ص١٦٤٠

(٢) كتاب سفر نامة، نص الرحلة، ص٦٧.

(٣) السابق، ص٦٧.

مسطحة، فلا تختزن الأمطار أو تتسرب إلى منحدراتها، فيتم الاستفادة من المرتفعات في الزراعة، وأيضا يتاح لمياه الأمطار أن تنزل عليها، وتتراكم بها.

ثم يقترب خسرو من المسجد الأقصى، والذي يقع في شرق المدينة، بل إن سور الجامع هو نفس سور المدينة الخارجي الذي يحيط بها، وبعد الجامع هناك سهل كبير يسمى " سهل الساهرة، يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم، ويقيمون به حتى يموتوا، فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد، اللهم عفوك ورحمتك بعبيدك ذلك اليوم يا رب العالمين"[١]. هنا، يمتزج السرد مع المقولات الشعبية، حيث ينقل خسرو ما يردده العامة عن موضع الحشر، والذي سيكون في سهل السهرة في القدس، في تناغم مع الآثار النبوية الشريفة التي وردت عن أرض المحشر، والتي ستكون في الشام، ومن هذه الأحاديث ما يرويه الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية البهزي عن أبيه فذكر الحديث وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: هاهنا تحشرون، هاهنا تحشرون، هاهنا تحشرون - ثلاثاً - ركباناً، ومشاة، وعلى وجوهكم. قال ابن أبي بكير: فأشار بيده إلى الشام فقال: إلى هاهنا تحشرون. وفي حديث آخر، عن ابن عمر، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ستخرج نار من حضرموت، أو من بحر حضرموت؛ قبل يوم القيامة تحشر الناس. قلنا: يا رسول الله، فماذا تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام[٢]، فلم تحدد الأحاديث مكانا بعينه في بلاد الشام، ولكن يبدو أن المخيلة الشعبية لأهل القدس مزجت الأحاديث الشريفة بمدينتهم؛ ليكون الحشر في المدينة المقدسة، وفي موضع بعينه، وكأن العامة أرادوا أن تكون القدس -بكل ما لها من مكانة سامية ومقدسات- حاوية أيضا لأرض المحشر. وهي تستند بلا شك إلى اجتهادات شفاهية، رُوِّجت بين الناس، وتناقلتها الأجيال، وهو ما يلتقي مع رؤية السرديات الحديثة التي ترى أن المكان هو الحامل المادي للنص الشفاهي، بما يشتمل عليه من إشارات يتم استثمارها من قبل المخيلة الجماعية التي تشكلت نتيجة للتثقيف المتشابه لأفرادها، خاصة إذا قامت على قاعدة دينية، حيث يختلف التصور الجمعي للمكان حسب درجة قربه أو بعده عن مجالات التثقيف

(١) السابق، ص٦٨.

(٢) بلوغ الأماني من آثار الفتح الرباني، شرح ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، الشيخ أحمد عبد الرحمن السنال الساعاتي، منشورات بيت الأفكار الدولية، بيروت، د ت، الجزء الرابع، كتاب الفتن وعلامات الساعة، ص٤٦٩٠، ٤٦٩١.

المتشابه، وفي جميع الأحوال يعتمد هذا على الراوي[1]، فقد امتاحت المخيلة الجماعية من الموروث الديني، لجعل سهل الساهرة علامة مادية/ مكانية على فضاء الحشر، ومعلوم أن البسطاء يميلون بطبيعتهم إلى التجسيد والتعلق بما هو مادي، وقد اقتصر دور خسرو على نقل مرويات العامة بدون التحقق من مصداقيتها، ويبدو أنه أراد تشويق قرائه، مكتفيا بالوصف والسرد والنقل، بدون مساءلة ما يقال وما يروى على ألسنة العوام.

أما امتزاج الأبنية والعمران مع الموروث الديني، فإن خسرو يكاد يربط كل مَعْلَم بما يرويه الناس من آثار دينية، فالمسجد المقارب لوادي جهنم بُني على صخرة أمر الله موسى عليه السلام باتخاذها قبلة، وقد تم بناء المسجد فجاءت الصخرة في وسطه تماما، وهذا ما حافظ عليه النبي سليمان عليه السلام، ثم كانت هي الصخرة التي اتخذها رسولنا (صلى الله عليه وسلم) قبلة، قبل أن يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يولوا وجوههم ناحية الكعبة المشرفة[2]. وهذا قول غير دقيق في مجمله، فالثابت أن الرسول اتخذ من القدس قبلة للمسلمين، دون تحديد للصخرة المذكورة[3].

والواضح من كلامه أنه يحاول أن يوجد رابطة بين موسى وسليمان ومحمد عليهم السلام، وإن كان هذا غير متحقق على المستوى التاريخي أو في المرويات الدينية.

وتتعدد الإشارات عن داود وسليمان (عليهما السلام)، وتكثر في مواضع على سبيل المبالغة، التي لا يمكن قبولها عقلا، وربما تكون من آثار الإسرائيليات التي وجدت مجالا للانتشار في شفاهيات العامة وحكاياتهم. ومن ذلك ما يذكره خسرو عن القباب العديدة الملبّسة بالرصاص في مسجد قبة الصخرة، و"هناك قبة تسمى قبة السلسلة، وهي السلسلة التي علّقها داوود (عليه السلام)، والتي لا تصل إليها إلا يد صاحب الحق، أما يد الظالم والغاصب فلا

---

(١) آليات السرد بين الشفاهية والكتابية، دراسة في السيرة الهلالية ومراعي القتل، سيد إسماعيل ضيف الله، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٢٤٧، ٢٤٨. وقد أورد المؤلف كلامه عن المكان في إطار تناوله لإشكالية المكان في السرد الشفاهي والكتابي، وعلاقته بالرواية والشعر، ولكن رأينا الاستفادة من بعض آرائه ضمن مفهوم المخيلة الجماعية للسرد.

(٢) السابق، ص٦٩.

(٣) ورد في البخاري: عن ابن عمر (رضي الله عنهما): بينما الناس بقباء جاءهم رجل فقال: إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أنزل عليه الليلة قرآن، وأُمِر أن يستقبل الكعبة، ألا فاستقبلوها، وكان وجه الناس إلى الشام، فاستداروا بوجههم إلى الكعبة"، صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢، كتاب التفسير، ص١١٠١

تبلغها، وهذا المعنى المشهور عند العلماء"[١]. وتلك هي تخيلات البسطاء، عندما تقترن ببقعة مقدسة مثل القدس، كانت موضعا لمرور الأنبياء أو الإقامة فيها، وعلى الأخص نبي الله داود، والعقل لا يتصور مثل هذه التخيلات، فضلا عن أن العقل المسلم لا يقبل مثل ذلك، لأن القاعدة في الإسلام - كما يذكر ابن تيمية- "أن تعظيم مكان لا يعظمه الشرع (هو) شرٌ. وهذه مشاهد باطلة وضعت مضاهاة لبيوت الله، وتعظيما لما لم يعظمه الله، وعكوفا على أشياء لا تضر ولا تنفع"[٢]، ولو نظرنا إلى ما يقال عن هذه السلسلة، فهي مما يطلق عليه الأدب العجيب/ العجائبي، وهو ذلك النوع من الأدب الذي يقدم لنا كائنات وظواهر فوق طبيعية، تتدخل في السير العادي للحياة اليومية، وهو يشتمل على حياة الأبطال الخرافيين، الذين يشكلون مادة للطقوس والإيمان الديني[٣]، وهذا مفهوم يضع الأديان في نفس السلة مع الأساطير، وهو ما يتعارض مع التصور الإسلامي للأنبياء والرسل بوصفهم مبعوثين من الله تعالى، ومعهم معجزات وخوارق بتأييد من الله سبحانه وتعالى، وبأدلة نصية موثقة، بعيدا عن الادعاءات والتخيلات الأسطورية. ولكن الشاهد في هذا التعريف أنه يؤكد على أن الأدب - والسرد بشكل خاص- ناقل للمتخيلات الشعبية، التي تمتاح من الأديان، عندما تحوّلها عقول العامة والبسطاء إلى خيالات وتربطها بمحسوسات، وفي هذا يحدث اللقاء بين المتخيل الشعبي، والوجدان الديني. وكما رأينا في المثال السابق، فإن العامة من أهل القدس صدقوا ما قيل لهم عن قبة السلسلة، ونقلها عنهم خسرو، مرجعا المقولة إلى علماء لم يذكر واحدا منهم، ونرى أنه لم يتحرّ التدقيق، وإنما اكتفى بالنقل، ولو تطوع وأحضر شخصا ما، ليختبر السلسلة على سبيل التجربة، لأدرك أنها تخرصات.

كما يسجل خسرو ما يتداوله الناس من شفاهيات عن أحواض المياه في المسجد التي لا تحتاج إلى عمارة قط، لأنها من الصلب، فإذا حدث فيها شق أو ثقب أُحكِمَ إصلاحه حتى لا تتخرب، ويقال إن سليمان عليه السلام هو الذي عمل هذه الأحواض، وقد جعل القسم الأعلى منها على هيئة التنور، وعلى رأس كل حوض غطاء من حجر، كي لا يسقط فيه شيء، وماء هذه المدينة أعذب وأنقى

(١) كتاب سفر نامة، نص الرحلة، ص٨٠.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ج٢، ص١٦٥.

(٣) العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، حسين علام، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط١، ٢٠٠٩، ص٣٢.

من أي ماء آخر[1]. ونفس الإشارة تتكرر عندما يسجل خسرو تعجبه من أحجار ضخمة اُستخدمت في البناء، ويتساءل كيف تم رفعها، فالعقل لا يصدق كيف استطاعت قوة البشر نقلها واستخدامها. ويقال إن سليمان ابن داود عليهما السلام هو الذي بناه، وقد دخل منه نبينا عليه الصلوات والسلام إلى المسجد ليلة المعراج، وهذا الباب على جانب الطريق إلى مكة. وعلى الحائط وبقرب هذا الباب؛ نقشٌ لمجن(ترس) كبير، يقال إن حمزة بن عبد المطلب عم النبي عليه السلام كان جالسا هناك، وعلى كتفه المجن، وظهره مسند إلى الحائط، وأن هذا نقش مجنه[2].

فالملمح الأساسي في المخيلة الشعبية يربط بعض معالم المدينة أو معالم مسجدها المقدس بأحد الأنبياء أو الصحابة، أملا في إضفاء روحانية خاصة عليها، وبالطبع تلك سرديات لا أساس لها، ولا يوجد شاهد عليها، وقد أوردها خسرو كنوع من إيهام المتلقي بما درج عليه الناس من مقولات، ولم يسع إلى التحقق من صدقها، وربما يعود إلى كونها شفاهيات لا يوجد أثر مادي على حجر أو ورق دال عليها. ولاشك أن العقل لن يقبل مثل هذه الروايات بسهولة، لأنها تكاد تربط كل أثر بنبي أو صحابي، فلم نعلم أن حمزة عم النبي

(١) كتاب سفر نامة، نص الرحلة، ص٧٥.

(٢) السابق، ص٧٦.

(عليه السلام) زار القدس، وجلس فيها، وهو الذي استشهد في غزوة أحد على نحو ما هو معلوم. ولا يمكن القبول عقلا بأن مجرد جلوسه، حاملا مجنّه، سيكون سببا في نقش أثر المجن في الجدار الحجري.

أما الدلائل على آثار سليمان، خاصة فيما يتعلق بالأحجار الضخمة، فربما هي عائدة إلى كون ملك سليمان أساسه العجائب، فقد وهبه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، ومن دلائل ملكه تطويع الحجر، وفهمه (عليه السلام) للغة المخلوقات.

وتبدو السرديات الدينية فيما يتعلق بحادثة الإسراء، والتي ربطتها المخيلة الشعبية مع الصخرة المشرفة، فهناك قبة جبريل (عليه السلام) وهي مغلقة من ناحية القبلة، حيث بني عليها محراب جميل، وليس فيها فرش بل إن أرضها مستوية، ويقال إن هنا أُعدَّ البراق ليركبه النبي (عليه الصلاة والسلام)، في رحلة المعراج. وبعد قبة جبريل تأتي قبة الرسول وبينهما عشرون ذراعا، وهي مقامة على أربعة أعمدة من الرخام أيضا، ويقال إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) صلى ليلة المعراج في قبة الصخرة أولا، ثم وضع يده على الصخرة، فلما خرج وقفت لجلالته، فوضع الرسول يده عليها لتعود إلى مكانها وتستقر وهي بعد نصف معلقة، وقد ذهب الرسول من هناك إلى القبة التي تنتسب إليه، وركب

البراق، وهذا سبب تعظيمها. وتحت الصخرة غار كبير، يضاء دائما بالشمع، يقال إنه حين قامت الصخرة خلا ما تحتها، فلما استقرت بقي هذا الجزء كما كان[١]. وهناك أيضا ما يسمى مقام النبي، فقد قيل إن النبي (عليه الصلاة والسلام) صعد إلى الدكة، في ليلة المعراج ودخل إلى قبة الصخرة[٢]. فكل موضع في مسجد قبة الصخرة له ارتباط بحادثة الإسراء والمعراج، وما القباب المقامة على عدة صخور، وبجوارها محاريب للصلاة، إلا دلائل على سمو هذه الأمكنة، وبالقطع لا توجد دلائل تؤكد على ما أشير إليه من سرديات تربطها بحادثة الإسراء، وقد عدنا إلى تفاصيل الإسراء والمعراج، وإلى النصوص النبوية الشريفة الصحيحة، وكلها أشارت إلى ربطه (صلى الله عليه وسلم) البراق بالحلقة التي كانت يربط بها الأنبياء دوابهم[٣]. وقد اكتفى خسرو بإيراد ما يقال ويحكى بين المقدسيين عن ربط المقدسات بالسرديات الدينية، وإن كانت هناك مبالغات، وعدم تحقق من خلال آثار نصية نبوية موثقة، وهذا عائد إلى كون خسرو لم يكن متعمقا في السيرة وعلم الحديث، فتكوينه أدبي يميل إلى التفلسف، وأيضا لرغبته في جذب القارئ وتشويقه بما يروى عن هذه البقاع المقدسة.

وبالمناسبة فإن هذه السرديات لا تزال تتناقلها الألسنة إلى يومنا، وكأنها متوارثة جيلا بعد جيل، وإن وُجِدت كتابات حديثة ومعاصرة تصحح هذه المرويات، ومنها ما يقال عن الصخرة المشرفة، وارتفاعها عن الأرض كأنها طائرة، وغير ذلك من الأمور التي تستهدف إضفاء طابع القدسية على هذه المواضع، بما يجعل الناس متعلقين بها، على غرار ما درج عليه العامة في تدينهم الشعبي؛ من تعلق بالمحسوسات والجمادات والتبرك بها، وهو ما وجد نفيا قطعيا من علماء الشريعة، خاصة ابن تيمية[٤]، فالقدس بقعة مقدسة، والأقصى تشد إليه الرحال، لعظم مكانته، وكي نسترجع أحداث الإسراء والمعراج بوصفها من المعجزات التي خصّ الله تعالى بها نبيه (صلى الله عليه

(١) السابق، ص٨١.

(٢) السابق، ص٨٢.

(٣) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، توثيق وتعليق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ج٢، ص٣٦٤، ٣٦٥.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، ج٢، ص٣٤٥- ٣٥٣. وقد شدد على أن الصخرة المشرفة كانت مكشوفة في عهد الخلفاء الراشدين، ولم تغطّ إلا في عهد عبد الملك بن مروان، وأن من شأن تعظيمها أن يتعلق العامة بها، مؤكدا أن المرويات التي يتناقلها الناس إنما هي مأخوذة من الإسرائيليات ولا يوجد أساس لها، خاصة ما يتعلق بالأنبياء السابقين. ونفى أي صلاة للنبي في غير المسجد الأقصى، لا عند الصخرة أو غيرها.

وسلم)، وكلها تصب في الإيمانيات القلبية، بدون التعلق بأية محسوسات، قد تنزع الروحانية، وتجعل المسلم غايته مادية، متمثلة في التبرك وما شابه.

خسرو والتحقق ودقة الوصف:

ظهر جليا سعي خسرو إلى التحقق بنفسه من بعض المعلومات والمرويات، وأيضا محاولة قياس مساحات الأبنية وارتفاعها. ولعل هدفه من هذا اختبار مصداقية بعض ما سمع، وتقديم معلومات أكثر وثوقية، وربما لتشويق القارئ وتقديم صورة أكثر واقعية عن المعالم التي يتحدث عنها. وعندما نتأمل في تفصيلات شرحه للمعالم المقدسة، نشعر أنه يقدم صورا يمكن تخيلها من قبل القارئ، بل ويمكن رسمه من قبل رسّام محترف، ولعل هدفه من ذلك إشباع شوق القارئ لتخيل مثل هذه المقدسات التي تصله مرويات عنها قد تقل أو تكثر، ولكنها ليست دقيقة.

وقد سعى خسرو إلى التحقق بنفسه، فعندما سمع عن وادي جهنم، فقالوا له إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنزل جيشه فيه، وهو الذي أطلق عليه هذه التسمية، وقيل إن من يذهب إلى آخر الوادي يسمع صياح أهل جهنم، ولكن خسرو عمل على التحقق بنفسه لهذه الرواية العجيبة، فنزل لآخر الوادي بنفسه فلم يسمع شيئا[1]، وهذا مسعى جيد من خسرو، وربما دفعه لذلك طرافة المتخيل الشعبي وما يردده العوام عن وادي جهنم، والمسألة بالنسبة إليه قاب قوسين أو أدنى، ليتأكد بنفسه.

على جانب آخر، فإن خسرو عمد إلى قياس العديد من المعالم بنفسه، مستغلا في ذلك معرفته بالحساب والأقيسة، فقد رغب في قياس مسجد قبة الصخرة، فيقول: "وقد أردت أن أقيس هذا المسجد، ولكنني آثرت أن أتقن معرفة هيئته، ووضعه أولا ثم أقيسه، فلبثت فيه زمنا أمعن النظر، فرأيت عند الجانب الشمالي، بجوار قبة يعقوب عليه السلام، طاقا مكتوبا على حجر منه؛ أن طول هذا المسجد أربع وخمسون وسبعمائة ذراع، وعرضه خمس وخمسون وأربعمائة ذراع، وذلك بذراع الملك المسمى في خراسان كزشايكان وهو أقل قليلا من ذراع ونصف[2]. وقد أشار هنا إلى المقياس الفارسي في الذراع الذي يختلف عن قياس الذراع المعهود في بقية البلدان العربية الإسلامية، وأراد بذلك إفهام قارئه الفارسي، كي يحسن تخيل أبعاد المسجد.

وقد شرح خسرو بدقة بناء مسجد قبة الصخرة الداخلي، بوصفه أحد المعالم

---

(١) كتاب سفر نامة، نص الرحلة، ص٦٨.

(٢) السابق، ص٦٩.

الأساسية في القدس، فوصف جدرانه وأطوالها وزخارفها، وأبوابه المزخرفة بالنحاس، أن المسجد فيه رواقان على جانبيهما أعمدة رخامية، عددها تسعة وعشرون عامودا في كل رواق، ورخامها ملون ووصلاتها مثبتة بالرصاص. وأسهب واصفا كل متر مربع في المسجد، ونبه إلى المحاريب والقباب فيه، حيث شاهد قبة صغيرة جميلة، ومحراب أسفلها مكتوب عليه محراب زكريا عليه السلام. ويمضي مفصلا في وصف الأعمدة، والأروقة والمحاريب مثل محراب معاوية، ومحراب عمر (رضي الله عنهما)، ويذكر أيضا أن سقف المسجد مغطى بالخشب المنقوش المحلى بالزخارف، وعلى باب مقصورة المسجد خمسة عشر رواقا، عليها أبواب مزخرفة، ارتفاع كل منها عشرة أذرع وعرضه ستة أذرع، كما أن أحد أبواب الأروقة مزين غاية الزينة، وهو من الحسن حتى تظن أنه من ذهب، وقد نقش بالفضة، وكتب عليه اسم الخليفة المأمون، ويقال إنه هو الذي أرسله من بغداد، وحين تفتح الأبواب كلها ينير المسجد، حتى تظن أنه ساحة مكشوفة، أما حين تعصف الريح، وتمطر السماء، وتغلق الأبواب، فإن النور ينبعث إلى المسجد من الأكوات. وعلى الجوانب الأربعة من الحرم المسقوف صناديق من مدن الشام والعراق، يجلس بجانبها المجاورون، كما هو الحال في المسجد الحرام بمكة شرفها الله تعالى[1].

وكأن مسجد قبة الصخرة وهو يحمل أسماء الصحابة والخلفاء؛ يقف شاهدا على عناية حكّام المسلمين بهذه البقعة المباركة، وأنهم سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو ولاة حرصوا على عمارة المسجد وصيانته والنهوض بكافة شؤونه لمكانته القدسية. وكأن عمارة المسجد - وفق وصف خسرو- تنطق بعظمة الفنون الإسلامية وعمارتها، كما أن الزينة والزخارف التي أشار إليها خسرو تعود -كما يقول ثروت عكاشة- إلى هيام الصانع الإسلامي بتزيين المسطحات وزخرفتها[2]، كما أن الأروقة والمحاريب التي يجدها المصلي وهو منذ ولوجه في المسجد تسكب في وجداننا أغزر إحساس بالهيبة والفخامة، وقد يعترض البعض -كما يذكر ثروت عكاشة- على وجود التشكيلات الزخرفية التي قد تصرف الرائي عن الناحية المعمارية، غير أن سلامة النسب وصدق المقياس ورصانة الألوان تجعل هذه الزخارف تستقر وادعة في مكانها ومكانتها بالمبنى في ألفة وسكون، فيحس المصلي بين يدي تلك الألوان المضيئة كأنه محاط بعالم روحاني يفصله الفصل كله عن العالم المادي الصاخب في الخارج، وتلك هي

---

(١) السابق، ص٧٤.

(٢) القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، د. ثروت عكاشة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٤، ص١٣٩ .

الصفة الجمالية الرئيسية التي يضفيها صحن الجامع[١].

يتضح من أسلوب خسرو أنه ظل أياما طويلة في رحاب المسجد، يتفحصه ويعرف كل ما فيه، ويدوّن في أوراقه كل صغيرة وكبيرة، وما أجمل ملاحظته عن أبواب المسجد الذي إذا فُتِحت فإن ضياء الشمس يغرق المسجد، بما يعني أن عمارة المسجد مصممة على الاستفادة القصوى من مصادر الضوء الطبيعية، وإذا أغلقت الأبواب لمطر أو ريح، فإن هناك كوات في الجدران، تساهم في الإضاءة والتهوية.

وظهرت دقة خسرو في الوصف في استعراضه لمسجد قبة الصخرة الشريفة، التي ربط فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) البراق، وقد أقيمت دكة وسط المسجد بجوار الصخرة المشرفة، لأنها كبيرة، وقبة الصخرة بيت مثمن الأضلاع، وكل ضلع طوله ثلاث وثلاثون ذراعا، وله أربعة أبواب. ومحيط الصخرة مئة ذراع، وهي بناء غير منتظم في شكله، وهي أعلى من الأرض بمقدار قامة رجل، وقد أحيطت بسياج من الرخام حتى لا تصل لها يد، وهي حجر أزرق، وعليها آثار سبع أقدام، قيل إن إبراهيم وابنه اسماعيل مشيا عليها، وتم بناء أعمدة، نُصبَت فوقها القبة، التي تعلو الصخرة. ثم يشيد بفضل المسجد الأقصى، وثواب الصلاة فيه مع خطأ في ذكر الأجر[٢].

كما رصد خسرو أيضا مصادر المياه في بيت المقدس، ولاحظ أنها تعتمد على ملء الأحواض الحجرية بمياه الأمطار عبر ميازيب من الرصاص، تجمع المياه من الأسطح، ثم تسيّلها إلى الأحواض، وقد شاهد على بعد فراسخ من المسجد، صهريجا كبيرا، تنحدر منه المياه إلى المسجد، فيتم تخزينها في أحواض كثيرة، ليستخدمها المصلون في الوضوء، وذكر بأن المياه نظيفة، غير ملوثة بأي شكل، ولا تضيع قطرة واحدة، لأن المسجد مشيد على الصخور، والأحواض كذلك. والأمر نفسه موجود في منازل الناس، فيتم جمع ماء

---

(١) المرجع السابق، ص١١٦.

(٢) كتاب سفر نامة، نص الرحلة، ص٧٨- ٨٠، يبدو خطأ خسرو في ذكر ثواب الصلوات فذكر أن الصلاة الواحدة في المسجد الأقصى تعدل خمس وعشرين ألف صلاة، وأن الصلاة في المسجد النبوي تعدل خمسين ألف صلاة، وكلاهما خطأ، بينما ذكر أن الصلاة في المسجد الحرام بمكة تعدل ثواب مئة ألف صلاة. والصحيح في ثواب الصلوات ما ورد عن أبي الدرداء وجابر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة، وفي مسجدي هذا ألف صلاة وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الشيخ محمد ناصر دين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٣، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ج٢، رقم (٤٢١١)، ص٧٧٦.

المطر على أسطح المنازل ثم تخزينها[١].

وقد أدركنا من إشاراته عن الأحواض والمياه؛ كيف أن المدينة وأهلها تكيّفوا مع بيئة المدينة ومناخها وطبيعتها، فالمدينة على جبل، وما أكثر الأمطار التي تهطل عليها، ولذا، نُحِتتْ الأحواض الحجرية، وصُنِعَت المزاريب الرصاصية، التي تنقل المياه عبر قنوات فيتم تخزينها والاستفادة منها، مع الحفاظ على نقاء المياه، وعذوبتها.

على صعيد آخر، فإننا نجد إشارات كثيرة عن التقاليد الدينية والتي تعني ما اعتاد عليه الناس في القدس، سواء كانوا من القاطنين فيها، أو الوافدين عليها، فالمدينة المقدسة صبغت حياتهم وسلوكياتهم بطابعها، وصارت أفئدتهم تهفو إليها، في الصلوات والمواسم والأعياد، حيث يفدُ إليها في موسم الحج مَن لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات (يقصد مدن وبلدان الشام)، فيتوجه إلى الموقف، ويضحي ضحية العيد كما هي العادة، ويحضر هناك لتأدية السُّنة في بعض السنين أكثر من عشرين ألف شخص، في أوائل ذي الحجة، ومعهم أبناؤهم" [٢] خاصة أيام عيد الأضحى المبارك وفي موسم الحج، حيث اعتاد أهل الشام زيارة القدس، وقضاء العشر الأوّل من شهر ذي الحجة في مجاورة المسجد الأقصى، يأتون مصطحبين أهلهم وأولادهم، ومن ثم يذبحون أضحياتهم، ويقضون عيدهم، ثم يعودون ثانية. وقد نالوا ثواب الصلاة والمجاورة لأطهر بقعة مباركة في الشام.

ومنها أيضا إشارة خسرو إلى إقامة جماعة من المجاورين والعابدين في مسجد بيت الصخرة المشرفة، وقد زُينت أرضه بالسجاد الجميل من الحرير وغيره[٣]، ويبدو أن مفهوم المجاورة والذي يقتصر فقهيا على الحرمين الشريفين[٤]، وهنا نجد أنه اتسع ليشمل مجاورة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، أملا في مزيد من الثواب، عندما يعيش المسلم متنعما بالأجر المضاعف عشرات المرات من صلاته في الأقصى المبارك. والشاهد فيما يورده خسرو أن القدس عرفت المجاورين والعابدين، أسوة بما درج عليه المسلمون في سعيهم للمجاورة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

---

(١) كتاب سفر نامة، نص الرحلة، ص٧٥.

(٢) السابق، ص٦٧.

(٣) السابق، ص٨٠.

(٤) هناك اختلاف بين الفقهاء في مجاورة الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، فهو عند فريق محبوب ومندوب ووجيه لأن المسلم المجاور يعيش في بقعة مباركة، فيثاب عن صلواته وعباداته، ويجتهد في المزيد منها، مع التخلق بأخلاق الإسلام المثلى. وإن كان هناك فريق آخر كرهوا المجاورة للحرمين، مخافة السأم وقلة الأدب المفضي إلى الإخلال لوجوب التوقير والإجلال للحرمين. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ج٣٦، ص١٢٥، ١٢٦.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث نصل إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يأتي:

-للقدس مكانة عظمى سامية في قلوب المسلمين جميعا، وأيضا في قلوب أصحاب الديانات السماوية: اليهودية والمسيحية، نظرا لما تحتويه من مقدسات، ولما تتابع عليه من رسل وأنبياء، وهو ما يفسر الصراعات التاريخية الطويلة والممتدة للسيطرة عليها.

-تطورت عمارة القدس تحت حكم المسلمين، فتم تجديد وتعمير المسجد الأقصى، وبناء مسجد قبة الصخرة الشريفة، وتفننوا في عمارتها وزخرفتها وتزيينها، وقد اهتم خلفاء المسلمين المتتابعين بصيانة المقدسات والزيادة عليها، ما بين محاريب وقباب وأسبلة ومنافع، من أجل تيسير الزيارة وأداء العبادات فيها.

-جاءت رحلة خسرو للمدينة لهدف روحاني في الأساس، ولكنه كان واعيا إلى أهمية تدوين مشاهداته خلال تنقله، خاصة فيما يتعلق بعمارة القدس ومساجدها ومعالمها.

-تدرج خسرو في وصفه للقدس من العام إلى الخاص، ومن الكلي إلى الجزئي، وهو ما يحسب له، فبدأ بوصف المدينة من الخارج، ثم انحدر إلى طرقاتها، ومساجدها وقبابها، كما أشار إلى مصادر المياه وطرق تخزينها، ووصف بدقة كبيرة الأروقة والأعمدة والأبواب، والزخارف والزينات، والأسقف والثريات، والإضاءة والتهوية.

- غلب طابع الوصف البصري على طريقة خسرو، على حساب ما هو وجداني وورحاني، وغلب على أسلوبه الجفاف، إلا من إشارات عن الزائرين والعابدين، وهي لا تخرج عن توصيف شكلي ظاهري لحال أهل المدينة وزائريها، بدون الغوص في طبيعة ممارساتهم الدينية، وأحاسيسهم وهم يزورون الأقصى المبارك.

-من الواضح أن خسرو أقام في القدس، ولكنه لم يمدد علاقته مع أهلها اجتماعيا ولا ثقافيا، وافتقدنا في كتابه وصفا لأطعمتهم الشائعة، وأشكال ملابسهم، والتعريف بأبرز أحيائهم، وأنماط بيوتهم وطبائع معيشتهم،

وأيضا تقاليدهم وأعرافهم فيما بينهم، فلم نجده يحاور الزائرين، ويتعرف على ثقافتهم وطباعهم وعاداتهم، ولا من أين وفدوا، ويبدو أن هدفه الأساسي كان وصف المعالم العمرانية دينية الطابع، بوصف أقرب إلى الأسلوب العلمي منه إلى الأسلوب الأدبي.

- اكتفى خسرو بتدوين السرديات الشعبية الدينية، والتي لا تخرج عما هو متخيل عجائبي، ولم يجتهد في الاستيثاق من صحتها ولا أدلتها، وهذا عائد لضعف ثقافته الدينية، فهو شاعر في الأساس، وله كتاباته النثرية الأدبية، كما أنه مغرم بالفلسفة والمذاهب، ولكنه لم يعمل عقله في المرويات العجائبية التي دوّنها عن العامة، ليتعرف مدى صدقها.

-إن الصورة المجملة المستقاة من رحلة خسرو عن القدس توضح أنها كانت مكتملة عمرانيا، بل هي في أزهى تمدنها ورقيها، وأيضا في انفتاحها واستقبالها لكل الأديان.

المصادر والمراجع

أولا: الكتب:

-آليات السرد بين الشفاهية والكتابية، دراسة في السيرة الهلالية ومراعي القتل، سيد إسماعيل ضيف الله، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨.

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي، دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة بريل، مدينة ليدن، لندن، ١٩٠٩.

- أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، د. نوال عبد الرحمن الشوابكة، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨.

- اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني، كيث وايتلام، ترجمة: د. سحر الهنيدي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٩.

- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

-بلوغ الأماني من آثار الفتح الرباني، شرح ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، الشيخ أحمد عبد الرحمن السنال الساعاتي، منشورات بيت الأفكار الدولية، بيروت، د ت.

-تاريخ الدولة المستقلة في المشرق عن الخلافة العباسية، د. عطية القوصي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣.

- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.

-دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، توثيق وتعليق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

- الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، د. شعيب حليفي، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.

-الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. ناصر عبد الرازق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية-

مكتبة الوفاء، القاهرة، ١٩٩٥.
- الرحلة والرحالة المسلمون، د. أحمد رمضان أحمد، دار البيان العربي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥.
-الزمان والسرد: الحبكة والسرد التاريخي، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ٢٠٠٦.
-الزمن واللغة، د.مالك يوسف المطلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.
- سفر نامة، ناصر خسرو علوي، ترجمة: د. يحيى الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣.
-صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢.
-صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الشيخ محمد ناصر دين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٣، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨.
- العالم الإسلامي في العصر العباسي، د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٥، د ت.
-العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، حسين علام، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط١، ٢٠٠٩.
-فضائل القدس، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: د. جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.
-القدس أمانة عمر.. في انتظار صلاح الدين، د.محمد عمارة، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩.
-القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، د. ثروت عكاشة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٤.
- الطريق إلى القدس: دراسة تاريخية في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين، د.محسن محمد صالح، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ط٥، ٢٠١٢.
-لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، د ت.
-الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
- وصف الأرض المقدسة للحاج الروسي دانيال الراهب (١١٠٦-١١٠٧)، ترجمة وتعليق: د. سعيد البيشاوي، داوود أبو هدية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٣.

ثانيا: المجلات والدوريات والمؤتمرات:

-الثقافة والزمن: مدخل إلى أشكال انجلاء العنصر الثقافي، د. محمد شوقي الزين، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع١٧٥، ٢٠١٨.

-الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية، د. صلاح الدين الشامي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ١٣، مج ٤، يناير، ١٩٨٣.

-فوائد علمية وحقائق تاريخية من خلال الرحلة الناصرية لأحمد بن ناصر الدرعي، د. محمد كنون، بحث منشور ضمن أعمال ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المملكة المغربية، ١٩٩٣.

ثالثا: مراجع باللغة الإنجليزية:

1- Bias in research, Joanna Smith, Helen Noble, Evid Based Nurs October 2014, volume 17. number 4, p100.

صورة المجتمع المقدسي في القرن السابع عشر
من خلال رحلة أوليا جلبي
١٦١١-١٦٨٤

د. هشام سوادي هاشم
استاذ مساعد للتاريخ العثماني /جامعة نينوى

ملخص البحث:

تشكل كتب الرحلات مصدراً مهماً من مصادر دراسة تاريخ العرب في العهد العثماني، لما احتوته من معلومات متنوعة ثقافية واجتماعية وعمرانية وغيرها، أغفلت عن ذكرها كتب التاريخ السياسي. مما يجعل الباحث بحاجة الى الاستعانة بها أي الرحلات لتشكيل صورة الحدث التاريخي الذي يعالجه.

ويمكن تميز نوعين من الرحلات التي تناولت تاريخ العرب خلال العهد العثماني، أولهما: الرحالة الأجانب، الذين كانت دوافعهم في الرحلة متباينة ما بين دافع (تبشيري، آثاري، سياسي، عسكري) وثانيهما: الرحالة المحليون سواء كانوا عربا أم اتراكا (عثمانيون). ورغم العدد الكبير لتلك الرحلات فإن ما ترجم منها لا يزال قليلاً مقارنة بعددها مما جعل المكتبة العربية تعاني نقصاً في ذلك النوع من المصادر [١] ولهذا السبب كان اختيار رحلة العثماني أوليا جلبي (أوليا جلبي سياحتنامه سي) أساساً لدراسة المجتمع المقدسي في القرن السابع عشر، الذي أفرد صفحات عديدة من المجلد الثالث من رحلته عن فلسطين عامة ومدينة القدس خاصة وما تمثله من الناحية الدينية لدى المسلمين وغيرهم ،وتأسيساًعلى ماتقدم جاءت دراستنا في ثلاثة محاور عالجت احوالها الاجتماعية والثقافية والعمرانية.

مدخل تأريخي:

يعد أوليا جلبي بن درويش محمد

---

(١) بقدر تعلق الامر بموضوع الرحالة الاجانب و المحليين وماكتبوه من رحلات يمكن الرجوع الى الدراسة الرائعة التي كتبتها الدكتور ثريا فاروقي الموسومة: الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة الدكتور حاتم الطحاوي، دار المدار الاسلامي (بيروت،٢٠٠٨).

ظلي أشهر الرحالة العثمانيين على الإطلاق، ولد عام ١٦١١ في حي أونكيان في العاصمة العثمانية استانبول، وقام بالترحال لمدة خمسين عاماً زار فيها العديد من الولايات داخل الدولة العثمانية وخارجها. من شرق الأناظول والبحر الأسود والروميلي، الى بلاد الشام ومصر والسودان والحبشة فضلاً عن رحلاته الى النمسا وهولندا والسويد والدنيمارك وإسبانيا، ودّون ما شاهده في مؤلف مشهور أسماه "أوليا جلبي سيا حتنامه سي" الذي يقع في عشر مجلدات ضخمة[١].

خصص اوليا جلبي المجلد الأول من رحلته للحديث عن سعة مدينة استبانبول وضواحيها وفي المجلد الثاني تحدث عن مدن بورصة وباطوم وازمير وطرابزون واذربيجان وجورجيا. أما المجلد الثالث من رحلته فقد تحدث فيه عن مدن دمشق وحلب وفلسطين والقدس وشمالي بلاد فارس وأرمينيا. في حين وصف في المجلد الرابع بغداد والبصرة وتبريز، وأكمل تلك المعلومات في المجلد الخامس، حينما وصف جوانب لم يأت عن ذكرها في المجلد السابق، وتحدث في ذلك المجلد عن مدن البصرة، و وان وهتغاريا وروسيا والأناظول والبوسنة وصوفيا،وتحدث اوليا جلبي في المجلد السادس عن رحلته الى ترانسلفانيا والبانيا واوجفار والمجر وبلغراد والجبل الأسود وكرواتيا. في حين تحدث في المجلد الثامن عن معالم العاصمة استانبول لاسيما (بخجة سراي) ومدن مقدونيا وأثينا وجزر الدودو كانيز. أما المجلد التاسع الذي حمل عنوان الحج الى مكة تحدث اوليا جلبي فيه عن رحلته في مدن جنوب غرب الاناظول وبعض المدن السورية وصولاً الى مكة والمدينة المنورة التي أسهب في ذكر معالم المدينتين المقدستيين. وتوقف في المجلد العاشر والأخير من الرحلة عند مصر (مع ذبل تاريخي) فتحدث القاهرة والاسكندرية ومصر العليا والسودان والحبشة[٢].

والمتتبع لمنهج أوليا جلبي في سرده لوقائع رحلته يجده كاتباً خيالياً ذا ولع بكل ما هو مدهش وغريب، فهو يفضل الأسطورة على الحقيقة التاريخية المجردة، فينغمس في الكثير من الأحيان وفي مواقع مختلفة من رحلته في وصف الأمور بخيال مبالغ فيه، دون ان يكون هناك حدود يقف عندها، مما جعله لا يتحاشى التفاخر ببعض النوادر المخصصة للتأثير الهزلي ؛ لذلك يمكن القول إن كتاب اوليا جلبي (سياحتنامه) يعد في

(1) Aufar Guclu, Evliya Geleba seyahatnamesi (Istanbul,1947) p 312

(2) Evliya Gelebi" Dictionnaire Larousse , vol 2 , (Istanbul , 1980) p811

المقام الأول مؤلفاً ادبيا جغرافيا من مؤلفات القرن السابع عشر، والذي أرضى به حاجة طلاب المعرفة العثمانيين في عصره للتسلية والتعليم،فنجده في سرده للحوادث أستخدم أسلوباً قصصياً معتمداً على لغة عامية بسيطة، مع استعارات مفخمة للجمل مستعينا بالتعابير المنمقة[١]. وهذا ما يفسر عدم اهتمام اوليا جلبي في بعض الأحيان بالحقيقة التاريخية، فقد يصف أحياناً رحلات لم يستطع هو القيام بها، وإن طموحه الأدبي غالباً ما كان يدفعه الى تسجيل وقائع وحوادث يدعى أنه قدراءها وجربها بنفسه. في حين ان الوقوف عن كثب على تلك الروايات يجد إن اوليا جلبي لم يكن يعرف عنها الا سماعاً أو من خلال ما نقله عنها من المصادر التاريخية والأدبية التي لم يأت على ذكرها[٢].

على الرغم من هذه التحفظات إلا أن كتاب "اوليا جلبي سياحتنامه سي، يقدم للباحثين ثروة معرفية تناولت جوانب مختلفة تاريخية و ثقافية و عمرانية فلوكلورية للمناطق والمدن التي زارها، لا يمكن للباحثين الاستغناء عنها.

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مادة" اوليا جلبي " المجلد الثالث، ص ص ١٦٠ - ١٦١، The Encyclopaedia of Islam, vol 11 (leiden , 1991) pp 717 – 718

.(٢)The Encyclopaedia of Islam.Vol.11 p 719

اوليا جلبي في القدس :

حظيت القدس بمكانة مهمة لدى المسلمين وغيرهم من الطوائف لما تمثله من مكانة دينية عند جميع الأديان ومنذ الفتح العثماني للمدينة المقدسة على يد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) في ٣٠ كانون الأول،١٥١٦ اولى السلاطين العثمانيون اهتماماً خاصاً بالقدس، ومنحوها إدارة خاصة وأقاموا فيها العديد من المشاريع العمرانية وطوروا خدماتها وأوقفوا عليها المنشآت الخيرية[٣].

أولاً. المحور الاجتماعي

لعبت المكانة الدينية للقدس دوراً كبيراً في جذب أعداد مختلفة ومتنوعة من السكان ينتمون الى طوائف مختلفة للاستيطان والاستقرار فيها. وآثار ذلك التقسيم الديمغرافي للسكان الرحالة أوليا جلبي الذي زار المدينة سنة ١٦٧٢، فقسم سكان المدينة بحسب الأديان التي ينتمون إليها (مسلمين – مسيحيين -يهود).

كان المسلمون يشكلون أكثر سكان المدينة، حيث تركزوا في داخلها حول الحرم القدسي الشريف والمناطق الشرقية من المدينة وظاهرها. ومسلمو المدينة ينتمون الى المذاهب الفقهية الأربعة (الحنفية،

(3) Ahmead Edip Uysel , Seleaction from Liviing Turkish folkloulers (Ankara - 1989) pp 121 – 143.

والشافعية والمالكية والحنبلية)[١]. ويسكن معظم المسلمين في مناطق ومحلات مهمة من المدينة مثل محلة الشرف وباب القطانين وباب العمود وباب حطة والزراعنة ومحلات الريشة وعقبة الست والمغاربة وحارات بني خالد والجوالدة وبني زيد[٢] ولم يكن مسلمو القدس من أهل المدينة فقط، أو من بقية مدن فلسطين، بل ان قسماً منهم من جاء من اقطار اسلامية مختلفة اختاروا الإقامة في المدينة، منهم مغاربة ودمشقيين وحلبيين وعراقيين وبوشناقين ومصريين وأتراك وفرس وأفغان وغيرهم[٣]. وتباينت طبقات السكان ما بين سكان المدينة وسكان المناطق القريبة منها وما بين سكان المناطق البعيدة من البدو الذين ذكرهم اوليا جلبي باسم "العربان"[٤]

(١) وللوقوف اكثر على اجراءات السلطان سليم الاول في القدس انظر: سعدالدين خوجه تاج التواريخ، ج٢، (القسطنطينية، ١٢٧٩) ص ٣٣٩ ومابعدها، محمد جلبي صولاق زادة، صولاق زادة تاريخي، اوجنجي جلد (استانبول، ١٢٨٩) ص ص ٣٨٣ – ٣٩٧.

(٢) محمد ظلي بن درويش اوليا جلبي، اولياجلبي سياحتنامه سي، اوجنجي جلد، ايلك طبعه، احمد جودت، اقدام مطبعسنده طبع اولنمشدر (استانبول ، ١٣١٥) ص ٣٦١. وسنشير الى هذا المصدر لاحقا باسم اوليا جلبي سياحتنامه سي

(٣) المصدر نفسه، ص٣٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٨.

وكان للمسلمين ٢٤ محرابا للصلاة وسبع دور للحديث وعشرة دور للقران واربعون مدرسة للبنين وتكايا وزوايا كثيرة[٥]. ويوضح الجدول رقم (ا) تقسيمات السكان المسلمين وتوزيعهم على حارات المدينة ومحلاتها[٦].

(٥) المصدر نفسه ص ٣٦٩

(٦) سيار كوكب الجميل، بقايا وجذور، تكوين العرب الحديث، ط٢، (عمان، ١٩٩٧) ص ص ١٩٨ – ٢٠٣.

اسم المحلة	١٥٢٥				١٥٥٥				١٥٩٦			
	منزل	مجرد	معفى	جند	منزل	مجرد	معفى	جند	منزل	مجرد	معفى	جند
الشرف	٨٩	–	–		٣٧٩	١٩	٢١٢		١٥٠	٩		
باب القطانين	١٠٢	١	–		١٦٦	١٣	٢٠		١٥٠	١٢		
الرميشة	١٥	–	–		١٨٩	–	١		١٦٣	١١		
المغاربة	٣١	–	–		١٣٠	٢	–		١٢٦	٧		
باب العمود	٧٨	١	–		٣٨٦	٢	٢		١٨٨	١٩		
عقبة الست	٢٤		–		٥٠	–	–		٢٤	–		
باب حطة	١١٠		١		٣٠٨	٥٢	٦٨	١٩	٢٢٦	٣٠	٣	١٨
الزراعنة	١١٠				٣٠٦	٤	–		٢٢٣	١٥		
حارة بني حارث	٧	٠	٠			٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠
حارة الجوالدة	١١	٠										
حارة بني زيد	٤٦	٠	٠		٩							
المجموع	٦٢٣	٢	١	١٩٥٣	٩٥	١١٣	١٩	٣	١٢٦٨	١٠٦	٢١	

الـى جانـب المسـلمين أقـام النصـارى بمختلف طـوائفهم فـي مدينة القدس، حيث تركزت إقامتهم في حارة النصارى وحي الأرمن ومحلـة السـريان ومحلـة أولاد قبطيـة ومحلـة رحبة بن عز الدين ومحلات الحدادين والملاط والأفــرنج والتبانــة[١]. فضــلاً عــن المشــرق والريشـة التـي سـكنوها الـى جانـب المسـلمين واليهـود، حـول كنيسـة القيامـة وفـي الجـزء الجنوبي الغربـي من المدينـة[٢]. وفـي القـرى المجاورة لها لاسيما بعض القرى التي كانت نسبة النصارى فيها هي الأكثر مثل بيت لحم وبيت جالا وصوبا ويبرود ودير أبان وعـين كـارم وأرطــاس وغيرهــا[٣]. ونصــارى القــدس مــن طوائــف مختلفــة مــن الــروم الأرثــذوكس والأرمــن[٤] وكـان لهـم فيهـا كنيسـة للأرمـن وثلاث كنائس للأرثذوكس[٥].

ويقسم اوليا جلبي نصارى القدس الى قسمين أولهما نصارى المدينة أو من هم من مـدن فلسـطين المختلفـة، وثانيهمـا النصـارى الـذين وفـدوا الـى المدينـة مـن مختلـف انحـاء العالم واسـتقروا فيها وشـكلوا فيها طـوائفهم، مثــل اللبنــانيين وأقبــاط مصــر والحبشــة والفرنسيين والروس وغيرهم[٦].

---

(١) احمـد حسـين عبـد الجبـوري، القـدس فـي العهـد العثماني ١٦٤٠ - ١٧٩٩ دراسـة سياسـية - اقتصادية - اجتماعيـة - ثقافيـة (اطروحـة دكتـوراة ، كليـة الاداب، جامعة الموصل ٢٠٠٩) ص ١٧٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) احمـد حامـد ابـراهيم القضـاه ن نصـارى القـدس، دراسة في ضوء الوثائق العثملنيـة (بيروت، ٢٠٠٧) ص ص ١٨١ -١٨٧.

(٤)اوليا جلبي سياحتنامه سي، ص ٣٧٣.

(٥) المصدر نفسه ص ٣٧٥

(٦)المصدر نفسه ص ٣٨٠

ويوضح الجدول رقم (٢) اعداد نصارى المدينة وتوزيعهم في محلاتها[١].

اسم الطائفة	٩٣٢ه/١٥٢٥م				٩٤٠ه/١٥٣٣م				٩٦٣ه/١٥٥٥م				٩٧٤ه/١٥٦٦م			
	خانة	مجرد	رهبان	معفى	خانة	مجرد	رهبان	معفى	خانة	مجرد	رهبان	معفى	خانة	مجرد	رهبان	معفى
جماعة المالكانية	٩٦				٨٥	٢٠		١	١٧٩	١٨		٢	١٨٤	١٧		٣
طائفة السريانية	٨				١٣	–			١٩	٥			٢٢	٤		
الاقباط	–				٢٦	٦			٥٣	٨			٤٣	٤		
اليعاقبة (الارمن)	١٥				–	–			–	–			٥٤	–		
رهبان في أديرة	–				–	–	٤٠		–	–	١١٥		–	–	٩١	
المجموع	١١٩				١٢٤	٢٦	٤٠	١	٢٥١	٣١	١١٥	٢	٣٠٣	٢٥	٩١	٣

(١)المصدر نفسه ص ٣٨٣

وفضلاً عن المسلمين والنصارى فقد سكن القدس مجموعة من اليهود،ذكر أوليا جلبي ان عددهم كان قليلاً مقارنة بالمسلمين والنصارى، ولم يأت اوليا جلبي بتفاصيل كثيرة عنهم سوى انهم يعيشون في أحياء صغيرة من المدن وكان لهم شيخ يتولى أمورهم[١].

وكان لهم في المدينة كنيسان[٢].

ومن الضروري الوقوف على إن عدد سكان القدس لم يكن معروفاً بدقة والسبب في ذلك يعود الى عدم وجود إحصاءات رسمية دقيقة يمكن الركون إليها في تحديد العدد الحقيقي للسكان. وذكر اوليا جلبي إن عدد سكان القدس حين زارها سنة ١٦٧٢ كان يبلغ ٤٦ ألف نسمة أكثرهم عرب مسلمون[٣]. ويظهر الجدول رقم (٣) تفاوت أعداد السكان لمدينة القدس خلال سنوات متفرقة[٤].

---

(١) Bernard Lewis and Amnon Cohen , population and revenue in the towin of palestyine in the 16th century (newjersy , 1978) p , 16.

(٢) الجبوري، المصدر السابق، ص ٢١٥.

(٣) عبد الجليل حسن عبدالمهدي، المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي والمملوكي ودورها في الحياة الفكرية (عمان، ١٩٨٦) ص ١٣.

(٤) سلامة نعيمات، "الحياة العلمية في القدس في القرن الثالث عشر من خلال سجلات المحكمة الشرعية" ن دراسات في مصادر تاريخ العرب الحديث، ابحاث الندوة التاسيسية لدراسة مصادر تاريخ العرب الحديث، جامعة أل البيت (الاردن، ١٩٩٨) ص ٧٨.

اسم القرية	٩٣٢هـ/١٥٢٥م				٩٦٣هـ/١٥٥٥				١٠٠٥هـ/١٥٩٦			
	المسلمون		النصارى		المسلمون		النصارى		المسلمون		النصارى	
	خانة	مجرد	خانة	مجرد	خانة	مجرد	خانة	مجرد	خانة	مجرد	خانة	مجرد
تقوع	٢٥	٢	٥٥	–	٩١	١٤	٥	–	٦٦	–	٥	–
بيت ساحور النصارى	–	–	٧	–	١٧	–	٩	–	١٥	–	٨	–
صوبا	–	–	–	–	١٩	٢	٦	–	١٥	–	٧	–
بيرود	–	–	–	–	٢٣	–	٣	–	٢٤	–	٤	–
نحالين	–	–	–	–	٢٤	–	٧	–	٤٠	–	١٦	–
دير بان	–	–	–	–	٢٣	–	٢٣	–	٢٣	–	٢٣	–
رام الله	–	–	–	–	١٠	–	٦٣	٨	٩	–	٧١	–
بيت ريمة	–	–	–	–	٥٦	–	١٣	١	٥٤	–	١٤	–
عين عريك	–	–	–	–	١١	٣	١٠	–	١٤	–	١٠	–
بيت لحم	٣٩	–	٦١	–	١٠٦	١	١٤٤	٥	–	–	٢٨٧	–
بيت جالا	–	–	١٢٩	–	٢	–	١٧١	٤٧	–	–	٢٣٩	–
جفنة النصارى	–	–	–	–	–	–	٣١	–	–	–	٣١	–
طيبة الاسم النصارى	–	–	٩٨	–	–	–	١١٦	–	–	–	–	–
المجموع	٦٤	٢	٣٥٠	–	٣٨٢	٢٠	٦٠١	٦١	٢٦٠	–	٧١٥	–

ثانياً. المحور الثقافي

انعكس الواقع الديني لمدينة القدس على وضعها الثقافي فكانت مركزاً علمياً لرجال الدين والشيوخ وطلاب العلم. فغدت المدينة خلال العهد العثماني مركزاً رئيساً للمعاهد ودورالمدارس الملحقة بالمساجد ودور العبادة الأخرى[1]. التي كانت تدرس العلوم الشرعية وعلوم اللغة[2]. وكانت مدارس القدس الإسلامية مقسمة بحسب المذاهب الأربعة الموجودة فيها، وذكر اوليا جلبي ان القدس كانت تضم ٤٠ مدرسة للبنين ملحقة بالمساجد ومنفصلة ،وسبع دور تدريس علوم الحديث وعشر دور لتحفيظ وتعليم القران[3].

وكانت مدارس المذاهب الأربعة موزعة على زوايا المسجد الأقصى، وبلغ عدد العاملين في تلك المؤسسات الثقافية في داخل المسجد الأقصى وخارجه ٨٠٠ ما بين شيخ ومعلم وخادم[4]. ورواتب أولئك العاملين

(١) لمزيد من التفاصيل حول موضوع المكتبات انظر: أمنة ايوب خليل، مكتبات بيت المقدس في العهد العثماني من واقع ومكتبات الكتب المنشورة في سجلات المحكمة الشرعية في القدس: ندوة المكتبات الفلسطينية الثاني، (نابلس، ١٩٩٦) ، ص ٣ – ٢٠.

(٢) اوليا جلبي سياحتنامه سي، ص ٤٠١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٢

(٤) المصدر نفسه.ص ٣٠٣

كانت تدفع من خزينة السلطان العثماني حيث كان يرسل رئيس المحاسبين ومسؤول الخزينة سنوياً الى القدس ليوزع الرواتب وهدايا السلطان على الشيوخ وطلاب العلم[5]. وفي ذلك المجال أورد اوليا جلبي ملاحظة طريفة استقاها خلال اقامته في القدس حول العاملين في المسجد الأقصى مفادها ان "الخدمة في التعليم (التدريس) كانت محصورة في عائلات معينة يتوارثها الأبناء عن الآباء كلما مات واحد قام مقامه ولده أو من أهلهم"[6].

ثالثاً. المحور العمراني

تعد الحركة العمرانية في القدس من أهم ملامح الحكم العثماني فيها فمنذ الفتح أولى السلاطين العثمانيون اهتماماً خاصاً بتطوير وترميم المعالم والمرافق العمرانية للمدينة المقدسة ولاسيما في عهد السلطان سليمان القانون (١٥٢٠-١٥٦٦) الذي قام باعمار وترميم وصيانة العديد من المرافق العمرانية في المدينة وخلال زيارة أوليا جلبي للقدس تكلم بإسهاب عن أعمال السلطان سليمان القانوني في تلك المجال.

كانت أول الأعمال العمرانية للعثمانيين هو تحويل كنيسة العشاء الأخير الى مسجد للمسلمين وأشارالى تاريخ انجاز العمل الى ٨

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤١١.

كانون الثاني ١٥٢٤[١]. وذكراوليا جلبي ان خطوة السلطان سليمان جاءت لتأكيد الهوية الإسلامية للقدس من تحويل مبنى الكنيسة ودير الفرنسيسكان التابع له "قد تم تحويله الى وضع يتلاءم مع الإسلام وبالتالي تحريره من أيدي الكفار"[٢].

استأثر مسجد قبة الصخرة لما يحمله من قدسية لدى المسلمين باهتمام خاص من السلطان سليمان القانوني الذي امر بعمارته وترميمه، فتم تجديد شبابيك المسجد المثمن الشكل والبالغ عددها -أي الشبابيك- ٣٦ شباكاً، والمزخرفة بقطع زجاجية ملونة، كما تم تزيين الواجهات الخارجية للمسجد بالطابوق المعروف باسم (الكاشاني أو القاشاني)، واستخدم في عمارته قطع من الفسيفساء متعددة الألوان وبلاط زجاجي ملون[٣]، مع تغليف أبواب المسجد الخشبية بالبرونز[٤]، وقد استعان السلطان في إعمار مسجد قبة الصخرة بأمهر المعماريين والمهندسين العثمانيين هما أحمد قره حصاري والمعماري سنان[٥].

وبعد إكمال أعمار مسجد قبة الصخرة كتب اوليا جلبي قائلاً "ولما كان مولانا السلطان في هذا الزمان هو أكثر حكام العالم تشريفاً واحتراماً. فقد جعل من هذا الصرح جنة لا مثيل لها على الأرض لأن السلطان وحده هو القادر على أن يكون مالكاً لبيت الله"[٦].

وفضلاً عن مسجد قبة الصخرة أمر السلطان بترميم المسجد الأقصى، حيث عهد بهذا الأمر الى المهندس العثماني المعروف سرخوش عبدو (عبدو السكران) الذي بنى محراب المسجد الذي زينته باثني عشر نوعاً من الزجاج الملون وبطريقة هندسية فريدة كانت تسمح لأشعة الشمس بإضاءة المكان بأكمله[٧].

وتبلغ مساحة المسجد من الداخل ٣٠٠ خطوة من البوابة الجنوبية حتى محراب الصلاة ومنها الى زاوية المالكية ٤٠٠ خطوة ويضم المسجد سبعين عموداً تستند قبته فوقها، وتستند هندستها على أقواس ينصب فوقها سطح أشبه بالعرش مع سقف خشبي يقوم على عشرين جسراً مصبوغة بألوان مختلفة[٨]. ويبلغ ارتفاع قمة القبة ٤٠ ذراعاً عن الأرضية ويستند المسجد من الداخل على ١٢٠ قوساً، وتقع قبة فوق محراب الصلاة وهي

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٤١٤ ز
(٣) المصدر نفسه، ص ٤١٥.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه، ص ٤١٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ص ٤١٧- ٤١٨.
(٧) المصدر نفسه، ص٤١٨.
(٨) المصدر نفسه، ص٤١٩.

الجزء الأعلى من البناء ويبلغ ارتفاعها ٥٠ ذراعاً وهي ليست دائرية الشكل كباقي القباب بل اهليليجية الشكل[١].

ولم تقتصر أعمال الترميم على المسجد فقط بل امتدت لتشمل كافة الحرم القدسي، وهذا ما أكده اوليا جلبي بقوله: "... ومن المسجد الأقصى يسير المرء عبر مرج أخضر فوق رصيف يبلغ طوله ٢٠٠ خطوة من الألواح الرخامية البيضاء التي تم رصفها بأمر من سلطاننا المعظم سليمان خان. ومن ثم تتجه الخطوات مباشرة نحو حوض مائي كبير مبني من الرخام الذي اقتطع من كتلة واحدة حسب تعليمات السلطان نفسه أنه معلم فريد لا مثيل له على الأرض انه رائع ويقع في وسط الرصيف"[٢].

والحقيقة كان من أولويات السلطان المعمارية هو ترميم وتحصين سور المدينة وقلعتها من جهاتها الأربع، ومن المعروف أن مدينة القدس ظلت بلا اسوار لمدة تزيد عن ٣٠٠ عام منذ ان دمر الملك المعظم عيسى الايوبي اسوارها سنة١٢١٩[٣]. لذلك فقد كان أول إجراء قام به السلطان العثماني بعد إنجازه ترميم الحرم القدسي هو بناء القلعة الواقعة في الجهة الغربية من المدينة، التي بدأ العمل بها مطلع سنة ١٥٣١ وأضيف إليها ممر من جهة الشرق ونقش فوق بابها ان عمارتها وترميمها "كان بأمر من السلطان سليمان " وتم تشييد مسجد في الزاوية الجنوبية الغربية من القلعة وفي مقدمة محراب ومنبر، وللدلالة على إسلامية المكان تم بناء مئذنة المسجد المستديرة فوق البرج الجنوبي للقلعة[٤].

أما سور المدينة فقد بناءه العثمانيون لسببين أولهما حمايه المدينة من الغزاة وثانيها تحصينها ضد هجمات العربان[٥]. واستمر بناء السور لمدة خمس سنوات، فوق أساسات السور الذي كان قد بناه الأيوبيون وبلغ طوله ٤كم، وشمل سور الحرم الجنوبي وزاويته الجنوبية الشرقية، وسور القلعة في الجهة الغربية[٦].

(١) المصدر نفسه، ص٤٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٢٢.

(٣) الجبوري المصدر السابق، ص ٢٨٠..

(٤) المصدر نفسه، ص٤٢٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٢٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٤٢٦ ،

الخاتمة

شكلت كتب الرحلات مصدراً مهماً وغنياً في دراسة تاريخ العرب في العهد العثماني وهناك نوعان من الرحالة الذين زاروا الدولة العثمانية والذين كتبوا عن ولاياتها أولهما الرحالة الأجانب وثانيهما الرحالة المحليون (عرب وأتراك عثمانيون) والحقيقة تعد رحلة أوليا جلبي واحدة من اهم الرحلات التي دون كاتبها معلومات مهمة شملت جوانب مختلفة من تاريخ وجغرافية الدولة العثمانية. فأوليا جلبي قام برحلة واسعة شملت مناطق واسعة داخل وخارج الدولة العثمانية ودّون ما شاهده في عشر مجلدات ضخمة تناولت جوانب ثقافية واجتماعية وعمرانية وفلكلورية.

أولى أوليا جلبي اهتماماً خاصاً في المجلد الثالث من رحلته من مدينة القدس فأفرد صفحات كثيرة للكلام عن بيئتها الاجتماعية والثقافية والعلماء الذين كانوا يدرسون في مدارسها والمكتبات العامة التي كانت موجودة في المدينة أهم المدارس المنتشرة في أرجاء المدينة كما وتكلم أيضاً عن الطرز المعمارية التي كانت سائدة في المدينة وأهم المشاريع العمرانية التي كانت قائمة فتحدث بإسهاب عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة وسور المدينة والقلعة التي كانت موجودة داخل هذا السور وما أسهم به العثمانيون من تجديد وبناء وعمارة هذه المنشآت المعمارية. ويمكن القول ان رحلة اوليا جلبي تعد من أهم المصادر العثمانية التي درست أوضاع الولايات العربية في القرن السابع عشر لما حوته من معلومات متنوعة أغفلت عنها كتب التاريخ السياسي ولذلك فهي من المصادر التي لابد للباحث العربي أن يعود إليها لتشكيل صورة الحدث التاريخي الذي يدرسه.

عُروبة القُدسِ وأسبَقيةُ الوُجودِ العربَي في فلسِطين

دراسةٌ في المُتون التَوراتية

الدكتور
إسماعيل حامد إسماعيل علي
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
ورئيس قسم الدراسات الإسلامية (باللغة الإنجليزية)
الجامعة الإسلامية بولاية منيسوتا الأمريكية

المقدمة:

تعالج الورقة إشكالية الوجود العربي في أرض فلسطين، ودور العرب في بناء مدينة القدس منذ أقدم العصور، استنادًا لما ورد في كتب اليهود المقدسة لاسيما التوراة. ولعل المأرب من ذلك لتأكيد الحقوق العربية-الإسلامية في إطار موضوعي يتفق مع المنهج العلمي في ضوء الكتابات اليهودية المقدسة دحضاً لمزاعم اليهود، ومن مال من سار على دربهم. ونعلم أنها إشكالية تتسم بالتعقيد، والغموض لاسيما مع محاولات كل طرف إثبات رؤيته، وأحقيته في هذه الأرض. ولاريب أن إدعاءات اليهود لاتتوقف حول القدس والمسجد الأقصى لكسب حقوق ليست لهم، ولإقناع الشعوب الأخرى بأفكار مغلوطة تخدم مآربهم الاستعمارية، ومعلوم أن الغرب يتبنى بشكل أو بآخر مزاعم اليهود حول "الحق اليهودى" فى أرض فلسطين. ومن ثمة، كان من المهم طرح تلك القضية من خلال المتون اليهودية ذاتها لتكون الحقيقة جلية أمام الجميع من مصادر الطرف الآخر، ولعل هذا من دواعي أهمية تلك الدراسة التي نحن بصددها. وتحاول الدراسة أن تجيب على بعض التساؤلات المهمة: متى استقر العربُ واليهود في فلسطين؟ ومن بنى مدينة القدس؟ ومتى ظهر اليهود بالمدينة في ضوء النص التوراتي؟

الكلمات الدالة: "العرب، اليهود، القدس، فلسطين، اليبوسيون العرب..الخ".

١- اليهود ونظرتهم للأغيار (الجوييم) بحسب المتون التوراتية:

تحمل متونُ التوراة والتلمود[١] صورًا لافتة من الغُلو في تضخيم الذات، وتصوير اليهودي منتميًا لأرقى الإعراق والبشر، وأنهى الأطهار والمباركين دون غيرهم..الخ، وغير ذلك من التصورات الراديكالية، والمُبالغ فيها بشكل مُفرط. وتُعرف التوراة الحالية[٢] بأنها: "توراة عزرا"[٣]، أو "التوراة الثانية"، وعزرا (وهو العُزير في القرآن) هو الحاخام اليهودي الذى أعاد تدوين أسفار التوراة إبان القرن ٥ ق.م بعد اختفاء "توراة موسى"، أو "التوراة الأولى"، لما دمر نبوخذ نصر (بُختنصر) ملك بابل- سنة ٥٨٦ ق.م- مدينة "يبوس" (القدس)، والهيكل المقدس الذي بناه الملك سليمان بن داوود (٩٧٠-٩٣٠ ق.م) بحسب العهد القديم[٤]. ويُعتقد أنه أضيفت الكثير من الروايات والأفكار

---

(١) التلمود: هو تفسير الحاخامات لأسفار التوراة، ويعني الاسم: التعليم، أو التعاليم، ويقسم التلمود لقسمين: المشناة (المشنة) وهو الموضوع، أو التكرار، وهو عبارة عن تفسير الحاخامات للتوراة، ومتونها، أما الجمارة (الجمارا): وهي التفسير، أي: تفسير الحاخامات للمشناة ذاتها (انظر، بطرس عبدالملك وآخرين: قاموس الكتاب المقدس، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، دار مكتبة العائلة، القاهرة، د.ت، ص٢٢٢).

(٢) التوراة: هي الكتاب المقدس الذي نزل على موسى عليه السلام لما صعد لميقات ربه على جبل موسى، أو جبل سيناء، ويحدد بعض الباحثين السنة التي نزلت فيها التوراة بحوالي سنة ١٢٣٠ ق.م للمزيد، انظر:
Lynne Sable & Philip Steele: Thousand Great Events, Hamlyn Publishing Group, London (New York), 1979, PP. 18-19.

(٣) توراة عزرا: هذه التوراة نسبة للكاهن اليهودي عزرا هوفير، أو عزرا الكاتب (أو الناسخ)، وهو الذي أعاد كتابة التوراة بعد العودة من السبي البابلي أيام الملك الفارسي كورش الذي أظهر تسامحاً مع اليهود، كما يصف الكتاب المقدس عزرا بأنه كاتب شريعة إله السماء (انظر إسماعيل حامد: عزرا كاتب
=
=
التوراة، دار مشارق، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٤٥-٥٠. تقول رواية العهد القديم عن عزرا: "وهذه صورة الرسالة التي أعطاها الملك أرتحشستا لعزرا الكاهن، كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه (أي أنه كاتب التوراة) على إسرائيل" (سفر عزرا-٧)، وفي متن آخر: "وفي الشهر الخامس جاء (عزرا) إلى أورشليم حسب يد الله الصالحة عليه. لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء" (عزرا – إصحاح ٧).

(٤) وللمزيد عن الهيكل الأول (أو هيكل سليمان)، ودماره، انظر عبدالوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، جـ١، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٤١٠. يقصد بالتوراة الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وهي المعروفة بأسفار موسى الخمسة أو البنتاتوك (أي الكتب الخمسة)، بينما يضم العهد القديم ٣٩ سفرا من بينها الكتب التي تنسب لموسى عليه السلام (انظر، توماس ل. تومسون: أسفار العهد القديم في التاريخ (اختلاق الماضي)، ترجمة: عبدالوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٩٤، آلان انترمان: اليهود، ص٩١-٩٧).

المغلوطة لمتن التوراة الأولى آنذاك، وهو ما يُطلق عليه البعضُ إشكالية تحريف الكتاب المقدس. ويعترف علماء اللاهوت اليهود ذاتهم بتحريف التوراة، ومن أبرزهم "باروخ اسبينوزا" (١٦٣٢-١٦٧٧م) الذي يذكر أن "عزرا الكاهن" قام بجمع متون التوراة ورواياتها من العديد من المصادر المتباينة، وأنه لم يحاول التوفيق بينها في ذات الآن[١]. ومن أكثر من اتهم اليهود بالكذب، وأنهم حرفوا التوراة عمدًا خدمة لمآربهم "مارتن لوثر"[٢] مؤسس مذهب "البروتستانت" الذي يقول: "**واليهود هم على الخليقة المنافقون، وسفاكو الدم بلا مراء، لم يكتفوا بتحريف التوراة، وتزييف كلامها من أولها لآخرها، مُضيفين إلى ذلك تفاسيرهم المُضللة**"[٣]. وهو ما يؤكد تعمد اليهود تحريف التوراة ليستفيدوا من ذلك لتحقيق أهدافهم استغلالاً للمتون التوراتية التي يقدسونها. ويؤكد فكرةُ التحريف أن العلماء اكتشفوا حديثًا وجود تشابه واضح بين روايات التوراة (الحالية)، وما ورد في روايات الأساطير والميثولوجيا المرتبطة بالشعوب القديمة، وعقائدهم في الشرق، مثل: مصر القديمة، وبلاد الرافدين، وبلاد فارس..الخ[٤].

---

(١) باروخ اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص٢٧٦. ويقول اسبينوزا عن عزرا الكاتب: "وقد أخذ عزرا دورا بارزا في إعادة كتابة وصياغة الأسفار الخمسة (أي أسفار موسى)، وفي جمع التراث اليهودي، وفي الاعتماد على سفر حزقيال. ويقال إن عزرا أملى بعض الأسفار المقدسة، كما يعزى إليه كثير من الأحكام الشفاهية التي كانت معروفة وقت ظهور المسيح والتي كانت تتقدم في بعض الأحيان على الشريعة المكتوبة ذاته (أي التوراة).." (باروخ اسبينوزا: اللاهوت والسياسة، ص٢١٨). وبحسب كلام اسبينوزا ان آراء عزرا كان اليهود يقدمونها في بعض الأحيان عن كلام التوراة ذاتها. ولهذا لم يكن غريبا أن يقدس اليهود عزرا (وهو العزير في القرآن) حتى زعموا أنه ابن الله: "وقالت اليهود عزير ابن الله" (التوبة: آية ٣٠).

(٢) مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م): هو مؤسس المذهب البروتستانتي، حيث خرج عن تقاليد الكنيسة المسيحية، واعترض على تجاوزات الكهنوت المسيحي، ومحاولاتهم استغلال الدين للربح والثراء عن طريق صكوك الغفران..الخ، ومن ثم قام مذهب البروتستانت =

= على عدم وجود كهان أو قساوسة لأن العلاقة بين العبد والرب لاتحتاج لوسيط، كما رفض مارتن تفسيرات لآباء الكنيسة، وقال إنه لاقداسة سوى للكتاب المقدس (الإنجيل)، وغير ذلك من التعاليم، وقد وضع مارتن لوثر آراءه وأفكاره في ٩٥ مادة وتعليم (محاورة). وللمزيد عن مارتن لوثر، وتعاليمه، ونظرته الحادة لليهود، انظر مارتن لوثر: اليهود وأكاذيبهم، تحقيق: د. محمود النجيري، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٤٣ وما بعدها، وانظر أيضا:

Lynne Sabl: Thousand Great Events, Op. Cit., P. 113.

(٣) مارتن لوثر: اليهود وأكاذيبهم، ص٧٦.

(٤) كارم محمود عزيز: أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٨-١٠. وعن ذلك الأمر، يقول أحد الباحثين: "ويعتبر أسلوب =

ولأن ظهور تلك الحضارات أقدم تاريخيًا من الوجود اليهودي، ومن ثمة يُعتقد أن كاتب "التوراة الثانية" (عزرا هوفير، ومن جاء بعده) استفاد مما ورد في الروايات الواردة في تلك الحضارات القديمة، وتراثها الفكري والأيديولوجي[١]. ويؤكد عالمُ اللاهوت باروخ اسبينوزا أن أسفار التوراة التي دونها عزرا الكاهن تبدو مُضطربة، ومُتعارضة في متونها، ورواياتها، وهو ما يؤكد ذات الطرح الذي نرمي إليه[٢]. وعن شخصية "عزرا هوفير"، تقول رواية العهد القديم: "وفي الشهر الخامس جاء (عزرا) إلى أورشليم حسب يد الله الصالحة عليه. لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب (أي التوراة) والعمل بها، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء"[٣].

وتذكر المصادر الإسلامية أن "العُزير" (وهو عزرا التوراتي) كان أحد أنبياء بني إسرائيل، وكانت أيامه فيما بين سليمان بن داوود عليهما السلام من ناحيةٍ، وزكريا ويحيى عليهما السلام من ناحية أخرى[٤]. وفي ذات الصدد، تعج أسفارُ التوراة (الحالية) وكذلك التلمود العبري بالإطراء على بني إسرائيل[٥]، وتنعتهم تلك الكُتب بأنهم "شعب الله المختار"، وكذلك يُوصفون بأنهم "أبناء الله"، و"الأبناء المُقدسين"، والأطهار، والمُباركين، وأنهم خلقوا نُطفة الرب، كما يعتقد اليهودُ أنهم "شعب الله"[٦]، و"خاصته" وحدهم، وأنهم أرقى من الشعوب الأخرى أصلاً، وعرقًا وهو ما يُعرف لدى البعض بمصطلح: "الاصطفاء الإلهي" Individualism Divine

---

=

روايتي الخلق في سفر التكوين في رأي روث مشابها للإسلوب الاستهلالي لملاحم بلاد النهرين بصفة عامة. وبمقارنة النموذج السومري بالنموذج العبري، يبدو العديد من أوجه المشابهة.." (كارم محمود: أساطير التوراة، ص١١٢).

(١) كارم محمود عزيز: أساطير التوراة الكبرى، ص١١٢.

(٢) باروخ اسبينوزا: المرجع السابق، ص٢٧٦.

(٣) (سفر عزرا - إصحاح ٧).

---

(٤) ابن كثير: قصص الأنبياء، مكتبة الصفا، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٦٥٧.

(٥) هناك فرق شاسع بين لفظ بني إسرائيل (أو إسرائيلي) واليهود (أو يهودي)، فالاسم الأول (بنوإسرائيل) نسبة ليعقوب النبي الذي لقبه الرب باسم إسرائيل كما ورد في سفر التكوين. أما اسم اليهود فيؤرخ لأيام السبي البابلي لما عاد اليهود من السبي أيام كورش الفارسي في القرن ٦ ق.م، حيث كان أكثر من عاد منهم من قبيلة يهوذا بن يعقوب النبي، ولهذا عرفوا باسم اليهود نسبة إليه (عبدالوهاب المسيري: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٥م، ص١٥٨-١٦٢).

(٦) يقول د. عبدالوهاب المسيري: "مصطلح الشعب المختار تعبير عن مقولة أساسية في النسق الديني اليهودي، وتعتبر في الوقت نفسه عن الطبقة الحلولية التي تشكلت داخل التركيب الجيولوجي اليهودي.." (المسيري: اليهود واليهودية والصهيونية، جـ٢، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٦م، ص٢٦).

للشعب اليهودي من دون البشر، أي أن الله اصطفاهم من دون الشعوب الأُخرى، والذين يُطلق اليهود عليهم تسمية: "الجوييم"، أو "الأغيار"، وهم كل الشعوب من غير العرق اليهودي..إلخ[١]، وغير ذلك من الرؤى والتصورات الراديكالية التي تؤكد الإفراط في مدح الذات، وهي فكرةٌ ربما تتضح بشكل فجٍ من خلال المتون التلمودية، وهو تفسير حاخامات اليهود لأسفار التوراة[٢].



خريطة تصور أرض كنعان القديمة وأشهر المدن بها

وقد ورد في التلمود أن أرواح اليهود تتميز عن باقي البشر "الجوييم" لأنها جزءٌ من الرب، ومن ثم فأرواحهم عزيزةٌ، ومباركة عند الرب مقارنة بالأغيار[٣]. كما يذكر التلمود: **"إذا لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش، والفرقُ بين درجة الإنسان والحيوان بقدر الفرق بين اليهود وسائر البشر"**[٤]. كما يُقدم التلمود حاخامات اليهود باعتبارهم التجسيد الحي لأسفار التوراة، أي لكلام الرب، أو الوحي الإلهي (التوراة)، ومن ثم صار أيُ عملٍ من أعمال الحاخامات اليهود تعبيرًا عن التوراة، ورؤيتها[٥]. وهو ما يشير لتقديس اليهود لهؤلاء الحاخامات، ومدى تأثيرهم في حياتهم لاسيما "المُتدينيين" منهم (أي: "الحريديم")، وهو تأكيدٌ على فكرة "الدولة الدينية" في التصور اليهودي، والتي حاربتها أوروبا مع إرهاصات عصر النهضة من خلال الفكر العلماني، وفصل الدين عن الدولة.

---

(١) انظر توماس ل. تومسون: أسفار العهد القديم في التاريخ، ص١١٩-١٢٠. وللمزيد عما يعرف بمصطلح الاصطفائية أي اصطفاء الرب (يهوه) لليهود، وأنهم شعبه وحدهم من دون البشر، وللمزيد عن ذلك، انظر آلان انترمان: اليهود عقائدهم الدينية وعباداتهم، ص٥٩. المسيري: اليهود واليهودية، جـ٢، ص٢٦.

(٢) روهلنج شارل لوران: الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة: أحمد حجازي السقان دار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، ٢٠١١م، ص١٤-١٨.

(٣) مارتن لوثر: اليهود وأكاذيبهم، ص٢٠. كما يقول التلمود: "الخارج من دين اليهود حيوان على العموم، فسمه: كلبا، أو حمارا، أو خنزيرا، والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان" (م. لوثر:المرجع السابق، ص٢٠).

(٤) مارتن لوثر: المرجع السابق، ص٢٠.

(٥) آلان انترمان: اليهود عقائدهم الدينية وعباداتهم، ص٧٠-٧١.

٢- النظـرةُ اليهوديـة السـلبية تجـاه (الكنعانيين) الفلسطينيين:

تحمل المتونُ التوراتية والتلمودية نظرة جد سلبية تجاه الكنعانيين، أو الفلسطينيين، ويبدو ذلك من خلال نظرتهم الدونية لنسل حام بن نوح عليه السلام، وتحديدًا نسل "كنعان"[١]، والكنعانيون هم أجداد الفلسطينيين القدامى، وهم (أي الكنعانيون) الذين تُنسب لهم أرض فلسطين منذ أقدم العصور، ولهذا اشتهرت تلك الأرض بـ"أرض كنعان"، وذلك بحسب متون التوراة، لاسيما ما ورد في العديد من روايات "سفر التكوين"[٢]. وكان أول ذكر لاسم "كنعان" - ذاته- في المصادر التاريخية يؤرخ لحوالي القرن ١٥ ق.م، إذ ورد ذكرهم في رسائل "تل العمارنة"، وكان المصريون يشيرون لأرض كنعان باسم "بالاستو"، أي: "فلستيا"، وهي التسمية التي صارت بعد ذلك تُنطق: (فلسطين)[٣]. وبدءا من سنة ١٣٨م، استخدم الرومان تسمية "بالتسينا" Palistina، وذلك إشارة إلى هذه البلاد (أي أرض كنعان)[٤].

ويشير البعضُ إلى أن اسم "بالستيا" Palistia(أي: فلسطين) كان يُطلق بداية على ساحل أرض كنعان، ثم أطلقت ذات التسمية على باقي آراضي الكنعانيين بعدئذ. ومن المعلوم أن الكنعانيين هم أجداد "اليبوسيين" العرب، وهؤلاء اليبوسيون هم الذين أقاموا مدينة "يبوس" (القدس)[٥] في حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، وقيل الألف الرابع ق.م. ومما يلفت الانتباه أن متون التوراة والتلمود تُكثر لحد الإفراط في ذم شعب "الكنعانيين"، وقدحهم، وكذلك لاتتوقف عن توجيه "اللعنات" لهم دون مُبرر، ولعل من ذلك على سبيل المثال، يقول أحد المتون: "**فلما استيقظ نوحٌ..علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعونٌ كنعان. عبدُ العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام.**

---

(١) الكنعانيون: هم في الأصل من الشعوب السامية الذين ينتسبون لنسل سام بن نوح عليه السلام، وهم ليسوا من نسل حام بن نوح عليه السلام بحسب رواية التوراة، فهي رواية غير صحيحة، إذ إن الكنعانيين يعتبرون من الشعوب السامية القديمة.

(٢) (سفر التكوين- إصحاح ١٢)

(٣) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، جـ١، ٣٩٦. صارت تل العمارنة في المنيا حاليا عاصمة مصر أيام الملك الموحد أخناتون والذي أطلق عليها تسمية: أخت - أتون، أي أفق أتون، وقد كشف بها عن =

= العديد من الرسائل التي تم تبادلها بين حكام مصر في الأسرة ١٨ وملوك العراق القديم (بلاد النهرين)، مدونة بالكتابة المسمارية، ومن ثم حملت اسم رسائل تل العمارنة.

(٤) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، جـ١، ٣٩٦. وللمزيد، انظر حسن ظاظا (وآخرين): الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص٢٣-٢٤.

(٥) المسيري: المرجع السابق، جـ١، ٣٩٦.

وليكن كنعان عبدًا لهم. وليفتح الله ليافث فيسكن فـي مساكن سام. وليكن كنعان عبدا لهم"[1]، وهو قدحٌ فجٌ لا مُبرر له سوى إظهارًا للكراهية والحقد اليهودي الدفين تجاه الكنعانيين (أجداد الفلسطينيين) أصحاب هذه الأرض الأصليين.

وجديرٌ بالذكر أن العديد من باحثي التوراة الغربيين ممن حادوا عن جادة الصواب، وضلوا عن موضوعية المنهج العلمي، ورصانته بسبب ميـولهم، ومـن ثمـة أفاضـوا فــي الإسـاءة للكنعانيين، ومالوا ميل الرواية التوراتية السلبية عـنهم، وحملـت بعـض آرائهـم عنصـرية غيـر مُبررة. وهي آراءٌ يرفضها بعض المُنصفين من علماء اللاهوت في الغرب، ولعل من ذلك ما يُشير إليـه "كيـث وايـتلام" فـي رده علـى آراء أحـد هـؤلاء المتعصبين: **"هـذا التبريـرُ لإبـادة الشـعب الفلسـطيني كمـا نجـده لـدى أحـد أهم الباحثين التوراتيين في القرن ٢٠م، هو شـيء بـالغ الخطـورة، والأهميـة لسـببين: الأول: أنه يُعبر بشكل مذهل عن عنصرية سافرة..ويتطابق وصف أولبرايت للكنعانيين بـأنهم حسـيون، وغيـر أخلاقيين مـع وصـف المُستشرقين للآخر علـى أنـه النقيض التام للإنسـان الغربـي العاقـل، والمثقـف، إنـه وصـف يـؤدي للحـط مـن إنسـانية الشـعوب المحلية مما يؤدي لقبول فكـرة إبادة هذه الشعوب مثلما كان الحال مع سكان أمريكا الأصـليين"**[2]. وذلـك الـرد يُشـير بجـلاء لمـدى التـدني الفكـري والأخلاقـي، وعـدم الإنصـاف فــي الطــرح العلمــي لــدى بعــض علمــاء اللاهــوت تجــاه الفلســطينيين، وأجــدادهم القدامى، وحقوقهم في أرض فلسطين.

وعلــى أيــة حــال، يُــروج أتبــاع الفكــر الصـهيوني- مـن ناحيـة أخـرى- للمـزاعم التـي تحاول التأكيـد علـى أن "الكنعـانيين" كـانوا قـد أُبيـدوا تمامًا علـى يـد العبـرانيين الأوائـل الـذين قــدموا لأرض فلســطين، أو أنهــم ذابــوا فـيهم[3]، وتلـك ليسـت إلا محاولـة للـزعم بـأن الفلسطينيين (الحاليين) ليست لهم ثمة علاقة بالكنعـانيين القـدامى، ومـن ثـم لـيس لهـم حقوق فـي هذه الأرض حاليًا، وهو جانب من الحرب الدعائية الباطلة التي يقوم بها اليهودُ لتشويه الحقوق العربية، وطمسها فـي هذه الـبلاد. كمـا أن هــؤلاء الصــهاينة يرفضــون الاعتـراف بـأن اليهـود تعلمـوا مـن الكنعـانيين، وتأثروا بهـم، وبأفكـارهم، وعقائـدهم، وهـو أمرٌ

---

(١) (سفر التكوين- إصحاح ٩)

(٢) كيـث وايـتلام: إخـتلاق إسـرائل القديمـة، ترجمـة: سحر الهنيدي، مراجعة: د. فـؤاد زكريا، عـالم المعرفة، المجلس الـوطني للثقافـة والفنـون والآداب، الكويـت، عدد ٢٤٩، ١٩٩٩م، ص١٤٦.

(٣) المسـيري: موسـوعة اليهـود واليهوديـة، جــا، ص٣٩٤.

معروف، ولاجدال فيه، حيث كانت لأفكار وعادات الكنعانيين العديد من التأثيرات التي لاينكرها سوى غير منصف، على اليهود بمرور الزمن[١].

وعلى أية حال، فرغم أن المتون التوراتية تذكر أن الابن الأصغر لـ"نوح" (عليه السلام) ويُقصد به حام، وهو جد المصريين القدامى، وكذلك هو يُعد جد الكنعانيين (أجداد الفلسطينيين) الأقدم في ذات الوقت، فمن المعروف أن كلاً من "مصراييم" (جد المصريين) وكنعان من أبناء حام بن نوح، إلا أنه تُوجه اللعنةُ مباشرة إلى كنعان بن حام، وليس لأبيه "حام" نفسه بحسب رواية التوراة الواردة في "سفر التكوين"[٢]، فما ذنبُ كنعان إذن، وما علاقته بذلك الأمر المزعوم؟ ومن ثمة، فلا يوجد تفسيرٌ منطقيٌ للعنة التوراة على الكنعانيين، سوى الحقد والكراهية. بل إنه من اللافت أن "الكنعانيين"- أنفسهم- لم يكونوا من بين الشعوب الحامية، أي أنهم ليسوا من نسل حام كما تزعم سواءٌ متون التوراة، والتلمود، حيث إن الكنعانيين كما هو متفق عليه يُعتبرون من الشعوب السامية، أي أنهم من نسل سام بن نوح عليه السلام مثل اليهود[٣].

٣- الكنعانيون واليبوسيون العرب الذين بنوا القدس في الألف ٣ ق.م:

سكن الكنعانيون أرض فلسطين منذ أقدم العصور، وكان استقرار الكنعانيين قبل قدوم العبرانيين لهذه البلاد بزمن طويل، والكنعانيون هم أمةٌ ساميةٌ نازحة من شبه "جزيرة العرب" Arabia. ولفظ "الكنعانيين" صيغة نسب لـ"كنعان"، وهي كلمةٌ حُورية قديمة[٤]، وهي تعني "الصبغ القرمزي" الذي كان الكنعانيون يقومون بصناعته، وكذلك الإتجار فيه[٥].

ويجدر الإشارة إلى العلاقة التي تربط بين الكنعانيين والفينيقيين من ناحية أخرى، إذ إن كلمة "فينيقي" تعني "الصبغ الأرجواني"، وهو ذات المعنى الخاص بالكنعانيين، وعلى هذا، فمنذ القرن الثاني ق.م صارت كلمة "فينيقي" مرادفةً للفظ "كنعاني"[٦]. وفي

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩٤.

(٢) يقول سفر التكوين: "فقال ملعونٌ كنعان. عبدُ العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدًا لهم" (سفر التكوين- إصحاح ٩).

(٣) وللمزيد عن الكنعانيين، انظر حسن ظاظا (وآخرين): الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص٢٢-٢٤، وكذلك المسيري: موسوعة اليهود، جا، ص٣٩٦.

(٤) الحوريون: هم من الشعوب السامية القديمة عاشوا في شمال سوريا وبلاد الرافدين وكذلك في بلاد الأناضول، وهم كانوا يتحدثون اللغة الحورية التي حملت اسمهم (تركيا حاليًا).

(٥) المسيري: المرجع السابق، جا، ص٣٩٤.

(٦) المرجع السابق، ص٣٩٤. ويقصد بأرض فينيقيا المنطقة الساحلية في بلاد الشام، ولاسيما ساحل =

الغالب أن الفينيقيين هم أحد فروع الشعوب الكنعانية القديمة التي استقرت في بلاد الشام. وعن أصل "الكنعانيين"، يقول الدكتور عبدالوهاب المسيري: "وقد وصفهم (أي الكنعانيين) العهد القديم بأنهم حاميون، رغم أنهم ساميون، ولغتهم سامية، وربما كان ذلك لتبرير الحروب التي نشبت بينهم وبين العبرانيين.."[(١)]. وقد هاجر هؤلاء الكنعانيون من موطنهم الأول من شبه "جزيرة العرب" خلال النصف الأول من الألف الثالث ق.م، وتمت الهجرات الكنعانية في شكل هجرات مكثفة إلى أرض فلسطين، ومن ثم حملت هذه البلاد اسمهم منذ القدم، وصارت تشتهر باسم: أرض كنعان[(٢)].

ويُعتقد أن النبى إبراهيم عاش فيما بين القرنين ١٩ و١٨ ق.م، وعلى هذا فالوجود الكنعانى فى أرض فلسطين (كنعان) يسبق زمان قدوم النبى إبراهيم جد اليهود بأكثر من ألف سنة على اقل تقدير. وعن أسبقية الوجود العربي في القدس، يقول المسيري: "ويسبق وجودُ مدينة القدس الوجود العبراني في فلسطين بعشرات القرون، واستمرت بعدها بعشرات القرون الأخرى. فقد كانت مركزًا للحضارة الكنعانية، حيث كان اليبوسيون أول من أقام فيها مُلكًا، واتخذوا فيها هياكل لآلهتهم، واعتبروها مدينة مقدسة"[(٣)].

ويُرجح أن اليبوسيين (العرب) هم أحد فروع الشعوب الكنعانية التي استقرت في أرض فلسطين، ومن ثم حملت "القدس" اسم هؤلاء اليبوسيين فيما بعد حتى أيام الملك داوود في القرن ١٠ ق.م. وعلى هذا، كانت القدس مدينة يبوسية (عربية) معروفة، وكانت مقدسة قبل قدوم النبي إبراهيم

=

لبنان على البحر المتوسط، وكان أشهر مدن الفينيقيين القدامي، صور وصيد، وغيرهما، وهم الذين أقاموا حضارة قرطاج في شمال أفريقيا. وللمزيد عن شعب فينيقيا، وأصلهم، وعلاقاتهم بالكنعانيين، انظر جي. كونتنو: الحضارة الفينيقية، ترجمة: د.محمد عبدالهادي شعيرة، مراجعة: د. طه حسين، سلسلة الألف كتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٠-٣٥. وانظر أيضا:

The Cambridge Paperback Encyclopedia: P. 666.

(١) المسيري: المرجع السابق، جا، ٣٩٤.

(٢) حسن ظاظا (وآخرين): الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص٢٢-٢٣، وانظر أيضا المسيري: المرجع السابق، جا، ٣٩٤. وعن هجرة الكنعانيين لفلسطين، يقول د. حسن ظاظا: "فإن الكنعانيين الذين سكنوا

=

=

فلسطين قبل العبريين بأزمان وأزمان في أوائل الألف ٣ قبل الميلاد، فوصلوا أولا إلى بلاد العرب، الصخرية، في شمال الحجاز، ومنها دخلوا اقليم النقب (جنوب فلسطين) ليشقوا طريقهم على ساحل البحر المتوسطمنتشرين حتى لبنان وسوريا.." (حسن ظاظا (وآخرين): الصهيونية العالمية، ص٢٢).

(٣) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، جا، ص٣٩٧.

عليه السلام لهذه المدينة (أي قبل حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م)[١]. ومن خلال المنظور الإيديولوجي اليهودي أيضًا حول الكنعانيين، وارتباطهم بالأرض يقول أحد شُراح التوراة اليهود الحاخام ابن عزرا (وهو ليس عزرا هوفير): "وكان الكنعاني حينئذ في هذه الأرض، قد يعني هذا أن كنعان حفيد نوح استولى على هذه الأرض التي كان يحتلها من قبل شخص آخر، فإن لم يكن الأمر كذلك، فهناك سر على من يعرفه ألا يبوح به"[٢].

ويبدو أن تلك رؤيةٌ تحاول عدم الربط بين كل من الكنعانيين وأرض فلسطين، ومن ثم الزعم بأنها كانت ملكا لشعوب أخرى استقرت بها قبل قدوم الكنعانيين. وبحسب رواية التوراة، فإن "كنعان" هو ابن حام بن نوح (عليه السلام)[٣]، أي أنه يُعتبر "الجيل الثالث" من نسل أبناء النبى نوح (عليه السلام). أما إبراهيم عليه السلام، فاسمه بحسب أسفار التوراة: "إبراهيم بن تارح (وهو "آذر" في المصادر الإسلامية)[٤] بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح"[٥]. إذن، فإن النبى إبراهيم هو الجيل الحادى عشر من النبى نوح عليه السلام، أما كنعان (جد الفلسطينيين) فهو الحفيد المباشر للنبى نوح عليه السلام، وهو دليلٌ آخر على أقدمية الوجود الفلسطينى من الناحية الزمنية مقارنة باليهود، وهذا الدليل مأخوذ من أسفار التوراة ذاتها. ويرى أكثر الباحثين أن "الكنعانيين" ساميو الأصل، وأنهم ليسوا من الشعوب الحامية كما تذكر ذلك التوراة، لكن اليهود أخرجو الكنعانيين بقصدٍ من نسل سام بن نوح عليه السلام، حتى لا يكونوا من ذات الأصل السامي الذي ينتسب له اليهود، ولاينالوا البركة التى أعطاها الرب إلى سام بن نوح عليه السلام، ونسله لاسيما اليهود، وحتى

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩٧.

(٢) اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص٢٦٧.

(٣) أبناء نوح عليه السلام: تذكر التوراة (سفر التكوين – اصحاح ١٠).

(٤) تارح: ويقال إنه هو آزر الذي ورد اسمه في القرآن الكريم، وكذلك ورد اسمه في بعض أحاديث النبي (ص)، ومن ذلك يقول تعالي: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي =

= ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الأنعام: آية ٧٤). كما روى البخاريُّ في عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِيّ (ص)، قَالَ: (يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ). (البخاري - حديث: ٣٣٥٠)

(٥) وللمزيد عن نسب إبراهيم عليه السلام، انظر (سفر التكوين – اصحاح ١١)

يصير هؤلاء الكنعانيون ملعونين كسائر الحاميين (أبناء حام)[1]. ويظن البعضُ خطأً أن ارتباط العرب بـ"أرض فلسطين" كان قد تم بعد أن فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ)، غير أن الصحيح أن عروبة أرض فلسطين ترجع لعصور موغلة في القدم، وذلك تحديداً منذ قدوم الكنعانيين الساميين لهذه البلاد قادمين من "جزيرة العرب"، ثم استمرت العلاقة بمرور الزمن[2].

ولما ترك إبراهيم عليه السلام، وابن أخيه لوط أرض مصر، بعد أن أقاما بها ردحًا من الزمن[3]، ذهب كلاهما إلى أرض فلسطين (أرض كنعان) مرة أخرى، وكان كلاهما في ثراء عظيم. وتذكر التوراة أن الكنعانيين كانوا هم "سكان الأرض" وقت قدوم إبراهيم:

"فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب. وكان أبرام غنيا جدا بالمواشي والفضة والذهب..ولوط السائر مع أبرام كان له أيضًا غنم وبقر وخيام. ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا..وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ في الأرض.."[4].

وتذكر المصادرُ التاريخية أن حاكم مدينة يبوس (القدس) كتب رسالة في سنة ١٥٥٠ ق.م لفرعون مصر ليستنجد به، وويطلب منه أن يساعده في ايقاف اعتداءات قبائل "الخابيرو" (العابيرو أو العبرانيين) عليهم[5]. وقد كانت مدينة يبوس (القدس) أيام حكم الملك تحتمس الثالث (حوالي القرن ١٥ ق.م)، وهو من ملوك الأسرة ١٨ الفرعونية، خاضعة لحكم الملوك والفراعنة المصريين[6]. وعُرفت القُدس بالعديد من الأسماء عبر تاريخها[7]، مثل: شاليم، ويبوس، ثم أورشليم (يروشالايم)، وإيليا..الخ، منذ أن بناها الكنعانيون حوالي الألف الثالث[8]. وبحسب

---

(١) يقول الدكتور المسيرى: "والكنعانيون حسب العهد القديم من نسل كنعان بن حام بن نوح، وقد وصفهم العهد القديم بأنهم حاميون رغم أنهم ساميون ولغتهم سامية وربما كان ذلك لتبرير الحروب التى نشبت بينهم وبين العبرانيين" (المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، جا، ص٣٩٧).

(٢) وعن هجرة الكنعانيين من بلاد العرب إلى أرض فلسطين، انظر حسن ظاظا (وآخرين): الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص٢٢-٢٣.

(٣) وبحسب بعض الروايات، ومنها رواية المؤرخ يوسيفوس اليهودي عاش النبي ابراهيم عليه السلام زهاء ٢٠ سنة في أرض مصر (انظر يوسيفوس: تاريخ اليهود، ص٨، وانظر العقاد: ابراهيم أبو الأنبياء، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٠١).

(٤) (التكوين - إصحاح ١٣)، ويقصد بلفظ الأرض هنا أرض فلسطين.

(٥) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، جا، ص٣٩٧.

(٦) المرجع السابق، ٣٩٧.

(٧) وللمزيد عن أسماء القدس عبر التاريخ، بطرس عبدالملك: قاموس الكتاب المقدس، ص١٢٩.

(٨) حسن ظاظا: الصهيونية العالمية، ص٢٢. وللمزيد عن أسماء القدس، انظر المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، جا، ص٣٩٧.

رواية التوراة، فإن اليهود لم يدخلوا مدينة القدس إلا أيام الملك داود، أي إبان القرن ١٠ ق.م فقط، ومن ثم استقروا بها للمرة الأولى فى تاريخهم. وكانت القدس اسمها "يبوس"، وكان يسكنها اليبوسيون العرب في ذلك الوقت[١] وذلك بحسب متون التوراة: "وذهب الملك داود ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض "[٢]. ولعل إشارة التوراة لليبوسيين بأنهم سكان الأرض، وهى أرض "أورشليم"، أو القدس، ليؤكد عروبة المدينة منذ القدم بشكل لاجدل فيه، وأنها بقيت مدينة عربية (فلسطينية) لمدة تزيد على أكثر من ألف سنة قبل أن يستولى عليها اليهود فيما بعد.



صورة توضح المسجد الأقصى والمنطقة المجاورة له، والتي يزعم اليهود أن الهيكل كان مشيدًا في ذات المنطقة على غير الحقيقة

ومن أقدم التسميات الأخرى التى عرفت بها المدينة: "شاليم"، وكانت تسمى بها أيام إبراهيم عليه السلام حوالى منتصف القرن ١٩ ق.م، أو القرن ٢٠ ق.م. تقول التوراة: "فلما سمع أبرام (إبراهيم) أن أخاه سبى. جر غلمانه...فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه..وملكى صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا"[٣]. ثم عرفت المدينة بعدئذ- بحسب التوراة- أيام اليبوسيين باسم: "يبوس": (فَلَمْ يُرِدِ الرَّجُلُ أَنْ يَبِيتَ، بَلْ قَامَ وَذَهَبَ وَجَاءَ إِلَى مُقَابِلِ يَبُوسَ، هِيَ أُورُشَلِيمُ، وَمَعَهُ حِمَارَانِ مَشْدُودَانِ وَسُرِّيَّتُهُ مَعَهُ. وَفِيمَا هُمْ عِنْدَ يَبُوسَ وَالنَّهَارُ قَدِ انْحَدَرَ جِدًّا، قَالَ الْغُلاَمُ لِسَيِّدِهِ: «تَعَالَ نَمِيلُ إِلَى مَدِينَةِ الْيَبُوسِيِّينَ هذِهِ وَنَبِيتُ فِيهَا»[٤]."وهذا المتن التوراتي المهم يؤكد نسبة "القدس" (يبوس) إلى اليبوسيين (العرب)، وأنهم أصحابها الحقيقيون قبل أن يستقر اليهود فيها[٥]. ثم ظلت القدس تُعرف بهذا الاسم حتى استولى عليها داوود (ملك بنى إسرائيل). ثم عرفت القدس بالاسم الكنعاني: "أورشليم" Jerusalem أى: "مدينة السلام"، أو "مدينة الإله ساليم"، وهو إله السلام عند "اليبوسيين"[٦]. وعن اليبوسيين العرب، وأصلهم، وبنائهم للقدس، يقول د.

(١) حسن ظاظا: المرجع السابق، ص٢٢.

(٢) (صموئيل الثانى- اصحاح ٥).

(٣) (سفر التكوين - اصحاح ١٤).

(٤) (سفر القضاء - إصحاح ١٩)

(٥) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، جا، ٣٩٧.

(٦) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، جا، ٣٩٧.

حسن ظاظا: "ومن قبائل الفلسطينيين الأصليين الذين كان قوامهم هؤلاء الكنعانيين الوافدين من بلاد العرب قبيلة اليبوسيين التي كانت تسيطر على منطقة القدس، وما حولها، وهي التي بنت المدينة المقدسة، وهي التي سمتها أورشليم بشهادة التوراة ذاتها"[١]. وهو ما يعني أن تسمية "أورشليم" ليست عبرانية، بل هي تسمية يبوسية كنعانية الأصل، كما عرفت القدس أيضًا ولفترة باسم "مدينة داود" لاسيما بعد أن استولى اليهود عليها في القرن ١٠ ق.م.

كما عُرفت القدس في الفكر اليهودي باسم: "صهيون" Zion، نسبة لـ"جبل صهيون"، وهو جبلٌ بالمدينة يقدسه اليهود في القدس، وهم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم[٢]. وقد عرفت الحركة اليهودية العالمية مع نهاية القرن العشرين الميلادى باسم "الصهيونية" Zionism نسبة لهذا الجبل. كما عرفت المدينة لفترة باسم: "بيت إيل"، أى: (بيت الرب). ولما صارت أرض فلسطين ولاية رومانية، ووقع التمرد اليهودى ضد الرومان سنة ١٣٢م، جاء الإمبراطور هادريان، وقضى على هذا التمرد، وطرد بقايا اليهود من أرض فلسطين، وحرم عليهم الإقامة بها[٣]. ومن أسماء القدس أيضا "أريئيل" Ariel، وهي كلمة عبرية تعني: أسد الرب[٤]، وكذلك عرفت باسم: المدينة المقدسة[٥]، وكذلك حملت اسم: مدينة العدل[٦]..الخ، وغير ذلك من التسميات الأخرى عبر التاريخ[٧].

٤- العرب في أرض فلسطين أيام إبراهيم عليه السلام في ضوء الرواية التوراتية:

يزعم اليهود أن أرض فلسطين- التي كانت تُعرف قديمًا بحسب التوراة باسم: "أرض كنعان"[٨]- بأنها أرض الشعب اليهودي، وهم يزعمون في ذات الوقت بأنهم سكنوا تلك الأرض قبل الفلسطينيين، أو الكنعانيين، ومن

(١) حسن ظاظا: الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص٣٤.

(٢) وللمزيد عن الصهيونية، وأصل تلك الحركة الاستعمارية، انظر ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة: أحمد عبدالله عبدالعزيز، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٩٦، ١٩٨٥م، ص٢٤-٢٩. وعن الحركة الصهيونية، انظر أيضا حسن ظاظا (وآخرين): الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص٧٥-٨٠، وكذلك عبدالبديع كفافي: الخطر المكنون في بروتوكولات حكماء صهيون، دار الفتح للاعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٠-١٥.

(٣) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، جا، ٣٩٧.

(٤) (سفر اشعياء-اصحاح ٢٩).

(٥) (سفر اشعياء-اصحاح ٤٨).

(٦) (سفر اشعياء-اصحاح ٢٦).

(٧) بطرس عبدالملك: قاموس الكتاب المقدس، ص١٢٩.

(٨) (سفر التكوين- إصحاح ١٢)

ثمة فإن لهم الحق في تملك هذه الأرض (أي فلسطين) دون الفلسطينيين، وهذا على غير الحقيقة المعروفة دينيًا، وتاريخيًا. فمن المؤكد أن رواية التوراة- ذاتها- تدحض ما يرمي إليه اليهود، وكذلك أتباع الحركة الصهيونية من تلك الافتراءات التي أوردناها في المباحث الآنفة. ولعل من أهم الأدلة التوراتية التي تنكر تلك المزاعم: "فأخذ أبرام سارای (وهي سارة) امرأته ولوطًا ابن أخيه، وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا فى حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان. واجتاز أبرام فى الأرض إلى مكان شكيم. وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض.."[١].

وبحسب هذا المتن التوراتي، فإن النبي إبراهيم (أبرام) عليه السلام، لما جاء أرض كنعان (فلسطين) للمرة الأولى قادمًا من بلاد النهرين (العراق حاليًا) موطنه الأول[٢]. وكان ميلاد ابراهيم في أورد الكلدانيين[٣]، وهي مدينة قديمة بالعراق، وهي تقع جنوب نهري

(١) (سفر التكوين- إصحاح ١٢).

(٢) وللمزيد، انظر الأب متى المسكين: تاريخ إسرائيل من واقع نصوص التوراة وكتب ما بين العهدين، دير القديس أنبا مقار، وادي النطرون، ١٩٩٧م، ص١٩.

(٣) انظر الأب متى المسكين: تاريخ إسرائيل من واقع نصوص التوراة وكتب ما بين العهدين، دير القديس أنبا مقار، وادي النطرون، ١٩٩٧م، ص١٩.

دجلة والفرات، وتعتبر مدينة أور من مراكز الكلدانيين القدامى[٤]. تقول التوراة عن أور موطن إبراهيم الأول: "وهذه مواليد تارح. ولد تارح أبرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطًا. ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين.."[٥]. ويرجع البعضُ أهمية مدينة أور القديمة لأيام السومريين، وهم سكان العراق القدامى، وقد بلغت الحضارة السومرية أوج ازدهارها في الفترة من (٢٧٠٠-٢٤٠٠ ق.م)[٦]. وقد اشتهرت مدينة أور بالعديد من طُرز البناء والعمارة القديمة، ولعل منها المباني المعروفة باسم:

(٤) المرجع السابق، ص١٩.

(٥) (سفر التكوين- إصحاح ١١).

(٦) جون إلدر: الأحجار تتكلم ((علم الآثار يؤيد الكتاب المقدس))، ترجمة: د. عزت زكي، دار النشر الأسقفية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٠م، ص٤٨. وقد تم الكشف في أطلال مدينة أور العديد من الأطلال والاثار القديمة، حيث كشف العلماء بها لوحات تحوي قوائم لموازين ومكاييل، وكذلك قواميس طبية تضم بعض الإرشادات الخاصة ببعض العمليات الطبية الجراحية الصغيرة، وكذلك بعض الوصفات الطبية، كما تم الكشف عن أطلال مباني الزاجورات، أحد على هيئة هرم ذي أربعة أضلاع، وكان مبنى هذه الزاجورة الأصلي مسطح الشكل على قاعدة تبلغ مساحتها ٢٠٠ قدم طول، و١٥٠ قدم عرض، وكانت مادة البناء الأصلية من الطوب الأحمر المحروق من الخارج، والطوب النيء من الداخل (جون إلدر: الأحجار تتكلم، ص٥١).

"الزاجورات"[١].

وفي ضوء الرؤية اليهودية، فإن النبي إبراهيم عليه السلام كان من أصول آرامية، أي أنه من نسل الآراميين القدامى، وهم أحد الشعوب السامية المعروفة[٢]. ولما جاء إبراهيم عليه السلام أرض فلسطين لأول مرة وجد "الكنعانيين"- أجداد الفلسطينيين- يسكنون الأرض وتؤكد التوراة نسبة هذه الأرض (أي فلسطين) لهم في ذلك الوقت، حيث تذكرها باسم: "أرض كنعان"، كما تذكرها بعد ذلك باسم: "أرض الكنعانيين". ويؤكد اليهود أن النبي إبراهيم عليه السلام هو جدهم الأول، وإليه ينتسبون[٣]. واختلفت الآراء- بشكل أو بآخر- في الزمان الذي عاش فيه إبراهيم عليه السلام، وبحسب البعض عاش إبراهيم فيما بين القرن الحادي والعشرين ق.م، والقرن العشرين ق.م[٤]. وبحسب "موسوعة كمبريدج" البريطانية Cambridge Encyclopedia, عاش (إبراهيم) فيما بعد سنة ٢٠٠٠ ق.م[٥].

بينما يحدد آخرون أيام النبي إبراهيم لحوالي سنة ١٩٠٠ ق.م[٦]. فيما يجعل آخرون زمان النبي إبراهيم أكثر بُعدًا، حيث يشير البروفيسور دونالد ريدفورد إلى أن قدوم النبي إبراهيم لأرض كنعان يؤرخ لحوالي سنة ٢١٤١ ق.م[٧]. وقد توصل ريدفورد لذلك الرأي من خلال ما ورد في رواية التوراة بأن ما بين بناء الهيكل في السنة الرابعة لملك سليمان بن داود (أي حوالي سنة ٩٦٦ ق.م) وخروج بني إسرائيل من أرض مصر حوالي ٤٨٠ سنة، ومن ثم يحدد ميلاد النبي إبراهيم عليه السلام في حوالي سنة ٢٢١٦ ق.م[٨]. ولاريب أن تلك التواريخ تبدو بعيدة عن الواقع التاريخي المتفق عليه لتلك الأحداث، ويرى الباحث أن إبراهيم عليه السلام عاش فيما بين القرنين ٢٠ و١٩ ق.م، وهذا هو الزمن الأقرب للأحداث. وبحسب روايات توراة اليهود، فإن

---

(١) جون إلدر: الأحجار تتكلم، ص٥١.

(٢) متى المسكين: تاريخ إسرائيل ص١٩.

(٣) وعن انتساب اليهود للنبي إبراهيم عليه السلام، انظر:

The New American Desk Encyclopedia: New American Library, A Signet Book, New York, 1982, P. 11.

(٤) يعتقد المؤرخ شاهين مكاريوس أن النبي إبراهيم عليه السلام عاش فيما بين القرنين ٢١ و٢٠ ق.م (انظر، شاهين مكاريوس: تاريخ الإسرائيليين، ص٤-٥).

(٥) The Cambridge Paperback Encyclopedia, Edited by: David Crystal, 3rd edition, P. 2.

(٦) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج١، ٣٩٦.

(٧) دونالد ريدفورد: مصر وكنعان وإسرائيل، ترجمة: بيومي قنديل الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م، ص٣٩٢-٣٩٣.

(٨) دونالد ريدفورد: مصر وكنعان وإسرائيل، ص٣٩٣.

الكنعانيين كانوا يسكنون أرض فلسطين قبل قدوم النبى إبراهيم بزمن طويل، وهو ما يؤكد أسبقية الوجود العربي فى هذه الأرض، وليس كما يزعم اليهود، وهو ما تؤكده التوراة بالنص في قولها: "وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض.."[1].

وتذكر التوراة متنًا آخر ذا دلالة عظيمة، وفيه أن النبى إبراهيم لما أقام بـ"أرض فلسطين" (كنعان)، كان بها ملك كنعانىٌ صالح يدعى باسم: "مَلكى صَادق"[2]، وهو الملكُ الذى تصفه متون التوراة بأنه "ملك شاليم"، وهذه التسمية - أي شاليم - تُعد أقدم الإشارات الدينية والتاريخية لمدينة القدس، ثم اشتق منها اسم: أورشليم بعد ذلك[3]. وتلك دلالةٌ جلية على أن القدس (شاليم) مدينة الكنعانيين فى الأصل، وهم من بنوها في الأصل. تقول التوراة: "فلما سمع أبرام أن أخاه (أى لوط) سبى وجر غلمانه المتمرنين..انقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم واسترجع (أبرام) كل الأملاك واسترجع لوطًا أخاه أيضًا وأملاكه والنساء أيضًا والشعب. فخرج ملك سدوم لإستقباله بعد رجوعه..وملكى صادق ملك شاليم[4]. أخرج خبزا. وكان كاهنًا لله العلى. وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلى مالك السموات والأرض.."[5]. ويرى البعضُ - من ناحية أخرى - أن الكنعانيين ينتسبون إلى نسل "العرب البائدة"، وهم العرب القدماء، مثل: قوم عاد، وثمود، طسيم، وجسيم، وغيرهم من البطون العربية القديمة[6]، وهم العربُ الذين كانوا قد بادوا مع ظهور "العرب

---

(١) (سفر التكوين - إصحاح ١٣).

(٢) ومن اللافت أنه بحسب تفسيرات اللاهوت المسيحي أن ملكي صادق يرمز للمسيح: "إن قصة ملكي صادق الواردة في هذا الاصحاح عجيبة، إذ لامعنى لها في العهد القديم سوى كونها رمز المسيح، لذلك كان اليهود ولايزالون لايعرفون القصد منها، غير أن قيمة هذه الشخصية تظهر بمجيء المسيح.." (الأسفار التاريخية (أسفار موسى الخمسة): كنيسة ماي جرجس، سبورتنج (الإسكندرية)، مطبعة الكرنك، ١٩٧٠م، ص٣٥). وبالتأكيد هو تفسير غريب يحاول إبعاد رمزية وجود هذا الملك الكنعاني كملك للقدس في ذلك الوقت.

(٣) بطرس عبدالملك وآخرين: قاموس الكتاب المقدس، ص١٣٩. وللمزيد عن الملك الكنعاني ملكي =

= صادق، انظر حسن ظاظا (وآخرين): الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص٢٤.

(٤) شاليم: هذا أول ذكر لمدينة القدس في التوراة (بطرس عبدالملك: قاموس الكتاب المقدس، ص١٣٩)

(٥) (سفر التكوين - إصحاح ١٤).

(٦) العرب البائدة: وهم العرب الذين بادوا أو هلكوا قبل زمان إسماعيل عليه السلام مثل قوم عاد وثمود، وغيرهما. وللمزيد، انظر البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٦-٧.

المُستعربة"[١] وهم الذين ينتسبون لنسل إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام[٢]، وهو المعروف بـ"أبي العرب".

٥-العرب في أرض فلسطين أيام يعقوب ويوسف عليهما السلام في ضوء الرواية التوراتية:

تبدو في العديد من المواضع الأخرى في أسفار التوراة اليهودية، ومتونها فكرة أسبقية الوجود العربي في أرض فلسطين، ومن ذلك أنه في قصة النبى يوسف عليه السلام، وكذلك قصة أبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام[٣] أي بعد انقضاء عدة قرون من زمان النبى إبراهيم عليه السلام، وتؤكد التوراة الوجود الكنعاني- العربي القديم في أرض فلسطين، فى الوقت الذى كان فيه بنو إسرائيل لايزالون يقيمون فى أرض مصر[٤].

ويزعم اليهود أن الرب أعطى إبراهيم ونسله وعدًا بالأرض المقدسة (أو أرض الميعاد)، وسوف تكون لنسله من صلب يعقوب وأبنائه الأسباط الاثنى عشر[٥]. وعن هذا الوعد تقول التوراة: "في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرامي ميثاقا قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات.."[٦]. ورغم أن الوعد التوراتي لكل نسل إبراهيم، ومنهم العرب، إلا أن اليهود يزعمون أنه فقط لنسله من يعقوب، أو بني إسرائيل، وليس للعرب حق في هذا الوعد، وهو ما يخالف النص التوراتي الواضح الذي أعطى ذلك لكل أبناء إبراهيم.

ويفسر البروفيسور "جيمس فريزر" رؤية التوراة للنبي يعقوب عليه السلام بأنه يبدو وكأنه التاجر السامي اللين، الحذق، والوافر الحيلة، والذي يحرص على المكسب[٧]، وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة، بل بالحذق، ودون أن يتردد في اختيار الوسائل التي يبز بها منافسيه، ويتفوق عليهم بها[٨]. أما نبى الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام فهو أحد الأسباط الاثنى عشر، ويوسف بحسب التصور اليهودي هو آخر عصر الآباء العبرانيين، أو ما

(١) العرب المستعربة: وهم العرب من بني إسماعيل، ويعرفون أيضا باسم عرب عدنان، أو عرب الحجاز، وللمزيد، انظر ابن الكلبي: جمهرة النسب، جـ١، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠١٠م، ص١٥.

(٢) إسماعيل عليه السلام: يعتقد أنه عاش خلال حقبة القرن ١٩ و١٨ ق.م.

(٣) للمزيد، انظر يوسيفوس: تاريخ اليهود، ص١٠، وانظر متى المسكين: تاريخ إسرائيل، ص٢١-٢٢.

(٤) (سفر التكوين - إصحاح ٥٠).

(٥) متى المسكين: تاريخ إسرائيل، ص٢٠.

(٦) (سفر التكوين - إصحاح ١٥).

(٧) جيمس فريزر: الفلكلور في العهد القديم، جـ٢، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، سلسلة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٥٤-٥٥.

(٨) جيمس فريزر: الفلكلور في العهد القديم، جـ٢، ص٥٥.

يُعرف باسم: عصر البطاركة الذي يبدأ بظهور النبي إبراهيم وينتهي بيوسف. وتقول رواية التوراة عن استقرار الكنعانيين في أرض فلسطين أيام كل من يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، وذلك في حادثة دفن يوسف لأبيه يعقوب، حيث حمل جسد أبيه من مصر، وذهب إلى فلسطين ليدفنه هناك بحسب وصية أبيه[(١)].

وعن ذلك يقول سفر التكوين: "**فصعد يوسف يدفن أباه (يعقوب) وصعد معه جميع عبيد فرعون وشيوخ بيته وجميع شيوخ أرض مصر...فلما رأى أهل البلاد الكنعانيون المناحة قالوا مناحة ثقيلة للمصريين..**"[(٢)]. ويمكن أن نلحظ هنا قول التوراة: "**فلما رأى أهل البلاد (أي فلسطين الكنعانيون**"، هكذا تؤكد متون التوراة أسبقية وجود العرب، وأصالته في أرض فلسطين حتى بعد عدة قرون من قدوم النبي إبراهيم عليه السلام إلى هذه البلاد، وأن الكنعانيين ظلوا سكان أرض فلسطين حتى أيام يوسف ويعقوب عليهما السلام، وهو ما يدحض بقوة المزاعم اليهودية في الحق الديني والتاريخي في هذه الأرض.

ولعل هذا الرأي يؤكده عدد ليس بالقليل من المؤرخين الغربيين الذين يصفون إدعاءات ومزاعم اليهود في أرض فلسطين بأنها ليست حقيقية، ولاتؤيدها حتى المصادر الدينية اليهودية، ولاحتى المصادر التاريخية. وعن تلك المزاعم المختلقة التي يقول بها اليهود حول حقوقهم في أرض فلسطين، يقول عالم اللاهوت المعروف "كيت وايتلام": "لايُعد تصور تاريخ إسرائيل القديم كما ورد في القسم الأكبر من التوراة العبرية أن يكون قصة خيالية، وهو بمنزلة اختلاق للتاريخ.."[(٣)]. وهو رأيٌ موضوعيٌ له أهميته، ودلالته، وكذلك حجيته على اليهود، لاسيما عندما يأتي هذا الرأي من أحد الباحثين الغربيين المعروفين، وهو ما يدحض المزاعم اليهودية حول إشكالية الحق التاريخي أو التوراتي في أرض فلسطين.

٦- العرب في أرض فلسطين أيام النبي داود (القرن ١٠ ق.م) في ضوء رواية التوراة:

ظلت مدينة القدس (يبوس) تحت سيطرة العرب- منذ نشأتها الأولى على يد الكنعانيين- عبر قرون بعيدة، وحتى ارتقى العرش داود (١٠١٠-٩٧٠ ق.م) ملك إسرائيل وذلك بحسب رواية العهد القديم[(٤)]. ويصف البعض من الكتاب اليهود داوود بأنه النبي الشاعر، والبطل المقدام، وصاحب المزامير، وقد زادت شعبية ومكانته (أي داود) بين بني إسرائيل بعد أن

(١) (سفر التكوين - إصحاح ٥٠).
(٢) (سفر التكوين - إصحاح ٥٠).

(٣) كيت وايتلام: إختلاق إسرائيل القديمة، ص٥٩.
(٤) (صموئيل الثانى- إصحاح ٥).

قتل جليات (جالوت)[١] جبار الفلسطينيين الذي أذاق الإسرائيليين مرارة الذل والمهانة، وكان يدعو فرسانهم كل يوم لمنازلته، وكانت فرائص الإسرائليين ترتعد منه[٢].

ثم تمكن الشاب داود من منازلة جليات، وتغلب عليه، حيث رماه بمقلاعه، ثم انقض داوود عليه، واحتز (داوود) رأس جليات (جالوت) الفلسطيني[٣]. ثم تزوج داوود من بنت ملك الإسرائيليين في ذلك الوقت، وهو الملك شاول مؤسس مملكة بني إسرائيل، ولم يحكم شاول المملكة سوي سنتين، ثم ارتقى العرش داود من بعده، وكان ذلك في أيام النبي صموئيل[٤]. وكان الملك داوود هو الذى استولى على مدينة القدس (يبوس) من أصحابها الأصليين (العرب "اليبوسيون"). ومن المعروف أنه كانت هذه المرة الأولى التى يسيطر فيها اليهود على مدينة القدس (يبوس)، أى أن تلك المدينة ظلت "عربية" قرابة ألفى سنة قبل أن يستولى عليها اليهود بنص التوراة، فمن إذن له الحق في المدينة المقدسة. يقول الدكتور المسيري: "ولم يستول عليها داود الذي حولها إلى عاصمة المملكة اليهودية المتحدة إلا عام ١٠٠٠ ق.م، أي بعد مرور مدة طويلة من سكنى العبرانيين لها.."[٥].

ومنذ أقام الكنعانيون مدينة القدس (أورشاليم) حوالى الألف الثالث ق.م ظلت المدينة كنعانية منذ ذلك الوقت وحتى عصر داود، الذى تمكن من الإستيلاء عليها من أيدى "اليبوسيين"، وكانت المرة الأولى التى يسيطر فيها اليهود على مدينة القدس، وهو ما يشير إلى أنها ظلت مدينة كنعانية قرابة ألفى سنة، تقول التوراة: "وذهب الملك (داود) إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض. فكلموا داود قائلين. لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج. أى لايدخل داود إلى هنا. وأخذ داود حصن صهيون. هى مدينة داود"[٦]. وقد ظلت "القدس" كنعانية الهوية منذ ذلك الوقت، ولم يقم بها يهودىٌ واحد حتى القرن ١٠ ق.م.

(١) وقصة قتل داو لجالوت (جليات) وردت في القرآن الكريم أيضا تأكيدا للرواية التوراتية: (فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ) (البقرة : آية ٢٥١).

(٢) شاهين مكاريوس: تاريخ الإسرائليين، ص٢٢-٢٣.

(٣) المرجع السابق، ص٢٢.

(٤) المرجع السابق، ص٢٢.

(٥) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، جـ١، ٣٩٧. وعن سيطرة اليبوسيين على يبوس (القدس)، يقول عالم اللاهوت والمؤرخ جون إلدر: "وحتى بداية ملك داوود، كانت مدينة أورشليم في أيدي قبائل اليبوسيين، وكانت مدينة هامة لقرون عديدة.." (جون إلدر: الأحجار تتكلم، ص٩٢).

(٦) (سفر صموئيل الثانى - إصحاح ٥).

وتـذكر التـوراة أن أحـد اليهـود قـال لآخـر: **"تعال نميـل إلـى مدينـة اليبوسـيين (يقصـد القدس) هذه ونبيت فيهـا. فقـال لـه سـيده لانميل إلـى مدينـة غريبـة حيث لا أحـد مـن بنى إسرائيل هنا"**[١]. وهو ما يؤكد أن اليهود كانوا يخشـون الإقامة بمدينة القـدس وقتئـذ، لأنها مدينـة اليبوسيين (الكنعانيين)، ولم يكـن يجـرؤ أن يسـكن بهـا أحـد مـن بنـي إسـرائيل. وكانت القدس قبل الملك داود حصينة، وذات منعة، ولهذا أراد داود ان يستولي عليها، وكان اليبوسـيون يفخـرون بالمدينـة التـي أقاموهـا، وبحصانتها، ومناعتها، حتى أنهم كانوا يقولون أن الأعمـى والأعـرج يمكـنهم أن يـدافعوا عـن تلك المدينة بفضل ذلك[٢]. بينما تشير التوراة للمدينــة باســم "يبــوس"- نســبة لليبوســيين العـرب بنـاة المدينـة- أيـام الملـك داوود ملـك إسرائيل في القرن ١٠ ق.م[٣]. وفي أيام الملك داود، وسـيطرة بنـي إسـرائيل عليهـا، صـارت القدس تعرف في ذلك الوقت باسم: "مدينة داوود"[٤].

وعلى أيـة حـال، أصبحت القـدس (يبوس) عاصمة المملكة أيام داود، وصارت مقر سكناه، وقلعتـه، وصـار السـهل عليـه أن يوسـع رقعـة ملكـه[٥]. ولمـا اسـتولى داود علـى "يبـوس" (القدس) في حوالي القرن ١٠ قبل الميلاد، لم يجد للمدينة اسمًا خاصًا يطلق عليها فيما يبدو، ومن ثم أطلق عليها اسم: "مدينة داوود"[٦]. أما تاريخ مدينة القـدس قبل أيام الملك داود، فكانـت مدينـة كنعانيـة يبوسـية (عربيـة)، تلـك هى الحقيقة الثابتة اليقينية التى لايريد اليهود الاعتـراف، والإقـرار بهـا. وقـد أقـام الملـك داود فـى الحصـن الموجـود فـي يبـوس، ثـم دعـاه باسـمه[٧]، ويقــول المــتن الــوارد فــي ســفر صموئيل الثاني: **"وأقـام داود فـي الحصـن وسـماه مدينـة داود"**[٨]. ومـن ناحيـة أخـرى، يحمل المتنُ الوارد في سفر القضاه (القضاة - إصـحاح١٩) إشـارات هامـة، منهـا وصـف التـوراة اليبوسيين بأنهم "سكان الأرض"، وأن القدس "مدينــة اليوبســيين"، فهــم ســكان المدينــة الأصليون، وتلك هـى الحقيقـة التـى تؤكـدها توراة اليهـود. ثم عُرفـت المدينـة لمدة طويلة باسـم "يبـوس"، وذكرتهـا روايـة التـوراة بهـذه التسمية في مرات عديدة. وعلى أية حال، لم تدم سيطرة اليهود على المدينة طويلاً، فبعد مــوت ســليمان بــن داود (٩٧٠-٩٣٠ ق.م) انقسـمت مملكـة اليهـود فـى أرض فلسـطين،

---

(١) (سفر القضاة – إصحاح ١٩).
(٢) جون إلدر: الأحجار تتكلم، ص٩٢.
(٣) (سفر صموئيل الثانى - إصحاح ٥).
(٤) (سفر صموئيل الثانى - إصحاح ٥).
(٥) جون إلدر: الأحجار تتكلم، ص٩٣.
(٦) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، ج١، ٣٩٧.
(٧) (سفر صموئيل الثانى-إصحاح ٥).
(٨) (سفر صموئيل الثانى-إصحاح ٥).

ثم وقع لهم السبى البابلى في سنة ٥٨٦ ق.م، ودمر البلبليون- بحسب رواية التوراة- مدينة القدس (أورشليم)، وأسوارها، وكذلك دمروا هيكل سليمان، وسووا المدينة بالأرض، وسبى اليهود إلى أرض بابل[١].

الخاتمة:

وبعد هذه الإطلالة التاريخية في روايات الأسفار التوراتية من جانب، وما ورد في الدراسات الاهوتية الحديثة حول أرض فلسطين، ووجود كل من العرب واليهود بها، يمكن الخروج ببعض الاستنتاجات المهمة، ولعل من أبرزها:

- لاريب أن تلك "المتون التوراتية" المهمة- التى أوردناها آنفاً في ثنايا الدراسة- لتؤكد الحق العربى في "أرض فلسطين"، وتأكيد عروبة القدس، مهما حاول الإعلام الصهيونى طمس الحقائق، وتزييفها، فإن قوة تلك الأدلة وحجيتها أكثر من غيرها، ترجع إلى أنها وردت فى التوراة اليهودية، وكذلك التلمود، وليس أي مصدر آخر، وعلى هذا فقد شهد شاهد من أهلها.
- أكدت هذه الدراسةُ بأن الكنعانيين هم السكان الأوائل لأرض فلسطين قبل آلاف السنين من الوجود اليهودي في هذه البلاد، وذلك من خلال المتون التوراتية ذاتها.
- أشارت تلك الدراسة إلى أن اليبوسيين العرب هم من بنوا مدينة يبوس ، أو القدس فيما بين القرنين ٤ و٣ قبل الميلاد، وذلك أيضا قبل الوجود اليهودي بها بحوالي ألفين سنة على أقل تقدير.
- بينت هذه الدراسة أن أن ملك القدس، أو شاليم، الأقدم المعروف لنا هو الملك الكنعاني ملكي صادق، وكان رجلاً صالحًا بحسب رواية التوراة، كما كان معاصرًا لأيام قدوم النبي إبراهيم لأرض فلسطين (كنعان).
- أكدت الدراسة أن أول مرة يستقر فيها اليهود (أو بنو إسرائيل في مدينة القدس (يبوس) كانت أيام الملك داوود (١٠١٠-٩٧٠ ق.م)، وقبل ذلك كانت منذ أكثر من الألف سنة مدينة يبوسية عربية، وذلك من خلال المتون الواردة في العهد القديم ذاتها.

---

(١) آلان انترمان: اليهود، ص٢٨٣، وانظر جون إلدر: الأحجار تتكلم، ص١١٤.

ثبت المصادر والمراجع:

أولا-المصادر:

١- التوراة (العهد القديم).

٢- صحيح البخاري.

٣- البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، تحقيق: محمد حميدالله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م.

٤- ابن الكلبي: جمهرة النسب، جـ١، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠١٠م.

٥- ابن كثير: قصص الأنبياء، مكتبة الصفا، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٦- مارتن لوثر: اليهود وأكاذيبهم، ترجمة: محمود النجيرى، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٧- يوسيفوس اليهودي: تاريخ اليهود، إعداد: الراهب أنطونيوس الأنطوني، شركة الطباعة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

ثانيا- المراجع العربية:

٨- إسماعيل حامد إسماعيل علي: عزرا كاتب التوراة، دار مشارق، القاهرة، ٢٠٠٩م

العقاد: ابراهيم أبو الأنبياء، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م

٩- بطرس عبدالملك وآخرين: قاموس الكتاب المقدس، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، دار مكتبة العائلة، القاهرة، د.ت

١٠- حسن ظاظا (وآخرين): الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص٢٢-٣٤

١١- شاهين مكاريوس: تاريخ الإسرائيليين، سلسلة اليهودية بأقلام يهودية، دار ومكتبة بيبيلون، لبنان، ٢٠٠٧م

١٢- عبدالبديع كفافي: الخطر المكنون في بروتوكولات حكماء صهيون، دار الفتح للاعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٣م

١٣- عبدالوهاب المسيري: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٥م

١٤- عبدالوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، جـ١، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٥- كارم محمود عزيز: أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٦- متى المسكين: تاريخ إسرائيل من واقع نصوص التوراة وكتب ما بين العهدين، دير القديس أنبا مقار، وادي النطرون، ١٩٩٧م.

١٧- مجموعة من الباحثين: الأسفار التاريخية (أسفار موسى الخمسة): كنيسة ماري جرجس، سبورتنج (الإسكندرية)، مطبعة الكرنك، ١٩٧٠م.

ثالثا- المراجع المعربة:

١٨- آلان انترمان: اليهود عقائدهم الدينية وعباداتهم، ترجمة: عبدالرحمن الشيخ، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤م.

١٩- باروخ اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة/ ترجمة: د. حسن حنفي، مراجعة: د. فؤاد زكريا، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٢٠- توماس ل. تومسون: أسفار العهد القديم في التاريخ، ترجمة: عبدالوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢١- جـ. كونتنو: الحضارة الفينيقية، ترجمة: د.محمد عبدالهادي شعيرة، مراجعة: د. طه حسين، سلسلة الألف كتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٢- جون إلدر: الأحجار تتكلم ((علم الآثار يؤيد الكتاب المقدس)، ترجمة: د. عزت زكي، دار النشر الأسقفية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٠م.

٢٣- جيمس فريزر: الفلكلور في العهد القديم، جـ٢، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، سلسلة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م.

٢٤-دونالد ريدفورد: مصر وكنعان وإسرائيل، ترجمة: بيومي قنديل الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م.

٢٥- روهلنج شارل لوران: الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة: أحمد حجازي السقان دار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، ٢٠١١م.

٢٦- ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة: أحمد عبدالله عبدالعزيز، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٩٦، ١٩٨٥م.

٢٧- كيت وايتلام: إختلاق إسرائل القديمة، ترجمة: سحر الهنيدي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ٢٤٩، ١٩٩٩م

رابعا- المراجع الأجنبية:

28- Lynne Sable & Philip Steele: Thousand Great Events, Hamlyn Publishing Group, London (New York), 1979.

29- The Cambridge Paperback Encyclopedia, Edited by: David Crystal, 3rd edition.

30- The New American Desk Encyclopedia: New American Library, A Signet Book, New York, 1982.

مجير الدين عبد الرحمن العمري العُليمي الحنبلي

حياته وأعماله

(٨٦٠هـ/١٤٥٦م - ٩٢٧هـ/١٥٢٠م)

أ.د محمد هاشم غوشه

رئيس مؤسسة التراث العربي

منذ سنواتٍ عدة وبينما كنت أعمل على فهرسة سجلات المحكمة الشرعية لمدينة القدس، استوقفتني حججٌ شرعيةٌ ذات صلةٍ بمجير الدين عبد الرحمن العليمي أو بتاريخ حياته في القدس، وقد اشتملت هذه الحجج على مضامين جديدة غير مسبوقة عن حياته، على نحوٍ لم تذكره المصادر المنشورة من قبل.

وبالرغم من أنّ العُليمي هو مؤرخ القدس الأول بجدارة، إلاّ أنّ معاصريه من المؤرخين والمترجمين لم يفردوا ترجمةً لحياته وأعماله، وكأن هذا المؤرخ الذي ذاع صيته في المشرق العربي لم يكن موجوداً، ولذلك لم يكن مستغرباً أن لا تتضمن هذه الكتب ترجمةً لجده علي بن عُليم (عليل) المدفون في ساحل أرسوف إلى الشمال من مدينة يافا سوى ما ذكره هو عنه(١).

ولعل السبب في ذلك مرده إلى تنافس أهل المهنة الواحدة، فلا السخاوي في ضوئه، أو ابن إياس في بدائعه، أو النجم الغزي في كواكبه، أو السيوطي في نظمه، أو ابن العماد الحنبلي في شذراته، أو حتى الشوكاني في بدره أتى على ذكره أو ذكر أعماله، اللهم إلاّ ما نُقل عن الضوء اللامع للسخاوي من ترجمةٍ لم تصل قيل إنها لمجير الدين العليمي، بالإضافة إلى أورده ابن فهد المعروف بجار الله(٢) وهو معاصر لمجير الدين وما نقل عنه ابن حميد في سحبه الوابلة(٣).

ويمكن لنا اليوم أن نطلق على هذه المؤرخ اسم مقريزي القدس كونه تميز في كتابه الموسوم بالأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل بذكر خطط القدس وتراثها المعماري، كما يمكن لنا أن نطلق عليه ابن عساكر القدس، فحبه للقدس، وشغفه بدراسة تاريخها وتراثها جعلاها يبدع في مؤلفه التوثيقي المهم والذي لولاه لما كُنا سنعرف عن معالم القدس خصوصاً الأيوبية

والمملوكية منها ما نعرفه عنها اليوم، وإذا ما نظرنا إليه نظرة تجمع وظيفته كقاضي للقضاة وأعماله العلمية، فإنه بإمكاننا أن نسميه ابن شدّاد القدس.

كان مجير الدين العليمي قاضياً للقضاة في القدس، وصار بعد مؤلفه الموسوم بالأنس الجليل أهم مؤرخيها، وأشهرهم على الإطلاق، ويعود نسبه العمري إلى عمر بن الخطاب، واسم عائلته العليمي إلى جدّه علي ابن عليم (عليل).

نبدأ بتصحيح تاريخ ولادة المجير فنقول إنه ولد في يوم الأحد ثالث عشري أي الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م لا ثالث عشر ذي القعدة(٤)، أما أبوه شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن العمري العليمي الحنبلي فقد كان عند ولادة مجير الدين، في الرابعة والخمسين من عمره، في حين لا تتوفر معلومات عن شخصية والدته سوى ما فهمناه من السجلات الشرعية من أنها تنتسب إلى عائلة ابن عمران(٥) .

محطات في تاريخه

في السادسة من عمره تتلمذ مجير الدين عبد الرحمن العليمي على يد شيخ الإسلام تقي الدين أبي بكر القرقشندي(٦) فكان القرقشندي أول شيوخه وهكذا حفظ القرآن الكريم عند شيخه القرقشندي وهو في السادسة، وفي السابعة دفعه والده إلى مكتب تأديب الأولاد في باب الناظر(٧) غربي المسجد الأقصى عند الشيخ علي بن عبد الله ابن قمامو الغزي(٨)، واستمر في تعليمه هناك حتى سن العاشرة، وفي هذه السنة درس الحديث الشريف على يد القاضي شهاب الدين ابن عبية(٩) في مجلس القاضي ابن عمران وأجازه بروايته لصحيح البخاري، ثم ختم في الثانية عشرة من عمره صحيح البخاري في قبة الصخرة المشرفة على يد الشيخ عمر ابن الشيخ عبد المؤمن الحلبي.

طُعِن والده - مات بالطاعون- فمات قبل أن يدخل العليمي الثالثة عشرة بتسعة عشر يوماً أي في سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، وعند الثالثة عشرة عرض قطعة من كتاب المقنع في الفقه الحنبلي على شيخه نجم الدين محمد أبو البقاء ابن جماعة، وتتلمذ في تلك السنة على يد الشيخ شهاب الدين ابن العميري المقدسي الشافعي شيخ المدرستين الصلاحية والسلطانية(١٠)، كما عرض قطعة من المقنع على شيخه الكمالي بن أبي شريف المقدسي(١١) فأجازه بها، وفي هذه السنة أيضاً حصل على إجازة جديدة من شيخ الإسلام برهان الدين الأنصاري في مقر إقامته في الزاوية الخُتنية(١٢) في المسجد الأقصى المبارك.

في سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ومجير الدين عبد الرحمن ما زال في السادسة عشر من عمره

صاحب شيخه الكمالي بن أبي شريف إلى القاهرة لملاقاة السلطان وقد خرجت القدسُ كلها لوداعه وشيخه الكمالي، وهناك في القاهرة شهد أول لقاء له مع السلطان حين أنعم على شيخه الكمالي بمشيخة المدرسة الصلاحية في القدس.

ينتقل عبد الرحمن من القدس إلى القاهرة في سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م لدراسة الفقه الحنبلي ويبقى فيها حتى نهاية سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م ثم يعود من هناك لتولي قضاء الرملة ثم نابلس والقدس والخليل حتى وفاته في سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م.

بدأ ابن القدس مجير الدين عبد الرحمن العليمي عمله قاضياً للقضاة على المذهب الحنبلي سنة عودته من القاهرة إلى القدس، واستمر في عمله قاضياً للقضاة ومؤرخاً للقدس حتى وفاته فيها، رغم ما نُقل عن ابن فهد من انقطاعه عن القضاء في العهد العثماني، أي بعد سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وحتى وفاته في سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م، ويستفاد من ابن حميد والذي نقل عن ابن فهد أنّ الأخير إلتقاه في القدس عند زيارته لها، ولعله ايضاً التقاه في مكة عندما أدى مجير الدين فريضة الحج في سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م (١٣).

أسرته

ينحدر مجير الدين من عائلةٍ عمرية الأصل، عُليمية الجد، حنبلية المذهب بدءاً بوالده، نبدأ فصولها بذكر والده القاضي شمس الدين محمد العليمي الذي ولد في الرملة سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م، ومن ثمة أفراد أسرته وهم شقيقه كمال الدين محمد(١٤)، وشقيقته الكبرى عائشة(١٥) والتي كانت زوجاً للقاضي شمس الدين أبو الخير محمد بن عمران(١٦)، وبذلك يكون مجير الدين هو خال القاضي أفضل الدين محمد بن محمد بن عمران الحنفي(١٧) والذي ترك وقفاً في مدينة القدس مؤرخاً في سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م (١٨)، بالإضافة إلى شقيقته الصغرى خديجة(١٩) والتي أطلت علينا من خلال السجلات الشرعية عبر شكوى تقدمت بها للقاضي الشرعي على رجلٍ يهودي وكان ذلك في سنة ٩٥٤هـ/١٥٤٧م، وعرف من أفراد عائلته العليمية كل من بهاء الدين العليمي(٢٠)، والشيخ أبي المعالي العُليمي(٢١)، والقاضي شمس الدين محمد بن القاضي شهاب الدين العليمي الشافعي(٢٢)، وهم معاصرين لصاحبنا مجير الدين عبد الرحمن العُليمي.

مكان إقامته

تنقل مجير الدين العليمي في حياته بين القدسِ والقاهرة والرملة والخليل، إلاّ أن خاتمة حياته كانت في مسقط رأسه، القدس، حيث ولد، وعاش منذ نعومة أظافره في حاراتها وجوار مسجدها الأقصى المبارك، ويستفاد من نصّين لا ثالث لهما أنه سكن في دارٍ كانت

تقع لصق المسجد الأقصى المبارك من ناحية الغرب حيث باب المغاربة، ومتوضأ كان هناك أسفل داره القريبة من المدرسة الفخرية(٢٣)، في حين سكن أيضاً في دارٍ عرفت بنسبه العمري (دار العمري)(٢٤) كانت تقع في خط مرزبان(٢٥) بالقرب من الزاوية البدرية وزاوية الشيخ أبي عبد الله القرشي(٢٦).

مؤلفاته

صنّف عدداً من المؤلفات المتنوعة كان أهمها:

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، وهو مصنّفٌ كبير في خطط القدس وتراجم مشاهيرها وذكر آثارها وفتوحها؛ يوجد عدة عشرات من نسخه المخطوطة موزعة في دور كتب عديدة في العالم؛ ابتدأ تأليفه في ٢٥ ذي الحجة سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م وفرغ منه في سابع عشر رمضان سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م، إلاّ أنه عاد وأضاف عليه حوادث جرت في أعوامٍ لاحقة امتدت حتى سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م كما يُلاحظ في عددٍ قليلٍ من نسخه المخطوطة، وقد طُبع الكتاب غير مرة وبأكثر من لغة.
- المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، وقد ترجم فيه لأتباع المذهب الحنبلي الذي ينتمي إليه.
- التاريخ المعتبر في أنباء من غبر، ويُعرف بالتاريخ العام لمجير الدين، وهذا الكتاب ما زال مخطوطاً.
- البدر المنور في سيرة الملك المظفر سليم خان؛ يوجد نسخة يتيمة من هذا المخطوط في الخزانة العامة في الرباط تحمل الرقم ٢٦٠٢ ابتدأ فيها بدخول السلطان سليم خان إلى القدس.
- الدر النضيد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، وهو مختصر للمنهج الأحمد.
- تاريخ القدس والخليل؛ يوجد منه نسخة يتيمة في خزانة قرة مصطفى باشا باستانبول تحمل الرقم ٣٩٩.

وفاته وموضع قبره

توفي مجير الدين عبد الرحمن العليمي في داره بالقدس صباح يوم الأحد ثالث شهر رجب سنة ٩٢٧هـ/١٥٢٠م عن ستٍ وستين عاماً وسبعة شهور، وصُلّي عليه بالمسجد الأقصى المبارك صلاة الظهر، ثم حمل على رؤوس الأشهاد بجنازةٍ حافلةٍ إلى مقبرة ماملا غربي القدس ودُفن بتربته(٢٧)التي أعدها لخاتمته بالحوش هناك بالقرب من شيخه الكمالي ابن أبي شريف المقدسي وابن القلانسي صاحب ذيل تاريخ دمشق، وأبي عبد الله القرشي رحمه الله ورحمهم جميعاً. كما يوجد بالقرب من كنيسة الجسمانية في أسفل جبل الزيتون قبة أقيمت في وقتٍ متأخر وصفتها حجج شرعية من سجلات المحكمة الشرعية في القدس في أواخر العهد العثماني بأنها تضم قبر مجير الدين.

١) مجير الدين العليمي الحنبلي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، عمّان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣م، ج٢، ص:٢٦٧.

٢) أبو الفضل محب الدين محمد بن عبد العزيز بن عمر بن محمد بن محمد الهاشمي المكي الشافعي ويعرف بإبن فهد وجار الله؛ مؤرخ مكي، ولد سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م، وتوفي سنة ٩٥٤هـ/١٥٤٧م؛ شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، د.ت، ج٣، ص:٥٢؛ نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، بيروت، ١٩٧٩م، ج٢، ص:١٣١.

٣) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة.

٤) كذا وردت عند ابن فهد وعنه نقل ابن حُميد، ومنه انطلق العسلي في مقاله بمجلة دراسات؛المجلد الثاني عشر، العدد الثامن، ١٩٨٥م ولتصويب تاريخ ولادته يُنظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص:١٨٩؛ وقد استساغ مؤرخو العصر المملوكي ومطلع العهد العثماني وعلى رأسهم ابن إياس وابن طولون الصالحي وغيرهما عند حديثهم عن تاريخ يمتد ما بين العشرين والتاسع والعشرين أن يكتبوا ثالث عشري أو رابع عشري أو حتى رابع عشرينه؛ وللتفاصيل ينظر: فهمي الأنصاري، مؤرخ القدس والخليل مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن العمري العُليمي الحنبلي، القدس، ١٩٨٢م، ص:٤١.

٥) سجل شرعي أب ص:١٢٨.

٦) عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن علي بن الحسن القلقشندي (القرقشندي) المقدسي الشافعي؛ مفتي القدس؛ توفي سنة ٨٦٧هـ/ ودفن في مقبرة ماملا؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١١، ص:٦٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ج٧، ص:٣٠٦؛ فهمي الأنصاري، تراجم أهل مقبرة ماملا، القدس، ١٩٨٦م، ص:٩٧-١٠٠.

٧) لا توجد معلومات عن موقع هذا المكتب سيما وأن الوثائق التاريخية التي وصلتنا لم تحدد مكانه حسب علمنا، رغم وجود مكتب لتأديب الأولاد في باب السلسلة يرقى إلى الفترة الأيوبية عُرف بمكتب أبي نعامة، وإذا ما قمنا برسم خريطة تفصيلية لحارة باب الناظر في أواخر العصر المملوكي بدءاً من الواجهة الجنوبية، يتبين لنا وجود الزاوية اليونسية (دار الحاج عبد الله البديري اليوم) يليها الرباط المنصوري، فخان الملك المنصور قلاوون والتي عرفت في النصف الأول من القرن العاشر الهجري وفق السادس عشر الميلادي بدار القاضي شمس الدين الجوهري، يعلوه دار مقبل الطواشي، وإلى شمالي باب الناظر، تقع المدرسة المنجكية، يليها المدرسة الحسنية فمقام ورباط علاء الدين البصير يعلوها دار وقفها في مطلع العهد العثماني طورغود آغا بن محمود بك الزعيم، ثم دار نور الدين ثم البيوت التي الأمير ناصر الدين محمد بن الهُمام الشافعي ناظر الحرمين الشريفين في سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م، وهي التي أخذت تعرف منذ الانتداب البريطاني بأوقاف الست أمينة الخالدي، ويعتقد صاحب المقال أن موضع المكتب لربما سيكون في المكان الذي ابن الهُمام.

٨) علي بن عبد الله بن محمد الغزي الحنفي المتوفى سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م والمدفون بمقبرة باب الرحمة غربي المسجد الأقصى المبارك؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص:٢٥٣؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص:٢٣٧ .

٩) القاضي أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن عبية الحلبي المقدسي الشافعي الأثري المتوفى في دمشق سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٧م؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ١٨٥؛ الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص:١٢٤؛ ابن العماد الحنبلي، ج٨، ص:٢٥.

١٠) أصبحت لاحقاً تعرف بالأشرفية، وهي تقع في الرواق الغربي للمسجد الأقصى المبارك بين المدرسة العثمانية والمدرسة البلدية وتُنسب إلى واقفها

وبانيها السلطان الملك الأشرف قايتباي؛ وتعود قصة إنشائها إلى زمن الملك الظاهر خشقدم حين بناها له الأمير حسن الظاهري وبعد وفاة الملك خشقدم قبل إكمال بنائها سأل حسن الظاهري الأشرف قايتباي أن يقبلها لنفسه فقبلها منه ونُسبت إليه، وقد زار الملك الأشرف قايتباي مدينة القدس في سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م فلم تعجبه المدرسة، وأمر بهدمها في سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م ثم بدأ حفر أساسها في رابع عشر شعبان سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م في ولاية الأمير ناصر الدين محمد النشاشيبي واستكمل بناؤها في شهر رجب سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م وصارت كما وصفها مجير الدين العليمي "جوهرة ثالثة وهي قبة الصخرة وقبة الأقصى وهذه المدرسة"؛ مجير الدين، الأنس الجليل، ج٢، ص:٣٥-٣٦، ٩٩-١٠٠، ٣٠٣، ٢٨٤، ٣٢٥، ٣٣٠؛ الأنصاري، المرشد للزائر والدليل، ص:٣٧؛ العارف، تاريخ القدس، ص:٥٨؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص:٢٥٦؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ق٢، ج٩، ص:٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٤-٢٩٩؛ العسلي، معاهد العلم، ص:١٥٧-١٧٥؛ أبشرلي والتميمي، أوقاف المسلمين في فلسطين، ص:٣٩-٤١؛ عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس، ج٢، ص:١٥٦-١٧٣؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص:١٦٣-١٦٤؛ نجم، كنوز القدس، ص:٣٠٦-٣١٠؛ كامل العسلي، من التراث الإسلامي في بيت المقدس، المدرسة الأشرفية، القدس الشريف، مجلة، أمانة القدس، عمـاّن، ١٩٨٧م، عدد ٢٥، ص:٦٦-٨١؛ كامل العسلي، المدارس ومعاهد العلم والعلماء في فلسطين، ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في العصور الوسطى، تحرير هادية دجاني-شكيل وبرهان الدجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤م، ص:٥١٥-٥٢٠؛ أبو سنينة، الكمالي بن أبي شريف، ص:٦٤-٦٥؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى، ص:٧٢-٧٥؛ العلمي، المدارس المملوكية، ص:١١٧-١٢٠؛ محمد عبد القادر عابدين، تاريخ التعليم الشرعي في مدينة القدس، مركز القدس للأبحاث والتوثيق، القدس، ٢٠٠٠م، ص:٨٠؛

El-Abbassi , *Travels of Ali Bey* (1816) 2:224.

Schick, *Beit el Makdas* (1887), 42 .

F. Fabri, *Wanderings of Brother* (1892-1893) 2:125-126.

Berchem *CIA* II.1: 352-373

Tamari, Arabic and Islamic Studies (1973), 9-64.

Bahat, *Mamluk Buildings* (1975), 31-32.

Tamari, *Atti Accademia Nationale dei Licnei. Memorie* 19 (1976), 537-568.

Walls, Archibald, *An Attempted Reconstruction of Design Procedures and Concepts during the Reign of Sultan Qaytbay (872/1468 – 901/1496 in Jerusalem and Cairo: With Special Reference to the Madrasa al-Ashrafiyya and the Minbar in the Khanqah of Faraÿ Ibn Barqüq*. Ph.D. dissertation, University of Edinburgh.(1979).

Walls, Archibald, and D. A. King, *The Sundial on the West Wall of the Madrasa of Sultan Qaytbay in Jerusalem. Art and Archaeological Research Papers* (1979), 16-21.

Walls, Archibald, *Al-Ashrafiyya, Third Jewel of the Third Shrine of Islam. Its Physical and Geometric Form. Arts and the Islamic World* 2.1 (1984), 7-12.

Burgoyne, *Mamluk Jerusalem* (1987), 592-593.

Rosen-Ayalon, al-Quds (1990), 93.

Walls, Archibald, *Geometry and Architeture in Islamic Jerusalem. A Study of the Ashrafiyya*. London: Scorpion. (1990).

Kroyanker, *Old City* (1993), 418-420.

Walls, Archibald, *Ottoman Restorations to the Sabil and to the Madrasah of Qaytbay in Jerusalem Muqarnas* 10 (1993), 85, 91-97

Hillenbrand, Robert, *Islamic Architecture*. New York: Columbia University (1994), 204-206

١١) الكمالي محمد بن بن الأمير ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن علي بن أبي شريف المقدسي الشافعي المتوفى سنة ٩٠٦ هـ/١٤٩٨م؛ شيخ مشايخ الإسلام، وشيخ مجير الدين عبد الرحمن العليمي.

١٢) تقع الزاوية الخُتنية خلف سور المسجد الأقصى من الجهة الجنوبية الشرقية، وقف هذه الزاوية في ١٨ ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م السلطان صلاح الدين الأيوبي على شيخٍ من المجاهدين المجاورين في القدس يدعى الشيخ جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد جلال الدين الشاشي، وعلى من يحذو حذوه من بعده؛ مجير الدين، الأنس الجليل، ج٢، ص:١٣، ٣٤؛ العسلي، معاهد العلم، ص:١٠١.

١٣) سجل شرعي ٣ ص:٥٤.

١٤) سجل شرعي ٢٧ ص:٧٠.

١٥) سجل شرعي ١٢ ص:٧٢.

١٦) سجل شرعي ٥ ص:٧.

١٧) سجل شرعي ١٣ ص:٨٨.

١٨) سجل شرعي ١٣ ص:٢٢٠.

١٩) سجل شرعي ٢٧ ص:٧٠.

٢٠) سجل شرعي ١٧ ص:٨٨.

٢١) سجل شرعي ١٣ ص:٦٤٢.

٢٢) سجل شرعي ١٢ ص:٥٤.

٢٣) سجل شرعي ١ ص:٢٧٣.

٢٤) سجل شرعي ٣٣ ص:١١٤.

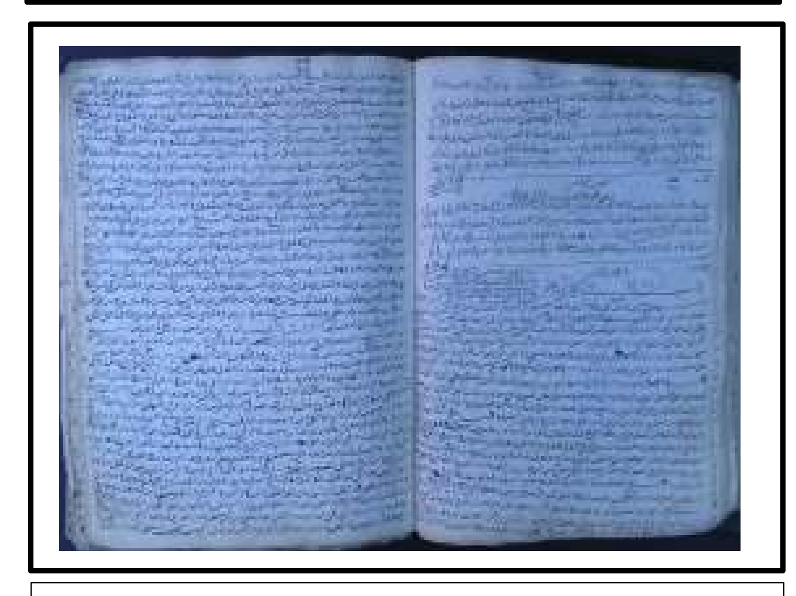
٢٥) يقع خط (طريق) مرزبان غربي خط وادي الطواحين (الواد) من الأعلى، ويعرف موضعه اليوم بعقبة القرمي، وعقبة رصاص (عقبة الخالدية)؛ يقول مجير الدين "ولم أدرِ نسبته لماذا ولكنه يكتب في المستندات الشرعية هكذا" ونرى أنّ هذا الخط قد اكتسب تسميته هذه من الأمير سيف الدين المشطوب أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي الهيجاء بن عبد الله بن أبي الخليل بن مرزبان الهكّاري، وقد دفن هذا الأمير في داره الكائنة في خط مرزبان والتي آلت فيما بعد إلى بدر الدين الهكاري فعرفت بالمدرسة البدرية؛ إنّ المعلومات المتوفرة عن تاريخ هذا الخط أو الطريق شحيحة جداً؛ لذا نقتبس ما أورده مجير الدين عن هذا الخط في سياق حديثه عن خطوط القدس: " خط مرزبان وصار عل أقسام فمن سويقة باب القطانين إلى آخر العقبة يعرف بعقبة القطانين ومن رأس العقبة إلى خان الجبيلي يعرف بحارة حمام علاء الدين، ويليه من جهة الغرب شارع يعرف بحارة الشيخ محمد القرمي، ويليه من جهة الشمال شارع يعرف بحارة الحصرية، ويليه من جهة الشرق شارع يعرف بحارة ابن الشنتير لسكنه بها وهذا كلّه يدخل في عموم خط مرزبان ".

٢٦) ذكرها مجير الدين بإيجاز قائلاً إنها كانت تقع في خط مرزبان دون أن يتطرق إلى أية إضافات أخرى، ولعلها كانت تقع بالقرب من زاوية القرمي والزاوية البدرية (دار المشطوب)، وهي تُنسب إلى الشيخ أبي عبد الله محمد القرشي المتوفى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣، وهي إما تكون من إنشائه أو أنها كانت موقوفة عليه فعرفت؛ مجير الدين الأنس الجليل، ج٢، ص:٢٩٤.

٢٧) إنّ موضع قبر مجير الدين بحاجة إلى مزيدٍ من البحث والدراسة، فهناك مصادر أولية تشير إلى أنه دُفن في مقبرة مأمن الله غربي القدس، من أهمها، ما نُقل عن عبد الغني النابلسي عند زيارته لقبر العليمي في مقبرة مأمن الله، وكذلك ما ورد عن دفنه في مقبرة مأمن الله في خاتمة نسخة المتحف البريطاني من مخطوط الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، في حين تشير مصادر أولية أخرى، ولكنها متأخرة، إلى ضريحه الكائن شرقي باب الأسباط بالقرب من كنيسة ستنا مريم.







وثيقة غير منشورة مؤرخة في ٢١ كانون أول ديسمبر ١٥٣٠م مستخرجة من سجلات المحكمة الشرعية في القدس تظهر موضع منزل مجير الدين عبد الرحمن العليمي الكائن فوق المتوضأ بباب المغاربة لصق المسجد الأقصى المبارك.

خلاصة كتاب
«يهود البلاد العربية»
للدكتوره خيرية قاسمية

د.أنور محمود زناتي
جامعة عين شمس - مصر

يعد كتاب «اليهود في البلاد العربية» للدكتوره خيرية قاسمية موسوعة تاريخية توثيقية، عملت على التعريف بحياة اليهود في البلاد العربية من النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وتتجلى أهمية الدراسة في أن اليهود في البلاد العربية لعبوا دوراً بارزاً في كثير من مجريات الأحداث عبر التاريخ القديم والحديث، ورسم مستقبل العديد من الأحداث في العالم العربي والإسلامي.

والكتاب يؤرخ لتاريخ اليهود في البلاد العربية، رغم ما يواجه الباحث في التاريخ اليهودي من صعاب وعقبات منها: أن فترة كبيرة لا يستهان بها من تاريخ اليهود قديماً مصدرها الوحيد "العهد القديم" Old Testament؛ ممّا أدّى إلى تبلور فكرٍ ديني ذي طابع مطاطي، وهو مصدر لا يمكن الاعتماد عليه لأنه يختلف عن التاريخ الفعلي ويتناقض معه أحياناً. ويصلح هذا التاريخ -في بعض الأوقات- مصدراً للمعلومات والفرضيات، ولكنه أحياناً أخرى لا يمكن دراسته إلا باعتباره جزءاً من الرؤية الدينية اليهودية فقط، خاصة أن نصوصه تخدم الديانة اليهودية وحدها وتعمل على تمييز الشعب اليهودي كشعب الله المختار، كما تعمل على ليّ عنق الحقائق لتخدم فكرته. ويتعامل في أغلب الأحوال مع الشعوب الأخرى على أنهم أعداء الرب!.

ناهيك عن أن الآراء المعروضة هي الآراء اليهودية ولا توجد وجهات نظر أخرى يمكن مقابلتها بتلك بالآراء ومقارنتها بها لمعرفة الصحيح فيها من غير الصحيح، وبالتالي تعرَّض أغلب التاريخ اليهودي للتحريف والتزييف. كما زحفت تصوّراتٌ ومفاهيم وثنية وإنسانية وأساطير متوارثة من حضارات الشرق القديمة ورؤى فلسفية وتعاليم الأديان الأخرى إلى الهيكل العقائدي المحرّف أصلاً من قبل رجال الدين اليهود. وأغلب المؤرخين حسموا المسألة وقرروا أن التوراة ليست تاريخاً، وأن

أقساما كثيرة منها منتحلة من حضارات الشرق القديمة ومن الفلسفة الإغريقية والهلنستية، وأن الأبحاث الأثرية في مختلف بقاع المشرق العربي تثبت صحة هذا الرأي.

كما يسخر خبراء القانون الدولي المنصفين من مجرد فكرة إعادة تشكيل الخريطة السياسية للعالم على أساس روايات وأساطير توراتية غير متناسقة، والاعتماد على غزوات وهجرات وتوزيعات الماضي الغابر، ويعدونها أمراً زائفاً بالواقع والقانون.

واستمر التزييف للحقائق التاريخية لأوضاع اليهود في البلاد العربية لدى مؤرخي ومنظري الحركة الصهيونية لتبرير احتلال فلسطين. ومن هذا المنطلق عكفوا على قراءة التاريخ وإعادة صياغته، وقلبوا كل حجر وحبة رمل في أرض فلسطين بحثًا عن تاريخ وهمي، قافزين على الحقائق ومزيفين وقائع السنوات والقرون بهدف احتلال الأراضي العربية. ولتحقيق هذا الهدف أمطروا جامعات العالم ومراكز البحث العلمي بالدراسات التي يدّعون بأنها حصيلة الأحافير في بيت المقدس وأماكن أخرى. وكان معهد شيلواح -على سبيل المثال- منطلقاً لبث تلك الدعاوى ومنفذاً للسياسة الصهيونية، فقد أسسته وزارتا الدفاع والخارجية الإسرائيلية بالتعاون مع الجامعة العبرية، وعمل به المستشرقون الإسرائيليون الذين كانوا يخدمون وقتذاك في المؤسسة الأمنية الإسرائيلية أو سبق لهم أن خدموا فيها.

فالتاريخ اليهودي ظلّ -ولمدّةٍ طويلة- حبيس الآراء التقليدية المتوارثة من النصوص التوراتية. لكن بعد أن حلّت الدراسات الجدّية المجرّدة من العواطف الدينية والتحليلاتُ المعتمدةُ على الإكتشافات الأثرية محلَّ الاعتقاد الأعمى المستند إلى النصوص العبرية، باتت المعلوماتُ التأريخيةُ المتوفرةُ في التوراة تتضائل مصداقيتُها التأريخية.

والأخطاء التوراتية وصلت إلى حد دعا بعض من المؤرخين والمفكرين إلى ترك الإعتماد على الروايات التوراتية، منهم توماس. ل. تومبسون Thomas L. Thompson في كتابه Early History of the Israelite People "تاريخ بني إسرائيل" (١٩٩٢م)، فاستند طومسون في كتابه على المصادر المكتوبة والأثرية" الذي أثار عاصفة لأنه طرح فيه آراء تجديدية منها: رفض النظرة التقليدية التي تعتمد كتاب اليهودية مرجعًا تاريخيًا. كما أصدر كيث وايتلام Whitelam كتاب: The invention of ancient Israel: the silencing of Palestinian history "تلفيق إسرائيل التوراتية، طمس التاريخ الفلسطيني" (٢٠٠٢م) نقض فيه النظريات التقليدية التي تتعامل مع المادة من منظور لاهوتي لا علمي.

وقد اعترف أكثر من كاتب يهودي منصف منهم:

- يئير أورون Oron Ya'ir، أستاذ التاريخ في الجامعة المفتوحة في إسرائيل في كتابه: Holocaust, Revival and Nakba "المحرقة والنهضة والنكبة" (ريسلينغ - تل أبيب ٢٠١٣ م) بأن إسرائيل وروايتها، تتنكر للحقائق التاريخية، وتحاول منع إجراء أي حوار بين روايتها وأي رواية تاريخية أخرى، وتعمل على استمرار فرض روايتها هي.

- كما انتقد شلومو ساند Shlomo Sand في كتابه: The Invention of the Jewish People "متى اختُرع الشعب اليهودي؟ وكيف؟" الهستريوغرافيا الصهيونية لتاريخ اليهود واليهودية وفلسطين (٢٠٠٩م) . وأكد أن اليهود لم يكونوا في يوم من الأيام قومية واحدة أو شعبا واحدا، كما أنهم لا ينتسبون إلى عرق واحد . وفكك الرواية التاريخية الصهيونية المستندة إلى أساطير وخرافات دينية ودحضها. وكشف التزييف المتواصل الذي قام به قادة الصهيونية ومنظّروها، في سياق عملية البناء الهستريوغرافي الصهيوني؛ من أجل شرعنة إقامة دولةٍ يهودية في فلسطين وتبريرها. يؤكّد شلومو ساند في كتبه أنّ اليهودية ديانة وليست قوميّةً أو عرقًا، وأنّها ديانة تبشيرية كغيرها من الديانات التوحيدية، انتشرت في مناطق واسعة من العالم القديم، من خلال تهوّد أعراقٍ وقبائل كثيرة وشعوب مختلفة، وليس من خلال انتشار عرق كما تدّعي الصهيونية، بل يعتقد أيضا أن فكرة الوعد بعودة الأمة اليهودية إلى الأرض الموعودة هي فكرة غريبة تماما على اليهودية.

ولا يخفى على الباحثين مدى صعوبة مناقشة نصوص تعتمد على الكتابات الأسطوريّة الغيبية أو الإيديولوجيّة وهو ما قامت به الدكتوره خيرية قاسمية.

وتعالج هذه الدراسة يهود البلاد العربية، وتمثل متابعة دقيقة للنشاط اليهودي في تلك البلدان . وقد ثبت من الدراسة أن هذا الدور كان كبيراً بكل المقاييس وفي الكثير من المجالات، مما يدل على أن الطوائف اليهودية كانت فاعلة ونشطة في مجال العمل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ويؤكد أن اليهود في البلاد العربية قد عاشوا في مناخ أصيل من التسامح الديني أدى إلى ازدهار حياتهم على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية؛ فاندمجوا في حياة المجتمعات العربية اندماجاً تاماً في ظل علاقات مفتوحة كمواطنين يتمتعون بكل حقوق المواطنة، وتحدثوا اللغة العربية، بل أن بعضهم أتقن اللغة إلى درجة أن حاخامهم " قطان " دخل المجمع اللغوى فى القرن العشرين.

جاء هيكل الكتاب مقسماً إلى لمحة تاريخية وستة فصول؛ أما اللمحة التاريخية

فجاءت ثرية وأعطت لنا دراسة بانورامية اشتملت على المحطات الرئيسية في تاريخ اليهود بداية من هجرة الخليل إبراهيم - عليه السلام - حيث هاجر مع بعض أبناء عشيرته كجماعة من الرعاة الرحل من "أور الكلدان" في بلاد الرافدين شمالاً نحو حران في بلاد "آرام فدان" ثم انحدر جنوباً إلى بلاد كنعان ومنها توجه نحو مصر فالجزيرة العربية، قبل أن يستقر به المقام في أرض كنعان حتى وفاته؛ ثم هجرة يعقوب؛ ثم تواجد يوسف عليه السلام بمصر واستقرار اليهود وتكاثرهم فيها. ومع مضي الوقت الذي يقرب من نحو أربعة قرون بدأت مرحلة خروج بني اسرائيل من مصر بقيادة موسى عليه السلام أمام جيش فرعون ووصوله إلى سيناء.

وحقائق التاريخ وأبحاث علم الأنثروبولوجي -التي لا يمكن إخفاؤها- تذكر أنّ خروج بني إسرائيل من مصر وضع حداً فاصلاً بين عهد النقاء وعهد اختلاط الدم، أي حصل اختلاط بين بني إسرائيل وغيرهم نتيجة ترحالاتهم السابقة من العراق إلى فلسطين، ومن فلسطين إلى مصر والتي استقروا فيها أزماناً ليست بالقصيرة حتى خروجهم من مصر ودخولهم فلسطين مرة أخرى بقيادة يوشع بن نون.

بعد ذلك تعرضت الدراسة إلى التسلل العبراني إلى أرض كنعان تحت قيادة "يوشع بن نون" ومحاولة الاستيطان فيها والعمل على استئصال سكان تلك المدن حتى تكون الأرض إرثاً لهم لا ينازعهم فيها أحد من بعدهم. واستمر يوشع في حربه دون توقف حتى توفى، وخَلَفَهُ مجموعة من القضاة الذين تولوا حكم اليهود من بعده. وبدا واضحا السلوك الوحشي الغريب لليهود؛ فهم لا يريدون الاستقرار في المدن بل يريدون الاستيلاء على أكبر مساحة من الأرض والمدن مهما كانت النتيجة.

وعاد بنوا إسرائيل مرة أخرى إلى الإفساد في الأرض واتخذوا لأنفسهم آلهة من الأوثان التي كانت تعبدها الأمم المحيطة بهم فعبدوا إله الكنعانيين (بعل).

واليهود في التاريخ يمثلون جماعة بشرية ليس لها كيان سياسي مستقل، واتصف تاريخهم بالتبعية المستمرة لحكومات الدول والأمم الأخرى. وقد أجرى البروفسيور شابيرو Shapiro - رئيس قسم الأنثربولوجيا في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي - دراسة مستفيضة عن التاريخ البيولوجي للشعب اليهودي، وفيها يقول إن اليهود: " ليسوا أسرة ولا قبيلة ولا أمة بالمعنى الصارم للكلمة " وبعد تتبعه تاريخ اليهود يؤكد أن " الاختلاف الواضح في الصفات الجسمية للسكان اليهود، وتنوع الجينات الموروثة المتوافرة في فئات دمهم، تجعل إدراجهم تحت أي تصنيف

عرقي موحد هو التناقض بعينه". **فالحقيقة الأنثربولوجية تؤكد أن اليهود مختلفو العرق، ولا أساس للادعاء بوجود عرق يهودي.**

تناولت الباحثة الفترة الآشورية والبابلية والمصرية: وتضم عهد الملوك ابتداء من داود وسليمان عليهما السلام، وظهور مملكة إسرائيل الموحدة، ثم انقسامها وانتهاء بالتهجير الآشوري والبابلي. **والتاريخ أيضاً يؤكد أنه لم يقم لليهود كيان سياسي في المنطقة أكثر من نحو سبعين عاماً** على عهد النبيين داود وسليمان عليهما السلام. وحتّى في هذه الفترة لم تخل من الخضوع غير المباشر تارة للفينيقيين وأخرى للمصريين، فلقد ذكر كبار المؤرخين -وتشهد بذلك التوراة- أنّ مملكة داود وابنه سليمان كانت مائة وعشرين ميلاً في الطول وستين ميلاً في العرض، وأقلّ من ذلك في أغلب الفترة التاريخية، ولا يستطيع أحد أن يثبت أنّ أرض فلسطين كلها أو معظمها أو نصفها كانت في يوم من الأيام تحت سيطرة العبرانيين؛ فأسفار التوراة تصرّح بأنّ الفلسطينيين ظلّوا يتملكون في هذه الأراضي الجنوبية الساحلية الخصبة، وأن الكنعانيين والفينيقيين ظلوا صامدين في المناطق الشمالية. وبالتالي **كان وضعهم وضع غزاة كبقية الغزاة الذين يأتون ويذهبون دون أن يتركوا أثرا على الحياة القومية والتاريخية للسكان الأصليين.**

كما تناولت الباحثة ما عرف بـ «النفي البابلي» وهي فترة تأثر فيها اليهود بكثير من العقائد البابلية، مثل تقديس يوم السبت وتغطية الرأس أثناء الصلاة، وبعد العودة من بابل تأثروا بالتراث الفارسي والأفكار الوثنية الموجودة في فلسطين والمناطق المجاورة لها.

ومن الناحية العِرقية فقد طرأت على الدم اليهودي - باعتباره العرقي والقومي- تغييرات جوهرية؛ حيث لم يستطع الدم اليهودي أن يُحافظ على نقائه.

وفي الحقيقة: إنّ اليهود منذ دخول كنعان عبارةٌ عن خليطٍ من مجموعات من الأجناس والسلالات ذات طبائع دينية واجتماعية وثقافية واقتصادية مختلفة، وتتغير الطبائع حسب الظروف، والتحوّلات أو التغييرات تشمل أيضاً المعتقدات أو المفاهيم الدينية.

وعلى هذا المفهوم، فإن اليهود المعاصرين هم معتنقوا ديانة خاصة قد استوعبت عناصر كثيرة من الديانات والحضارات والعقائد عبر التاريخ، وليس بينهم وبين اليهود القدماء الّذين عاشوا في منطقة الشرق الأوسط صلة عِرقية أو سُلالية. وبهذا تكون دعاية وجود جنس أو شعب خاص باسم الشعب اليهودي عارية من الصحة، وهي شعار أيديولوجي أكثر من كونها حقيقة تاريخية.

ثـم استعرضـت الباحثـة الفتـرة الهيلينيـة والرومانيـة، فبعـد هيمنـة الإمبراطوريـة اليونانيـة علـى أجـزاء كبيـرة مـن البحـر الأبـيض والشـرق الأدنى القديم منذ ٣٣٢ ق.م استقرت أعداد كبيـرة مـن اليهـود (كجماعـات وظيفيـة إسـتيطانية وقتاليـة وماليـة) فـي مصـر، وفـي الإسكندرية على وجه الخصوص. كما استقرّوا فـي برقـة وآسيا الصغرى. وتأثر الفكر الـديني اليهودي أيضاً بالفكر الهيليني، فسفر (الجامعة) يتضمن رؤية عدمية تشبه من بعض الوجوه الفكـرة الإغريقيـة الخاصـة بـأن التـاريخ مثـل الدورات الهندسية المحضة التي تبدأ وتنتهي بلا معنى.

وبعد التغلّب الروماني على فلسطين -كإحدى نقاط تجمّع الجماعات اليهودية وهـدم الهيكـل عـام (٧٠ م) مـن قبـل تيتوس ملك الروم- استمرّ تدفق اليهود خـارج فلسـطين وإلـى مختلـف البلـدان، ويُقـال إن هجـرة اليهـود إلـى الجزيـرة العربية تعود إلى هذه الفترة أو بعدها.

أحوال اليهود عبر مراحل التاريخ العربي/ الإسلامي، وبدايات التحديث:

ثم دخلت الباحثة في مرحلة جديدة من البحث وهي أحوال اليهود عبر التاريخ العربي الاسـلامي، واستعرضـت فيـه اخـتلاف آراء البـاحثين حـول تـاريخ الوجـود اليهـودي فـي الجزيـرة العربيـة ثـم أمـاكن انتشار اليهـود فيها، وكيف تعامل الرسـول صلى الله عليه وسلم مـع اليهـود وذلـك وفـق صـحيفة عهـد وأمـان. ومن الحقوق والواجبات التي أقرتها الصحيفة لليهـود هـي حريـة العقيـدة «لليهـود ديـنهم وللمسـلمين ديـنهم». وأن مـن ارتكـب مـنهم ظلماً وإثماً لا يُهلِك إلا نفسـه «إلا مـن ظلم، فانه لا يوتغ إلا نفسه». كما ضمنت الصحيفة علـى من تبعهم مـن اليهـود الحمايـة والنصرة والأسـوة «مـن تبعنـا مـن يهـود فـان لـه النصـر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم» (سيرة ابن هشام، م٢، ص١٦٩ وما يليها).

لقـد كـان الرسـول ﷺ يسـعى لإنشـاء مجتمـع يقـوم علـى الأمـن ويقـوم علـى تسـوية نزاعاتـه بـالطرق السّـلمية، وكـان إجـلاء يهـود بنـي النضـير بسـبب نَقْضـهم عهـودهم التـي تحتم عليهم ألا يـؤووا عـدوًا للمسلمين، ولـم يكتفـوا بهـذا الـنقض، بـل أرشـدوا الأعـداء إلـى مـواطن الضـعف فـي المدينـة، أما غـزوة الأحزاب (الخندق) فإن يهود بني النضير كانوا قد خرجوا من المدينة إلى خيبر وهم يحملون معهـم أحقـادهم علـى المسـلمين، وأخـذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين.

تعرضت الباحثة بعد ذلك لأنشطة اليهود الاقتصادية فـي تلـك الفترة وإسـهامهم البارز فـي الصناعة بالمدينـة لا سيما صـناعة الخمـر، وصـناعة القفـاف والحصـر، وعملهـم بالنجـارة والحدادة الخ...

ومن وجه آخر؛ استعرضت الصراع بين المسلمين واليهود وأشكاله المتعددة، فبالإضافة إلى الحروب العسكرية بين الطرفين، لجأ اليهود إلى حرب الجدال الفكري والمناقشات الدينية.

ثم تناولت **أحوال اليهود في العصور الاسلامية التالية لعصر الرسول** في الجناح الشرقي للدولة العربية الإسلامية ثم الجناح الغربي. وكيف تبدل حال اليهود على إثر الفتح الإسلامي إلى خيرٍ مما كانوا عليه تحت الحكم البيزنطي، وتمتع اليهود في ظل الحكم الإسلامي بكامل حقوق الذميين في دار الإسلام. تحت حكم الخلافة الراشدة مروراً بالدولة الأموية فالعباسية والعباسية المتأخرة وخاصة عصر المماليك.

ثم تناولت **أوضاع اليهود خلال العهد العثماني** وكيف التزمت الدولة العثمانية بتطبيق القاعدة السياسية للدولة الإسلامية التي أباحت لرعاياها من اليهود والنصارى قدراً كبيراً من الحرية داخل نطاق الدولة، ولم يكن لتوسعات الدولة العثمانية ما يمنع رعاياها غير المسلمين من أن يعيشوا في سلام وترابط مع إخوانهم المسلمين، وتمتع اليهود والمسيحيون بالمساواة التامة مع رعايا الدولة من المسلمين رغم بعض التحفظات، كما تمتعوا بالحرية الدينية الكاملة، وكانوا يمارسون شعائرهم الدينية كلها، وقامت الدولة نحوهم بمسئوليتها في حماية أرواحهم وممتلكاتهم.

ثم تناولت الباحثة بعد ذلك التحول في أحوال اليهود مع بدايات التحديث (القرنان الثامن عشر والتاسع عشر) وكيف ارتفعت مكانة اليهود الاجتماعية واللاقتصادية منذ نهاية القرن الثامن عشر، وتقلدوا الوظائف المهمة، فكان منهم المصرفيون والمستشارون.

أما **الفصل الأول** فقد تناول: **" أوضاع اليهود في المشرق العربي قبل هجرتهم الجماعية"**، فتعرضت الباحثة إلى يهود العراق وسورية ولبنان ثم يهود الجزيرة العربية، كما تعرضت بالترتيب إلى: يهود شبه الجزيرة العربية ويهود الكويت ويهود البحرين ويهود عُمان ويهود الإمارات العربية المتحدة ويهود اليمن، حيث تعرضت فيه لأوضاع اليهود في تلك المجتمعات ونشاطهم اللاقتصادي وأوضاعهم التعليمية ونشاطهم السياسي والصهيوني، والنشاط الثقافي.

مما لا شك فيه أن اليهود عاشوا في البلاد العربية كسكانٍ أصليين وليس كرعايا دولة، وتحدثوا العربية، وكانت علاقتهم طيبة مع باقي السكان وانخرطوا في المجتمع وكان منهم الأغنياء والفقراء ومتوسطو الحال، وقد خرج منهم العمال والحرفيون والبائعون المتجولون والفنيون في الصاغة، ومنهم الملحنون والموسيقيون والمغنون

والصحفيون والشعراء والزجالون والممثلون والأطباء والمحاسبون. وشاركوا في مختلف مجالات العمل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، فعملوا في التجارة والصناعة والمصارف وحققوا نجاحاً واسعاً وجمعوا ثروات ضخمة، كما كان منهم أعضاء في المؤسسات العامة والمجالس النيابية والهيئات التشريعية والمجامع اللغوية.

وقد نجح البحث في توضيح الصورة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للحياة اليهودية داخل البلاد العربية، ومدى الاندماج اليهودي في حياة المجتمعات العربية، وفي ابراز علاقة هذه الجماعة بالحياة الاقتصادية والثقافية، وكذلك علاقتها بالأحزاب السياسية.

كما أوضحت الدراسة المحاولات اليهودية للتأثير على الرأي العام وذلك من خلال هذا النشاط الملحوظ في مجال الصحافة والإعلام. حيث امتلك اليهود عدداً من الصحف اليومية والمجلات الثقافية العامة. وقد تتبعت الباحثة تلك النشاطات بعمق وتركيز.

ثم جاء الفصل الثاني للدراسة بعنوان: أوضاع اليهود في حوض النيل (مصر والسودان)؛ فالنسبة إلى الجالية اليهودية في مصر فقد تكونت عبر مراحل تاريخية طويلة، استعرضتها الكاتبة.

ومع تجربة محمد علي، فتحت البلاد أمام الأجانب للتنمية، لذا ارتفع تعدادهم مع نهاية حكم محمد علي إلى أكثر من ٢٥ ألف يهودي، وحين جاء إسماعيل باشا وانفتح بشدة على الأوروبيين، ازدادت الهجرة اليهودية إلى مصر حتى بلغ العدد ٦٣ ألف يهودي وأخذ العدد في التزايد مع الاحتلال البريطاني لمصر، وتملك اليهود الشركات وسيطروا على رؤوس الأموال.

وتشربت الطوائف اليهودية العادات المصرية وكان منهم الأطباء والمهندسين والحرفيين وأصحاب الأعمال والوزراء والمسئولين؛ نذكر على سبيل المثال "موسى قطاوي باشا" الذي أسس خط سكة حديد أسوان وشركة ترام شرق ووسط الدلتا ووزير المالية أيام سعد زغلول ورأس طائفة السفارديم، و"عدس" الذي أسس الشركة المصرية للبترول في عشرينيات القرن الماضي. واحتكر "إيزاك ناكامولي" تجارة الورق وريبيه، وأصلان قطاوي، وشيكوريل الذي أسس متاجر شيكوريل وريكو،وكان شيكوريل الأب رئيسا لغرفة التجارة وقاضيا في المحكمة المختلطة، واشتهرت عائلات مثل عائلة قطاوي وموصيري وسوارس ومرادي ووهبة ومنشه، وعائلات مارست تجارة الذهب مثل عائلة باروخ ومسعود وشماس.

كان الرأسماليون والأثرياء اليهود هدفهم

المصالح الاقتصادية في المقام الأول، وقد اشتكى منهم طلعت باشا حرب، لأنهم منعوه من تأسيس فرع في فلسطين لبنك مصر وأسعدهم استبعاده من رئاسة البنك، وقد نجح هؤلاء في إقامة علاقات قوية بعدد من السياسيين المصريين مثل إسماعيل صدقي الذي كان عضو مجلس إدارة بعدد من الشركات المملوكة لرأسماليين يهود، مثل شركة "كوم امبو" التي استولت على أراضي الفلاحين وطردتهم منها.

وعلى الرغم من هذا الوضع المتميز انجذبت هذه الجموع اليهودية إلى النشاط الصهيوني لأسباب مختلفة، منها الضغوط التي مارستها المنظمة الصهيونية العالمية على هذه الجماعات لكي تشترك في العمل الصهيوني، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تغيير جذري في مستقبل هذه الجماعات في بلادها الأصلية حيث تمت عمليات تهجيرها إلى فلسطين وتصفية الوجود اليهودي في البلاد العربية على يد الصهيونية بعد قرون من التعايش والاندماج الحقيقي في حياة العالم العربي والإسلامي.

أما اليهود الذين انضموا إلى الحركة الصهيونية أو كانوا يدعمونها؛ فلم يجدوا صعوبة في ذلك، فقد كانت الحدود مفتوحة بين مصر وفلسطين، وكان للحركة اليهودية مكاتب رسمية تعمل في مصر بوضوح، وظلت كذلك إلى أن اتخذ مصطفى النحاس باشا قرارا بإغلاقها نهائيا ومنعها من العمل داخل مصر، لما تمثله من خطورة على فلسطين، وتبين ضلوعها في الهجرات اليهودية المتزايدة إلى فلسطين، خاصة سنوات الحرب العالمية الثانية.

ومنذ مطلع القرن العشرين كانت الصحف المصرية تنبه دوماً إلى خطورة ما يجري على فلسطين وعلى كل البلاد العربية، والزعماء المصريون كانوا يدركون ذلك، مثل عبدالرحمن عزام باشا ومحمد علي علوبة باشا وغيرهما، لكن الصحيح أن السياسيين المصريين آنذاك، خصوصا الديوان الملكي والمحيطون به كانوا يقدرون أن الشيوعية هي الخطر الأكبر على مصر وعلى المنطقة، وأن الصهيونية تليها في الخطورة، لذا كان المعتقلون والمساجين الشيوعيون يتم تعذيبهم وتمنع الزيارات عنهم في السجون المصرية، بينما لم يكن يحدث شيء من هذا مع معتقلي الصهيونية.

أما بالنسبة ليهود السودان فقد تناولت وجودهم التاريخي هناك ثم استعرضت نشاط يهود السودان الاجتماعي والاقتصادي.

أما **الفصل الثالث**، فقد خُصص لدراسة: "**أوضاع اليهود في بلدان شمال أفريقيا، حتى هجرتهم الجماعية**". فقد أدى سقوط الحكم العربي الإسلامي في إسبانيا إلى خروج اليهود الجماعي منها باتجاه الوطن

العربي، وهو ما شكّل أكبر موجات الهجرة إلى المنطقة العربية فانتشر "السفارديم" الناطقون بلغة اللادينو "وهي لهجة إسبانية عربية مختلطة"، في كل مكان على سواحل المتوسط من مراكش حتى لواء الاسكندرونة، واستقر بعضهم في اليونان وإيطاليا وحتى شمال غربي أوروبا، وكانوا يختلفون عن غيرهم من المجموعات الشرقية من الناحية العرقية، وحتى في بعض الأمور الدينية .

وفي هذا الفصل تناولت الباحثة يهود الجزائر وتونس وجزيرة جربة ويهود مراكش. واختتمت الفصل بالحديث عن يهود ليبيا.

وجاء **الفصل الرابع** تحت عنوان: "**أوضاع اليهود الشرقيين داخل الكيان الإسرائيلي**"، وتعرضت لفسيفساء المجتمع الإسرائيلي؛ فطوائف اليهود تشبه الفسيفساء (الموزاييك)، حيث يرتكز التجمع اليهودي الاستيطاني حسب التصنيفات الإسرائيلية على ثلاث مجموعات، على النحو الآتي:

أ-اليهود الذين ولدوا وعاشوا في البلاد قبل قيام الدولة وسموا التسبار أي الصبار.

ب-اليهود الذين قدموا من دول أوروبا وسموا الأشكناز.

ت- اليهود الذين هاجروا من الدول العربية والإسلامية، أي من شمال إفريقيا والشرق الأوسط وأطلق عليهم لقب "المزراحيم" أي الشرقيين.

وتُضاف مجموعة رابعة يمثلها اليهود الروس الذين هاجروا إلى "إسرائيل" في بداية تسعينات القرن الماضي.

إن المشكلة الأساسية في إسرائيل نابعة في الدرجة الأولى من غياب إجماع على هوية اليهودي أو في الوصول إلى جواب متفق عليه بين كل التيارات الدّينية والسياسية على سؤال (من هو اليهودي؟).

يقول الباحث والكاتب انطوان شلحت، " إسرائيل تعرف نفسها بدولة الشعب اليهودي، وحتى اللحظة لم تحل معضلة من هو اليهودي. المجتمع الإسرائيلي هو مجتمع مهاجر، وخلال سنوات كيانها تحاول خلق هوية جماعية جديدة قصرا".

هذا الكتاب يؤكد فكرة جوهرية وهي أن إسرائيل المتفوقة عسكرياً وتقنياً وعلمياً تشكو الوهن والضعف في كيانها، فهي ملتقى لصراعات قديمة وجديدة من كل جنس، تمزق وجودها وتجعلها دوماً كياناً قابلاً للتفجر من داخله. وهذه الصراعات ليست عارضة أو طارئة، بل هي صراعات رافقت اليهودية واليهود عبر العصور، وواكبت الصهيونية قبل نشأتها وبعدها. وصبت جميعها في دولة إسرائيل بعد ولادتها القسرية، واستشرت، ولا شفاء منها بالتالي إلا بالعدول عن منطلقات الصهيونية الملفقة، وأهواء النزعات الدينية المزيفة، وأوهام

الادعاءات الإثنية والعرقية المصطنعة. وهو ما أكد عليه أيضاً المفكر العربي الدكتور عبد الله عبد الدائم.

وتُوضح الكاتبة أن المصادر الإسرائيلية تؤكد أن"المجتمع الإسرائيلي يعتبر مجتمعا تعددياً، إذ يوجد بين فئاته تباين عرقي وثقافي وديني ولغوي. ولا توجد سياسة رسمية تفصل بين فئات المجتمع، إلا أن بعضاً من هذه الفئات ينتهج أسلوباً من الانغلاق ليحافظ على هوية ثقافية ودينية وعرقية، وربما على هوية إيديولوجية متينة".

وهو ما أكد عليه عالم الاجتماع الإسرائيلي "أودي أديب" في دراسته اليهودية الشرقية بين الطائفية والأسرلة، فيتحدث كاتبها عن فشل الدولة القومية الإسرائيلية، ويعزوه إلى عدم رغبتها في دمج جاليات المهاجرين الشرقيين التي وصلت بعد قيام الدولة. ويقول إن الثقافة العبرية الجديدة التي فرضت كأداة لتوحيد المجتمع الاسرائيلي، عززت استعلاء وسيطرة المجموعة الأوروبية ذات الأقدمية. ويوضح المؤلف أن المكانة المتدنية لليهود الشرقيين هي نتيجة حتمية للمشروع الكولونيالي-الاستيطاني- الإسرائيلي، وهو هنا يتبنى توجها جغرافيا اجتماعيا يرى أن المهاجرين الشرقيين نقلوا إلى المناطق الحدودية استمرارا للعملية الكولونيالية الاستيطانية نفسها التي تم خلالها طرد المواطنين الفلسطينيين وسلبهم.

ثم تعرضت الكاتبة إلى توطين يهود البلاد العربية في الكيان الإسرائيلي، ومشاركتهم في الحياة العامة،واستقصت واقع اليهود الشرقيين من النواحي الاقتصادية والاجتماعية.

وتشير الدراسات الإسرائيلية المبنية على نتائج مسوح اجتماعية إلى وجود تمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل . كما بينت العديد من التقارير التي تُعنى بالنواحي الاجتماعية أنّ هنالك فجوات كبيرة بين الشرائح المختلفة في إسرائيل، وتسلط الضوء على الفوارق بين اليهود الشرقيين والاشكناز، وبينهم وبين العرب بشكل خاص، وكذلك بين الرجال والنساء. حيث أنه في عام ٢٠١٢ م تبين أن متوسط الدخل الشهري لدى الأجيرين المدنيّين الاشكناز (مواليد إسرائيل لأب من أصل أوروبي أو أمريكي) أكثر بـ ٤٢% من متوسط الدخل العام للأجيرين المدنيّين. بالمقابل، متوسط الدخل لدى الأجيرين اليهود الشرقيين من سكّان المُدن (مواليد إسرائيل لأب من أصل آسيوي أو إفريقي) أعلى بـ ٩% من متوسط الدخل العام، أمّا وضع العرب فهو الأسوأ على الإطلاق، حيث يبقى متوسط دخل سكّان المدن العربيّة أقل بـ ٣٤% من متوسط الدخل العام.

والحقيقة كما يقول "راسم خمايسي": "إن اليهود الاشكناز المسيطرون على الموارد

ومراكز القرار، هم الطلائعيون الذين استقبلوا المهاجرين الجدد وقاموا بتوزيعهم وتوطينهم. لذلك فإن اليهود السفارديم يتركزون اليوم في مدن وقرى الأطراف".

ويذكر خمايسي أن السفارديم يشكلون حوالى ٣٤٫٢ % من مجمل اليهود في إسرائيل، ويمثل اليهود العراقيون واليمنيون والأتراك نسبة ٧٤٫٨ % من إجمالي اليهود من أصل آسيوي. أما اليهود من أصل مغربي فتبلغ نسبتهم ٥٩٫٧ % من اليهود من أصل أفريقي .

وكانت أول هجرات اليهود الشرقيين إلى إسرائيل من اليمن، وذلك قبيل قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ م ومنذئذ تغذت الدولة العبرية الجديدة بموارد بشرية من اليهود السفارديم، ساهمت كثيرا في تعزيز وجودها. ويوضح "خمايسي" عدة تحولات اجتماعية في حياة السفارديم، بما في ذلك التغيرات الديموغرافية، وتقلص حجم الأسرة، وانزياحات في هرم الأجيال، وتنامي معدلات التعليم. ويعرض لأسباب نشوء الفوارق بين السفارديم والاشكناز، خاصة في ثلاثة مجالات هي الإسكان والثروة والتعليم.

وبعدها تناولت الكاتبة مسألة إدماج يهود البلاد العربية في المجتمع الإسرائيلي (عملية الأسرلة) حيث طالت عملية الأسرلة سائر مكوّنات الأراضي المحتلة بحيث جاءت لتحدث انقلابًا جذريًا في واقع تلك المكوّنات يلغي خصوصياتها العربية الإسلامية التاريخية، ويثبّت خصوصيات يهودية بديلة عنها. من هنا كان التلازم بين الأسرلة والتهويد بمنزلة التلازم بين الإنجاز والنتيجة في عملية تكاملية تصب في النهاية في خدمة المشروع الصهيوني في إقامة الدولة اليهودية التوراتية. وتناولت كذلك دور اليهود العرب في الحياة العامة في إسرائيل وشملت دور اليهود الشرقيين في المؤسسة الدينية ثم دور اليهود الشرقيين في الحياة الحزبية في "إسرائيل".

ثم تعرضت لدور اليهود الشرقيين في المؤسسة العسكرية، ودورهم كذلك في السلطة التنفيذية في "إسرائيل"(الحكومة- ورئاسة الدولة). ثم تناولت المواقف السياسية، والتوجّهات الثقافية لهم في الكيان الإسرائيلي. حيث قدمت وصف وتحليل ردود فعلهم السياسية تجاه سياسة القمع الثقافي والاقتصادي التي مورست ضدهم منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدامهم هذه الأرض، من أعمال وأنشطة التمرد والاحتجاج الواسعة التي اتخذت طابعا محلياً، مرورا بأعمال التمرد المنظمة وانتهاءا بإقامة حركات اجتماعية ومنظمات تعليمية وثقافية وأحزاب سياسية.

كما تناولت مثقفو يهود البلاد العربية في إسرائيل. وتعرضت إلى التمييز الثقافي في

"إسرائيل" تجاه يهود البلاد العربية، وتحدثت عن تاريخ مشكلة الاندماج والاحتواء الثقافي.

ثم جاء **الفصل الخامس** فكان بعنوان: "**موضوعان مثاران للجدل**": **الموضوع الأول: دعوة يهود البلاد العربية للعودة إلى بلادهم**. وهي فكرة تتبلور في دعوة اليهود العرب للعودة إلى البلاد العربية في سبعينيات القرن العشرين وطرحت جملة مبررات للفكرة في مقدمتها حال المجتمع اليهودي- الصهيوني في فلسطين المحتلة، ولعل من أبرز مشكلاته: انقسام المجتمع عمودياً بين طائفتين الإشكنازيم والسفارديم، وما رافق ذلك من توترات وأزمات مجتمعية (عنصرية، وطبقية، وثقافية، وسياسية)، وتغير سمة التكوين البشري الطائفي الإسرائيلي من مجتمع "غربي" عرقياً إلى مجتمع "شرقي" فقد انخفضت نسبة الاشكنازيم من ٩٠% في عام ١٩٤٨ إلى أقل من ٤٠%. وأهم من ذلك كله، نشوء ما يمكن تسميته "بتحدي الهجرة" أمام "إسرائيل"، مع تحول محصلة الهجرة إلى الحدود السلبية وتغلب أرقام الهجرة المعاكسة من "إسرائيل" على أرقام الهجرة إليها.

وتخلص الباحثة في نهاية المسألة برأي مفاده أنه إذا كانت عودة الفلسطينيين تمثل حقاً أساسياً للاجئين الفلسطينيين ومدخلاً طبيعياً لحل الصراع العربي-الصهيوني، فإن الدعوات الفلسطينية والعربية لعودة أو إعادة اليهود العرب إلى بلدانهم، الذين لا يجوز تسميتهم ب"اللاجئين" لكونهم مهاجرين تارة ومهجرين بفعل النشاط الصهيوني في البلاد العربية تارة أخرى، فضلاً عن أنهم تحولوا إلى محتلين في الكيان الصهيوني،وتنكروا لبلدانهم، لا تشكل تلك الدعوات مدخلاً طبيعياً لحل الصراع العربي-الصهيوني.

أما **الموضوع الثاني** فكان: "**تعويض يهود البلاد العربية عن ممتلكاتهم**". حيث أبدت الحكومات الإسرائيلية اهتماماً بيهود البلاد العربية، ولكن بمنطق نفعي وذرائعي سياسي، فمقابل مطالبة العرب بعودة يهود البلاد العربية إلى بلدان إقامتهم الأساسية، طرحت تلك الحكومات مسألة مطالبة الدول العربية بدفع تعويضات مالية لليهود الذين غادروها عن أملاك تركوها في البلاد العربية.

وهذه المطالبات تعد شكلاً من أشكال الابتزاز السياسي والمالي. وتفتقر إلى أية مصداقية، فهؤلاء اليهود لم يُطردوا، ولا يمكن بأي حال تصنيفهم في منزلة اللاجئين. فقد اختاروا طوعا الهجرة إلى الكيان الصهيوني وباع أغلبهم ممتلكاته، ومن جهة أخرى استولوا على ممتلكات اللاجئين في فلسطين بعد تحولهم -اليهود العرب- إلى محتلين، وتنكروا لمواطنهم الأصلية التي رعتهم بأجواء من التسامح. فعقيدة (الشعب

المقدس والمختار) هي الركيزة الدينية الجوهرية التأسيسية للقومية اليهودية. وهذه القومية هي التفسير الصحيح للنزعة الصهيونية بشكليها الديني والسياسي.

أما **الفصل السادس** الأخير فتناول **"هجرة يهود البلاد العربية - الخروج الجماعي"**.

من المعروف أن الفكرة الصهيونية تقوم على تجميع يهود العالم وتهجيرهم بشتى الوسائل إلى أرض فلسطين من أجل إقامة الدولة العبرية. وقد كان اليهود في البلاد العربية رغم قلة أعدادهم، جزءاً متمماً لسكان البلاد، امتزجوا في حياة البلاد العامة، وعاداتها وتقاليدها، ورغم ذلك حاول الكيان الصهيوني -وفق خطة مدروسة تعمل على تهجير اليهود العرب- تشويه صورة أوضاع اليهود فيها، وذلك بغية وصول الحركة الصهيونية إلى أهدافهما الديموغرافية. ولجأت إلى العمليات الإرهابية كما حدث في العراق على سبيل المثال، لدفع يهود العراق إلى الهجرة إلى اسرائيل، وخصوصاً بعد أيام "الفرهود" التي أدّت إلى عملية تهجير أطلق عليها "عزرا ونحيما". **من هنا، يتضّح لنا أنّ اليهودي كان ضحية لمؤامرة كبيرة اشتركت فيها دول وأنظمة عديدة، أجبرته على الرحيل من بلاده**. وهو ما دفع الروائي اليهودي "سامي ميخائيل" بالقول "كل يهودي قدم إلى إسرائيل هو بمثابة لاجئ، وقليلون هم من جاءوا بدافع المحبة لاسرائيل".

لقد كانت فكرة جمع الشّتات" وجمع شمل حوالي ٦٠٠ ألف يهوديّ في "الأراضي المحتلة" قبل قيام الدّولة، وتجميع ثلاثة ملايين يهوديّ بعد قيام الدولة، هي المعجزة الكبرى الّتي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الشّعب اليهوديّ، ولا في تاريخ باقي الشّعوب. لقد دعت الصهيونية شعوب العالم ضمناً إلى كره ومحاربة كل يهودي ينتمي إليها، إذ صورت لهم أنّ اليهود جماعة غير فاعلة داخل المجتمع، ولا تهتمّ إلّا بجمع المال، وانتظار الفرصة المناسبة للرحيل إلى إسرائيل.

إن نسبة اليهود في فلسطين في عام ١٨٥٢ لم تصل بالكاد إلى ٤%(١٣ألف نسمة)، لكنها زادت بفعل الهجرة حتى عام ١٩١٤بمقدار ٨٤ألف نسمة. وأدى وعد بلفور إلى زيادة تعداد اليهود من ٥٩ ألفا في عام ١٩١٨إلى ٦٥٠ ألفا عند مولد الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨.

وفي عام ١٩٩٣ كانت إسرائيل تحكم سكانا يتألفون من ٦,٤ملايين نسمة، ٤,٢منهم يهود والباقون عربا، منهم ١,٩مليون نسمة من الأراضي التي تم احتلالها عام ٦٧، أي إن نسبة اليهود في الدولة ٦٤% فقط.

لكن الإسرائيليين العرب-الذين كانوا عند إعلان الدولة ١٥٦ألف نسمة-زاد عددهم إلى

نحو ٣,١مليون نسمة، وقد بلغ تعداد(عرب إسرائيل) في عام ١٩٩٣ما نسبته ٢٠,٦%من مجموع السكان.

ومع توقف الهجرة اليهودية، وازدياد أعداد المواليد بين الفلسطينيين في الداخل، تزداد أزمة الديموغرافيا في"إسرائيل"، وفي حال احتفظت بالأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ فإن التعداد السكاني بين العرب واليهود سوف يقترب من التساوي في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين.

وفي هذا الفصل (السادس) قامت الباحثة بتتبع هجرات اليهود وأوضاعهم في الوطن العربي، فبدأت أولاً بهجرة يهود المشرق العربي (يهود العراق وسورية ولبنان والكويت والبحرين واليمن) ثم تناولت بعد ذلك: هجرة يهود حوض النيل (يهود مصر والسودان).

بعدها تتبعت هجرة اليهود في بلدان شمال أفريقيا (الجزائر وتونس وجزيرة جربة ومراكش)، وفي مراكش تناولت أوضاع اليهود في أعقاب حرب ١٩٦٧ ثم أحوال من تبقى من اليهود في تونس ومراكش، وتساءلت إلى أين ذهب يهود تونس ومراكش؟ واختتمت الفصل بهجرة يهود ليبيا.

وبصفة عامة لا يمكن حصر عدد اليهود في الدول العربية وتقسيماتهم بشكل دقيق خاصة قبل عام ١٩٤٨، بسبب ضعف الوعي الإحصائي العربي، وعدم وجود التمييز الطائفي، فضلاً عن غياب المسوحات والتعدادات السكانية في كافة الدول العربية قبل عام ١٩٤٨. وكان لقيام دولة (الكيان الصهيوني) سبباً في خلخلة أعداد اليهود في البلاد العربية بسبب تشجيعها لهجرة اليهود من البلاد العربية إليها. إذ فشل أصحاب القرار في إسرائيل في جذب المهاجرين اليهود من أمريكا، ولذلك اتجهوا لمناطق أخرى ومنها البلاد العربية، فعملوا بتركيز شديد على زعزعة أمن واستقرار اليهود في تلك البلاد.

وناقشت الباحثة دور الحركة الصهيونية في هجرة يهود العرب إلى فلسطين، وعلاقة اليهود العرب بالمنظمات الصهيونية، ومدى استجابتهم لدعواتها في الهجرة، وموقف القوى السياسية المختلفة من هجرتهم.

ارتبطت عمليات تهجير اليهود ارتباطا وثيقاً بالصراع العربي الإسرائيلي والإعلان عن تأسيس دولة إسرائيل، حيث بدأت عمليات تهجير اليهود من مختلف دول العالم.

وأفادت دراسات تاريخية بأن المنظمات اليهودية نشطت خلال الأعوام (١٨٨١- ١٨٨٥) في تهجير اليهود العرب وخاصة اليمنيين الذين كانوا أكثر القادمين إلى فلسطين عن طريق بلد ثالث، بشكل فردي وبصورة سرية.

وخلال عامي (١٩١١- ١٩١٢) هاجر من يهود اليمن قرابة (١٥٠٠) نسمة وارتبطت أسباب

هجرتهم أساسا بضغوط خارجية. وخلال الفترة (١٩١٩- ١٩٢٩) هـاجر (٨٩١٧) نسـمة بالإضـافة إلـى بضـعة ألاف هـاجروا بطريقـة غيـر مشروعة. وقلت تلك الهجرة عام ١٩٣٩ حيث لم يهاجر سوى (١٨٢) نسمة، وانخفض العدد عام ١٩٤٠ إلى (٨٠) مهاجرا، وانخفض أكثر عام ١٩٤١ إلى (٥٧).

وشـهدت بعـد ذلـك عملية تهجير يهـود اليمن نشاطاً بعد إرسال أعداد كبيرة من يهود أوروبا إلى عدن لتحريض اليهود اليمنيين على الهجرة إضافة إلى المجاعة التي حدثت في الشـمال، حيـث هـاجر حـوالي (١٧٨٨) مهـاجراً عام ١٩٤٤.

وكان خروج اليهود من مصر قد بدأ مع تقـدم القـوات الألمانيـة فـي صـحراء مصـر الغربية، حيث خشي اليهود من انتصار الألمان فـي الحـرب، وتكـرار مـذابح النازي فـي مصـر ففروا الى جنوب افريقيا، ومع قيام الثورة كان هناك حـرص علـى عـدم الصدام باليهود لكـن أول صدام بين اليهود والثورة كان بعد غارة اسـرائيل علـى غـزة عـام ١٩٥٥، ثـم كانـت التصفية الإجبارية بعد عدوان ١٩٥٦ كان اليهود شـاعرين بوجـود عـداء ضدهم لا سـيما فـي الوقـت الـذي بـدأ فيـه تمصير المؤسسـات الاقتصادية. ولا شك أن إسرائيل كسبت من يهود مصر الذين مثلوا إضافة اقتصادية لها.

والآن لا نسـتطيع القـول هـل أخطـأ عبـد الناصـر أم لا، فالمسـائل لا تؤخـذ إلا بوضـع الظـروف التاريخيـة المحيطـة بـالقرار فـي عـين الاعتبار.

إن قـانون العـودة (١٩٥٠) وقـانون الجنسيّة (١٩٥٢) يكفـلان لأيّ يهـوديّ يهـاجر إلـى إسـرائيل ويقـرّر الإقامـة الدّائمـة فيها الحصول علـى الجنسيّة الإسـرائيليّة والمواطنـة الكاملـة بصـورة شـبه فوريّـة. وقـد سـاهمت الهجـرة اليهوديـة بـأكثر مـن نحـو ٦٥ % مـن إجمـالي الزيـادة السـكانية فـي فلسـطين للفتـرة مـن ١٩٤٨- ١٩٥٨ ، وقـد لعبت عملية جـذب حـوالي مئتـي ألـف يهـودي عراقـي فـي الخمسـينيات دوراً بارزاً فـي ذلـك، وما زال جمع يهود العالم هـو المهمـة الأولـى للصـهيونية. وكـان تهجيـر اليهـود العـراقيين قـد تـم مـن خـلال تفجيـر القنابل وسط أحيائهم، وكذلك الأمر مع يهود الـيمن وغيـرهم، وعمليـة "بسـاط الـريح" و "نحميا" جـزء مـن تلـك العمليات التـي نفـذها عملاء الصهيونية آنذاك.

وأخيـراً جـاءت الخاتمـة التـي تضـمنت رؤية تحليلية لِمَنْ تبقّى مِنْ يهود البلاد العربية، حيث تفيد الاحصائيات الإسـرائيلية أن إجمـالي عـدد المهـاجرين اليهـود مـن الـبلاد العربيـة إلـى إسـرائيل خـلال الفتـرة ١٩٤٨ – ٢٠١٠ هـــو ٦١٩,٨٧٥ يهوديـــاً. وأن إجمـالي عـدد اليهـود المتواجـدين حاليـاً

فـي الـبلاد العربيـة هـو ٤١٠٠ يهـودي يتوزعون على النحو التالي:

المغـرب:٢٧٠٠، تـونس:١٠٠٠، الـيمن٢٠٠، سورية:١٠٠، مصر١٠٠يهودي.

وأغلبيـة الجاليـات اليهوديـة هـاجرت مـن الـدول العربيـة فـي أواسـط القـرن العشـرين، والنسبة الأكبر هاجرت إلى إسرائيل بعد قيام الدولة عام ١٩٤٨.إلا أن عشرات الآلاف هاجرت إلـى دول أوروبيـة وإلـى الولايـات المتحـدة بدوافع شخصية،أضف إلى ذلك قدراتها المالية التـي يسـرت لها العـيش والتـأقلم فـي تلـك الدول.

بالنسـبة لمسـتقبل اليهـود الـذين يقيمـون حاليـاً فـي البلـدان العربيـة كـاليمن وتـونس والمغـرب وسوريا،فالواضـح أنهـم يحظـون بمعاملـة طيبـة،وإلا فبإمكـانهم أن يحزمـوا حقائبهم ويشدوا عصا الترحال .

والواضـح أيضـاً أن الـدعوات الإسـرائيلية للهجـرة إلـى إسـرائيل تكـون فعالـة فـي ربـوع الجاليات اليهودية عندما تتعرض هذه الجاليات للاضطهاد .وغالبية الدول العربية التي يتواجد فيها اليهود حالياً تسعى أنظمتها إلى تـوفير المعاملة الطيبة لليهود كـي تثبت للعالم أنها تنفذ ما ينص عليه الدين الحنيف من احترام أهـل الكتـاب وتـوفير الحمايـة لهـم. ونلاحـظ حاليـاً أن أنظمـة عربيـة - كـالعراق الجديـد والمغـرب وتـونس وحتـى ليبيا - تـدعو اليهـود الذين نزحوا منها إلى العودة وإعادة الجنسيات العربية لهم.

وتتسائل الباحثة فـي نهايـة المطاف، هـل مـن مسـتقبل لليهـود فـي العـالم العربـي؟ وتتـرك الإجابـة للمسـتقبل الحافـل بكـل المفاجآت.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

